أ .د . حلمي محمد القاعود

المآذن العاليـة

رجال من ذهب

١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين ..

وبعد :

فهذه الصفحات تقدم مجموعة من الرجال الذين يعتز بهم الإسلام في العصر الحديث وفي كل عصر ، لأنهم بعثوا الإسلام من جديد ، وجلوا مفاهيمه وقيمه ، وحركوا الأمة نحو تحقيق مقاصده وغاياته ، وتحملوا في سبيل ذلك مشقات ومكابدات يحتسبونها عند خالقهم جل وعلا .

لقد اهتمت الأجهزة الثقافية في البلاد العربية بتقديم نماذج أخرى من الناس ؛ لم يكن الإسلام في حسبانهم ، ولا مقاصده في وجدانهم ، ولا غاياته في تقديراتهم ، بل كان بعضهم حربا عوانا على الإسلام والمسلمين جميعا ، تنفيذا لمخططات شيطانية ، تستهدف ديننا الحنيف وأهله ، ومن وراء ذلك الثروات والأسواق والأرض وما عليها .

وأظن أنه من الضروري أن نقدم المآذن العالية أو الرجال الذهبيين للأجيال الجديدة ، ليعلموا أن آباءهم يملكون قدرات من الوعي والعلم والجهاد تقودهم إلى الطريق السويّ : نهوضا وتقدما وإعزازا للدين الحنيف .

وقد حاولت أن أركز على النقاط المهمة لدى كل علم من هؤلاء الأعلام ، ليأخذ القارئ صورة عامة لها خطوط رئيسية ، توضح صورته الإنسانية والفكرية والسلوكية بخطوط بارزة ..

لعل الله يعين على استكمال هذا المشروع لأقدم مجموعات أخرى من أعلام النهضة الحديثة والمعاصرة ، وإضاءة جانب مهم في مجال الجهاد العلمي والمعرفي والإنساني قام به الآباء والرواد ..

والله من وراء القصد ، وهو ولي التوفيق .

المحرم ١٤٣٧ هـ

نوفمبر ٢٠١٥م

حلمي محمد القاعود

بسم الله الرحمن الرحيم
مصطفى صادق الرافعي :
إمام البيان العربي الحديث

ـ ١ ـ

حين درست مصطفى صادق الرافعي قبل خمسة وثلاثين عاما ؛ كنت أركز على صفته التي اشتهر بها في مطالع القرن العشرين وهي حيازته لقب إمام البيان العربي ، بحكم ما تميز به من قدرة بلاغية على الصياغة والتعبير ، وفقا لأسلوب متميز يجعله في ذروة الأساليب الحديثة التي تقوم بهندسة الصياغة وتقطير العبارة ، واستخدام اللفظ المشبع بروح القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث العربي العظيم ، في إطار تصوير حي ومتفرد يجعل من يطالعه – دون أن يذكر اسمه - يتأكد أن هذا أسلوب الرافعي ..

إلى جانب هذا التميز البياني فإن الرافعي كان مدفعية ثقيلة دكت حصون خصوم الإسلام وأعدائه ، بتقديم قيم الإسلام المضيئة والدفاع عنها ضد الهجمة التغريبية التي شاءت أن تواجه الإسلام من خلال بعض أبنائه الذين انبهروا بالغرب ، وذابوا في هواه ، وتماهوا مع تصوراته ورؤاه .

كان الرافعي واحدا من أعلام النصف الأول من القرن العشرين الذين أضافوا إلى التراث العربي والإسلامي إضافة ثرية في الفكر والأدب واللغة والثقافة والشعر . وكانت معاركه الأدبية مع طه حسين والعقاد وأحمد لطفي السيد وسلامة موسى وزكي مبارك وعبد الله عفيفي وغيرهم ؛ مجالا حيويا لإضاءة كثير من مناطق الأدب العربي والفكر الإسلامي ، وتحريك الحياة الثقافية نحو البحث والدرس في دائرة واسعة زاخرة بالقيم والأفكار والمثل ..

ولم تكن حدة المعارك الأدبية التي دخلها الرافعي حائلا دون أن يفيد القراء والجمهور جديدا في الصياغة والأسلوب ، فضلا عن الأفكار والقيم والحقائق الموثقة و التحليلات العلمية المنطقية .
ولعل هذا كان من وراء دراسات عديدة تناولت الرافعي ، في جوانب مختلفة من حياته وأدبه وفكره ، فضلا عن تقدير الإمام محمد عبده الذي كتب إليه قائلاً: " أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل " ، ثم مدْح الزعيم سعد زغلول لأدبه وفكره حينما صدّر كتابه تاريخ آداب اللغة العربية- الجزء الخاص بإعجاز القرآن قائلا :
"بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم " .
لقد تناوله عدد من الدارسين من أبرزهم مصطفى الشكعة في كتابه :"مصطفى صادق الرافعي. كاتباً عربياً ومفكراً إسلامياً " ؛ وحسين حسن مخلوف (مصطفى صادق الرافعي ، حياته وأدبه) ، ومصطفى نعمان البدري في رسالته " الإمام مصطفى صادق الرافعي " ، وكمال نشأت في كتابه (مصطفى صادق الرافعي) ، ومحمد رجب البيومي ، في كتابيه (مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن) و (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين –ج١) ، وإبراهيم عوض في كتابه (معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين) ، ومحمد سعيد العريان في دراسته (حياة الرافعي) و عبد الستار علي السطوحي في كتابه "الجانب الإسلامي في أدب مصطفى صادق الرافعي" ، كما أصدرت عنه مجلة " الأدب الإسلامي " عددا خاصا مزدوجا (العدد ٤٣، ٤٤) - ووائل حافظ خلف في كتابيه (هدم الدساكر على مَن بغى على الرافعي وشاكر)) و(مجمع البحرين في المحاكمة بين الرافعي وطه حسين)، وإبراهيم الكوفحي (مصطفى صادق الرافعي، الناقد والموقف) ، وإبراهيم عوضين (مصطفى صادق الرافعي أديباً إسلامياً)) ، وأحمد محمد عيش (سيرة الرافعي) ،علي عبد الحليم محمود(مصطفى صادق الرافعي والاتجاهات الإسلامية في أدبه) ، و نعمات أحمد فؤاد (دراسة في أدب مصطفى صادق الرافعي) ، و حامد محمد أمين شعبان ، (بلاغة القرآن في أدب الرافعي) .و عمر الدسوقي (مع الرافعي الكاتب) ،و محمد الأخضر بن مسعود (نثر الرافعي) ، و مصطفى الجوزو (مصطفى صادق الرافعي رائد الرمزية العربية المطلة على السوريالية) ، و : محمد بن علي الهرفي (شعر مصطفى صادق الرافعي بين التقليد والتجديد) ، وعبد القادر القط (مصطفى صادق الرافعي في رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد) ، و عباس بيومي عجلان (من أدب الرافعي ومعاركه) ، و محمد عبد القادر العمادي (الرافعي وطه حسين) ، و مها عبد الستار السطوحي (المرأة في أدب الرافعي - رسالة ماجستير) ، و عبد السلام هاشم حافظ (الرافعيُّ وميُّ) ،و حسن عبد القادر عبد الدايم (الرافعي ناقدًا - أثر القرآن في أدب الرافعي - رسالة ماجستير) ، و محمود محمد لبده (مدرسة الرافعي في الأدب الحديث - رسالة دكتوراه)، و محمد عزت أحمد (معارك مصطفى صادق الرافعي التعليمية وأثرها في الأدب والشعر - رسالة دكتوراه) ، ومحمد إسماعيل عبد الحميد إسماعيل (مصطفى صادق الرافعي شاعرًا - رسالة ماجستير) ، وسعاد

صالح عبد المطلب (الجانب الديني في نثر الرافعي - رسالة ماجستير) ، وأحمد عبد القادر الطويل (القيم الإسلامية في أدب الرافعي - رسالة ماجستير) . . . .
وهناك عشرات المقالات والدراسات ؛ كتبها أعلام عصره ومن جاء بعدهم حتى يومنا هذا تناولت جوانب عديدة في حياته ومواقفه وأدبه وشعره ، فضلا عن بعض المقدمات التي وضعت بين يدي تحقيق ديوانه وكتابه على السفود.. وقد عقدت جامعة طنطا – كلية التربية عام ١٩٨٧م ، مؤتمرا دوليا حول الرافعي وحياته وأدبه .
وبصفة عامة فشخصية مثل هذه دارت حولها مثل هذه المؤلفات والكتابات والاهتمامات جديرة بالنظر إليها من حين لآخر ، لترى الأجيال الجديدة ملامح مما قدمته للأمة خدمة للغة والأدب والإسلام ، خاصة أنه من جيل راد الطريق ، وواجه عملية الصراع الثقافي كأعتي ما يكون بين ثقافتين ، إحداهما وطنية ترتبط بالمعتقد والوجود ، وأخرى غالبة ترتبط بالقوة والهيمنة ومبدأ المنفعة التي لا تخضع للقيمة أو الأخلاق .
وقد لقي الرافعي بعد رحيله إهمالا ملحوظا في الحياة الثقافية داخل مصر ، وإن كان العرب خارجها قد احتفوا به حفاوة كبيرة ، ولعل إهماله في مصر يعود إلى تحديه لمن يهيمنون على الصحافة والثقافة في ذلك الحين ومواجهتهم بسلبياتهم في وضوح وجرأة لا يعرفهما غير الرافعي ، وقد عبر عن هذه الحالة محب له ودارس ومترجم ، هو محمد رجب البيومي – رحمه الله – حيث أوضح أن الرافعي قد ظُلم لدى مؤرخي الأدب في العصر الحديث ، وتعرض لحملات ظالمة من أعدائه الذين جمعتهم العداوة للإسلام والتبعية للاستعمار، والدعوة للإباحية ، فقد تواطأوا على النيل منه والحط من أدبه ، لأنه كان حربا عليهم جميعا ، ويقف أمامهم مدافعا عن دين الله والعروبة ومجد الشرق ، وانتصر عليهم في مواطن كثيرة ((انظر : محمد رجب البيومي ، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥م ، ١/ ٤٣٥) .
لقد ترسب في أذهان بعض الأدباء والنقاد أن الذي بقي من الرافعي هو ما كتبه عن علاقته بالأديبة مي ، وعمد بعض المتعجلين إلى الاتكاء على كتاب واحد للرافعي هو "على السفود " وجعلوه خلاصة أدبه في صباه وشبابه وكهولته ! ومع أن هذا الكتاب لم يظهر باسم الرافعي الصريح – كما يقول البيومي - مقدرا ما يحمله من قسوة النقد على العقاد لأسباب كثيرة ، واعترافه بأنه سلاح كريه اضطر لاستعماله في ساحة اللجاج ؛ فإن المغرضين جعلوه الطريق الأوحد في مجال النقد الأدبي ! (السابق ،٤٣٧/١) .
ومع أن الرافعي صنع عالما كبيرا تصعب الإحاطة بمعظم ما قدمه فيه للإسلام واللغة العربية والأدب العربي ، فإنه لم ينل ما يستحق من الحياة الأدبية والثقافية في مصر . " لقد أدى الرافعي دوره الضخم في بعث اليقظة الإسلامية وإيقاد الحمية العربية ، وعلى من يتصدر للحكم عليه ألا يقف عند الكلف الباهت في وجه القمر ليجعله وحده مجال القول ، تاركا أثر هذا الكائن المشرق في هداية المدلج ، وإضاءة الطريق ، وجمال الليل ، وسلام الحياة " (السابق ، الصفحة نفسها) .

والرافعي هو : مصطفى صادق عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (١٢٩٨ هـ - ١٣٥٦ هـ الموافق أول يناير ١٨٨٠ - ١٤ مايو ١٩٣٧ م) ، وقد ولد في بيت جده لأمه في قرية "بهتيم" بمحافظة القليوبية ، وعاش حياته في طنطا . ووالدة الرافعي سورية الأصل كأبيه ، وكان أبوها الشيخ الطوخى تاجرا تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام، وأصله من حلب، وكانت إقامته في بهتيم مسقط رأس الرافعي وكان له فيها ضيعة . وقيل إن أسرة الرافعي يتصل نسبها بعمر بن الخطاب –رضي الله عنه (انظر : محمد سعيد العريان ، حياة الرافعي،المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م ، ص ٢٣-٢٧) .
ونشأ الرافعي على الثقافة السائدة لأسرة من أهل العلم هي أسرة الرافعي؛ فاستمع من أبيه أول ما استمع إلى تعاليم الدين، وجمع القرآن حفظاً وهو دون العاشرة، فلم يدخل المدرسة إلا بعدما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين،ثم
دخل الرافعي المدرسة الابتدائية في المنصورة وتخرج فيها سنة ١٣١٥ هـ ونال شهادتها وهو في سن السابعة عشرة ، ثم أصيب بمرض يقال إنه التيفود أقعده عدة شهور في سريره وخرج من هذا المرض مصابا في أذنيه ، وظل المرض يزيد عليه عاما بعد عام حتى وصل إلى الثلاثين من عمره وقد فقد سمعه بصورة نهائية، مما أثر على تعليمه النظامي ؛ فلم يحصل الرافعي في تعليمه على أكثر من الشهادة الابتدائية. فكان مثل العقاد في التعليم النظامي ، حيث لم يحصل كل منهما إلا على الشهادة الابتدائية (تعادل الإعدادية في أيامنا تقريبا) . ويشبه الرافعي طه حسين أيضا ، فكل منهما صاحب عاهة دائمة ؛ هي فقدان البصر عند طه حسين وفقدان السمع عند الرافعي ، ومع ذلك كان الرافعي مثل زميليه العقاد وطه حسين من أصحاب الإرادة الحازمة القوية فلم يعبأ بالعقبات، وإنما اشتد عزمه وأخذ نفسه بالجد والاجتهاد، .وعندما اضطره المرض إلى ترك التعليم الرسمي، ، استعاض عنه بمكتبة أبيه الزاخرة، إذ عكف عليها حتى استوعبها وأحاط بما فيها. وكانت علته سببًا باعد بينه وبين مخالطة الناس، فكانت مكتبته هي دنياه التي يعيشها وناسها ناسه، وجوها جوه وأهلها صحبته وخلانه وسمّاره، وقد ظل على دأبه في القراءة والاطلاع إلى آخر يوم في عمره، يقرأ كل يوم ٨ ساعات لا يكل ولا يمل كأنه في التعليم شادٍ لا يرى أنه وصل إلى غاية ..
في الرابعة والعشرين من عمره تزوج الرافعي من أخت صديقه الأديب الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة البيان وصاحب شرح ديوان المتنبي، فكانت نعم الزوج والصديق الوفي ، وأنجب من زواجه عشرة أبناء .
عمل الرافعي في عام ١٨٩٩ كاتب محكمة في محكمة طلخا، ثم انتقل إلى محكمة إيتاي البارود الشرعية ، ثم إلى محكمة طنطا الشرعية، التي قضى بها نحو سنتين ، ثم انتقل منها إلى المحكمة الأهلية بطنطا ، لأن العمل فيها أيسر وأكثر أجرا ، وبقي فيها حتى لقي وجه ربه الكريم (حياة الرافعي ، ٣٤) .
وكانت الوظيفة بالنسبة للرافعي مجرد مصدر للرزق يعينه على العيش، ليفرغ لنفسه ولما تهيأت له ، وهو المطالعة والدرس ، حيث لم ينقطع عنهما يوما واحدا ، وما أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته ..

لقد كان حريصا على أداء عمله ، ولكنه لم يكن يعبأ بمواعيد الحضور والانصراف في المحكمة ، وهو ما جعل أحد رؤساء المحكمة يستدعيه ذات مرة ، فلم يذهب إليه ، فكتب مذكرة إلى الوزارة في القاهرة مطالبا بعزله من وظيفته وإقالته من الخدمة .
وجاء مفتش من القاهرة ليحقق مع الرافعي في مذكرة رئيسه ضده ، وكان المحقق هو الشاعر اللبق حفني ناصف بك، الذي استمع من الرافعي إلى رأيه الذي يتلخص في أنه لا يقصر في عمله ، أما الحضور والانصراف فلا يعنيانه ، فما كان من حفني ناصف إلا أن كتب تقريرا ينصف الرافعي ، ويقول : إن له حقا على الأمة أن يعيش في أمن ودعة وحرية ، وإن الوظيفة ليست موضعه ، وطلب من المسئولين أن يتركوه يعيش كما يشتهي أن يعيش ، ويعمل ويفتن ويبدع لهذه الأمة في آدابها ما يشاء أن يبدع " وإلا فاكفلوا له العيش الرخي في غير هذا المكان ..!" (السابق ، ٤١) .
ومن يومها لم يعد أحد في المحكمة يُسائل الرافعي ، ولكنه لم يهمل في واجبه قط ، ويلاحظ أن صلته توثقت بحفني ناصف فيما بعد ، وخاصة بعد أن تولى الأخير القضاء في محكمة طنطا .
وكان الرافعي نبيلا كريم الخلق في وظيفته ، لدرجة أنه كان يحمل عن زملائه أخطاءهم في العمل ، حتى لا يتعرضوا إلى شر هو أقدر على الخلاص منه ، وقد رآه صديقه محمد سعيد العريان الذي يعد أول من ترجم له ترجمة دقيقة موسعة ، في صيف عام ١٩٣٤م ، وقد لزمه مفتش من وزارة العدل ثلاثة أشهر أو يزيد ، ليستجوبه عن خطأ في تقدير الرسوم لأكثر من مائتي وعشرين قضية ، وقد بلغ النقص في الرسوم المتحصلة عنها بضعة وتسعين جنيها ، والرافعي يرد المفتش ويدافعه ، ويرى له الرأي ، ويصف له العلاج ، والمفتش دائب الحضور كل يوم يبحث ويستقصي ، وما ضاقت به أخلاق الرافعي الذي لم يخطئ خطأ واحدا في هذه القضايا ، بل كانت أخطاء زملائه " (السابق ، ص ٣٧) .
وبصفة عامة ؛ فقد كان الرافعي محبوبا من كل العاملين بالمحكمة ، حتى من المحامين الذين كانوا يلقبونه أو يسمونه " عمدة المحكمة " (نفسه ، ص ٣٩) .
وكان الرافعي في أخلاقه العامة مزهوا بنفسه ، معتدا بعلمه ، قويا بإيمانه ، لا يهاب مواطن الهلاك ، وكان منذ بداياته الأدبية حادا عنيفا فيما يرى أنه الحق والصواب (السابق ، ٥٨) .

-٣-

كان الرافعي يأمل في بداية حياته أن يكون شاعرا وأميرا للشعراء ، وشاءت إرادة الله أن ينصرف عن الشعر إلى الدفاع عن الدين والذود عن العربية والصيال في سبيل الله ، وقد تعرف على الشاعر العراقي الأشهر في زمانه عبد المحسن الكاظمي ، وكانت علاقته به وطيدة ، كما تعرف على أعلام الشعر آنئذ مثل حافظ إبراهيم ، وإسماعيل صبري ، ونشر الرافعي الجزء الأول من ديوانه الذي حمل اسمه (ديوان الرافعي) عام ١٩٠٣، ونشر الثاني عام ١٩٠٤، ونشر الثالث عام ١٩٠٦، كما نشر في عام ١٩٠٨ديوانه النظرات ، وفي عام ١٩١١ تغير مسار الرافعي ، وتوجه وجهة جديدة في الأدب ، وانصرف عن الشعر إلى الكتابة النثرية .

ومع ما أنجزه في ميدان الشعر من نجاح لفت إليه الأنظار إلا أنه في الواقع لم يكن يستطيع أن يتجاوز المكانة التي وصل إليها الشعراء الكبار في عصره وخاصة أحمد شوقي وحافظ إبراهيم فقد أُعطى هذا الشاعران ملكة التعبير عن مشاعر الناس وهمومهم في هذا الجيل.

تميز شعر حافظ إبراهيم وأحمد شوقي بالسهولة والغزارة مما أتاح لهما القدرة على الانتشار بين القراء حتى لو كان هؤلاء القراء متوسطين في ثقافتهم فأين يذهب الرافعي في هذه المعركة الكبيرة وشعره لم يكن شعرا سهلا بل كان شعرا صعبا يحتاج إلى ثقافة أدبية ولغوية عالية لكي يفهمه من يقرأه ولكي يتذوقه بعد ذلك ويستمتع به ؟

ولعل الرافعي هو من أطلق أول صرخة اعتراض على الشعر العربى التقليدي في أدبنا وفق ما يقوله محمد سعيد العريان : " إن في الشعر العربى قيودا لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن نفسه الشاعرة ، أو تؤيد ما أدعيه أنا ، من أنه كان يشعر بالعجز عن الإبانة عن كل خواطره الشعرية في قصيده من المنظوم، ولا يعجزه البيان في المنثور . نعم ، كان شعر الرافعي أقوى من أداته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره .." (حياة الرافعي ، ص ٧٣) .

ولعل وقفة الرافعي ضد قيود الشعر التقليدية أخطر وأول وقفة عرفها الأدب العربي في تاريخه الطويل ، وإذا عرفنا أنها كانت مع بداية تحوله إلى النثر وتوجهه نحو ميادين الدفاع عن الإسلام واللغة العربية وتاريخ المسلمين ، فإنه بذلك يسبق معظم الدعوات الأدبية الأخرى التي دعت إلى تحرير الشعر العربى جزئيا أو كليا من الوزن والقافية. ومع ذلك فهناك مقولات للرافعي بعدئذ تؤكد أن الشعر لا يكون شعرا إلا من خلال التقاليد الفنية ، وخاصة الوزن والقافية .

لقد كتب الرافعي مقالته عن «الشعر العربي في خمسين سنة» ويقصد بها الفترة التي سبقت إنشاء مجلة «المقتطف» التي كان يكتب بها ، وتضم الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي والربع الأول من القرن العشرين تقريباً.. وقد تحدث فيها عن أسباب تخلف الشعر العربي قبل النهضة، ثم تكلم عن آثار النهضة في إثراء الشعر وتقدمه، وقد ذكر بوعي يقظ وإدراك عميق هذه الآثار التي تتلخص في إدخال القصة إلى الشعر، وصياغة بعض الشعر على أصل التفكير في الإنجليزية والفرنسية، والانصراف عن إفساد الشعر بصناعة المديح والرثاء، والإكثار من الوصف والإبداع في بعض مناحيه، وإهمال الصناعات البديعية التي كان يبني عليها الشعر، والنظم في الشئون الوطنية والحوادث الاجتماعية، واستخراج بعض أوزان جديدة من الفارسية والتركية.

وواضح أن للرافعي «رؤية ثورية» - إن صح التعبير – تطمح إلى التجديد، ورفض الجمود. مع ما يشاع عنه بأنه متعصب للقديم، فمن خلال المقالة السابقة تبدو أصالة النظرة التي ينظر بها «الرافعي» إلى القضايا الأدبية، إنه مع التجديد الذي يثري الأدب العربي، وليس مع ذلك التجديد الذي يطيح بالأصول والفروع جميعاً.

كان للرافعي فيما بعد شعر آخر أقوى من شعره المنظوم ، وهو ما نراه في كتبه الوجدانية التي عبرت عن عواطفه ومشاعره في تصوير حيّ ، وتعبير خلاق ، أعني

ما كتبه في كتبه العاطفية : السحاب الأحمر ، حديث القمر ، رسائل الأحزان ، وبعض فصول وحي القلم .
وهو في هذه الكتب وما يشبه نصوصها في كتبه الأخرى قد بلغ الغاية في التصوير والتعبير الذي يتواضع أمامه شعره المنظوم كله .
ويرى " كمال نشأت " أن شاعرية الرافعي قد تحققت في كمالها ونضجها في كتاباته النثرية ، وبخاصة في " أوراق الورد " ، فالرافعي شاعر كبير في نثره ، وشاعر وسط في قصيده ، ولعل قصيدته النثرية " نشيد اليمامة " التي قالها على لسان مارية في قصة " اليمامتان " المنشورة في " وحي القلم " ذات مستوى لم يصل إليه شعره المنظوم (كمال نشأت ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٢١) .
ومهما يكن من أمر ؛ فإن الرافعي حقق سبقا ملحوظا في ميدان مهم للغاية ، وهو ميدان الأناشيد ، فقد نظم مجموعة من الأناشيد جعلته بحق شاعر الأناشيد ، خاصة وأن بعضها ما زال يتردد على ألسنة المصريين والعرب وتلاميذ المدارس ، ومن أشهر هذه الأناشيد التي رددتها الأجيال : اسلمي يا مصر ، إلى العلا ..إلى العلا بني الوطن ، حماة الحمى ...

- ٤ -

تستطيع أن تجد لكل أديب شبيها في السابقين أو المعاصرين ، ولكنك لا تستطيع أن تجد لمصطفى صادق الرافعي في نثره هذا الشبيه كما يقول محمد رجب البيومي ، إذ كان الرجل نسيج وحده دون خلاف " (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ، ١/ ٤٣١) .
والرافعي يختلف عن معظم الكتاب ، في قدرته على تقديم الرؤية الجديدة في كتابته ووضع يده على مناطق لم يتطرق إليها الكتاب من قبل ، وهي خاصية تميز بها عن سواه " :
" وإن من أعظم خوارق الرافعي البيانية أن يتكلم في حادثة تعرفها تمام المعرفة – إذ قرأتها مرات في كتب التاريخ – ثم تطالع ما كتب الرافعي في هذا المجال الذائع ، فلا تجد غير الطريف الجديد ، حتى لكأنك تقرأ عن موضوع لم تسمع به قبل الآن " .
ومثال ذلك حادثة الإسراء المشهورة ، حيث يكتب الرافعي في الموضوع فيقول :
" لقد حار المفسرون في قوله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير) [الإسراء :١] فإن السرى في لغة العرب لا يكون إلا ليلا ،والحكمة (في ذكر كلمة الليل) هي الإشارة إلى أن القصة قصة النجم الإنساني العظيم ، الذي تحول من إنسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة ، ويتمم هذه العجيبة أن آيات المعراج لم تأت إلا في سورة النجم .
وأنا ما يكاد ينقضي عجبي من قوله تعالى : (لنريه من آياتنا) مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة ، يخيل إليك أن ليس وراءها شيء ، ووراءها السر الأكبر ، فإنها بهذه العبارة نص على إشراف النبي – صلى الله عليه وسلم – فوق الزمان والمكان ، يرى بغير حجاب الحواس ، مما مرجعه إلى قدرة الله لا إلى قدرة نفسه ،

بخلاف ما لو كانت العبارة : ليرى من آياتنا ، فإن هذا ما يجعله لنفسه في حدود قوتها وحواسّها وزمانها ومكانها ، فيضطرب الكلام ويتطرق إليه الاعتراض ، ولا تكون ثم معجزة وتحويل فعل الرؤية من صيغة إلى صيغة كما رأيت ، هو بعينه تحويل الرائي من شكل إلى شكل ، كما ستعرفه ، وهي معجزة أخرى يسجد لها العقل ، فتبارك الله منزل هذا الكلام ....إلخ " (السابق ، ٤٣٢/١ وما بعدها) .
لقد بدأ الرافعي كتابته النثرية بكتاب مدرسي اسمه ملكة الإنشاء " وضع فيه نماذج يحتذيها الطلاب عند كتابتهم لبعض الموضوعات التي تطلب عادة في المدارس ، ولا أظن هذا الكتاب قد أعيد طبعه مرة أخرى .
بيد أن الرافعي بدأ الكتابة الأدبية في الصحف مع إعلان الجامعة المصرية عن مسابقة لتأليف كتاب في تاريخ الأدب العربي ، وكان يأمل أن يعين مدرسا في الجامعة ، وشاء قدر الله أن تكون مقالاته في الموضوع ، وتأليفه لكتابه تاريخ آداب العرب ، سببا في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة المصرية ، وهما السبب أيضا في وضع ما وضع من كتب في هذا العلم (حياة الرافعي ، ص ٦٧) .
ثم إن «الرافعي» في تأريخه للأدب. اعتمد- ربما لأول مرة - على المنهج الرأسي الذي يعنى بتناول كل موضوع أدبي على حدة ، وهو يختلف عن المنهج الأفقي الذي درج عليه المستشرقون وبعض العرب في تقسيم التاريخ الأدبي إلى عصور وفترات زمنية معينة مثل العصر الجاهلي والعصر الإسلامي والعصر الأموي.. إلخ، وهو بهذا المنهج – كما يعتقد – يخدم الموضوعات الأدبية بوصفه وحدة متكاملة في كل العصور والأزمنة(الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، ط٤، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م : ١٧/١)، والكتاب يتحدث عن اللغة، والرواية والرواة، ومنزلة القرآن الكريم من اللغة، وإعجازه، والخطابة والأمثال، وعن الشعر ومذاهبه.. ويتوقف في كل باب عند كل ما يتصل بعنوانه من تاريخ وقضايا حتى يستوفيه.
وكان الرافعي مفتونا ببعض الكتاب الأجانب في أساليبهم إلى جانب استيعابه للأسلوب القرآني والبلاغة النبوية والتراث العربي القديم ، وقد أعجبته بعض التعبيرات الأجنبية البسيطة ، السهلة المعنى ؛ التي كتبها بعضهم ، ومنها على سبيل المثال عبارة فيكتور هيجو التي يقول فيها " وأصبحت السماء صافية كأنما غسلتها الملائكة بالليل "، وكانت هذه العبارة وأمثالها جذوة أشعلت لدى الرافعي ملكة الإنشاء (انظر : حياة الرافعي ، ص٧٦) .
وكان من أبرز كتبه التي تأثرت بهذه الجذوة كتاب " المساكين " ، الذي عالج فيه قضايا الفقر والمجتمع ، وكتب في افتتاحيته :
" أردت به بيان شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس " .
وهذا الكتاب اجتمع على إخراجه سببان : أهوال الحرب العالمية التي حطت على مصر بالجوع والقحط والغلاء ، والشيخ على الجناجي ، وهو رجل كان يعيش ليومه في قرية أصهاره ؛ منية جناج التابعة لمديرية الفؤادية آنئذ ، وقابله الرافعي هناك وتأثر لمنظره .

وقد لفت كتاب المساكين نظر كبار الكتاب والمشاهير ، ومن بينهم أحمد زكي باشا ، الذي كتب إلى الرافعي يقول :
" لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو ، وجوتة كما للألمان جوتة " .
حرص الرافعي على استخدام اللغة العربية والسمو بها والدفاع عنها ، وقرّ في نفسه أن هذه اللغة لن تعود إلى ماضيها المجيد ، حتى تعود " الجملة القرآنية " إلى مكانها مما يكتبه الكتاب ، وينشئ الأدباء ، وما يستطيع كاتب أن يشحذ قلمه لذاك إلا أن يتزوّد له زاده من الأدب القديم (السابق ، ص ٧١) .
كان الرافعي حريصا على التأنق في أسلوبه ، وتقطيره ، بحيث تراه حالة هندسية دقيقة في التصوير والتعبير ، وهو ما كان يدفعه أحيانا إلى الإغراق في الصور الذهنية التي تبدو وقد شابها شيء من التعقيد أو الصعوبة أو الغموض ، ولكنه لحسن الحظ لم يكن يتوسع في ذلك ، ويمكننا أن نجد حالة من التلقائية والعفوية المفرطة – إن صح التعبير - في رسائله التي كان يرسلها إلى تلميذه " محمود أبو رية " ، ففيها ينطلق على سجيته متخففا من أسباب الصنعة والأساليب المنمقة ، وليس معنى ذلك أن «الرافعي» خرج على أصول فنه أو طريقته في التعبير، ولكنه يتغاضى مؤقتاً – إذ صح القول – عن التنقيح، فتأتي رسائله عفوية خالية مما يؤخذ عليه أحياناً من استطراد أو ازدحام في المعاني أو تداخل في الصور.
ومن أمثلة رسائله التي يعبر فيها بتلقائية وعفوية ، ويجيب فيها عن بعض أسئلة تلميذه أبي رية ؛ رسالته عن وحي القرآن باللفظ والقراءات ، وجاء فيها:
«يا أبارية..
السلام عليكم، وبعد فإنك تسألني مسائل دقيقة تحتاج إلى الفكر وبسط الجواب، وهذا ما لا قبل لي به، فأنا مريض الدماغ حقيقة ولكني أجيبك بما قل ودل. وقبل هذا الجواب أنبهك إلى أنك كررت في كتابك ذكر النبي – صلى الله عليه وسلم - دون أن تتبع اسمه الشريف بصيغة الصلاة عليه، وهذا سوء أدب لا أقبله أنا من أحد ولا أقر أحداً عليه وأنت حين تقول في كتابك (إن الألفاظ ألفاظ محمد) لا تكاد تمتاز عن رجل مظلم القلب نعوذ بالله من هذه الظلمة، فانتبه إلى ذلك واستغفر الله لنفسك».
أما سؤالك فقد كثر الكلام في جوابه والذي أراه أنا أن ألفاظ القرآن منزلة بحروفها ونسقها وإلا بطل الإعجاز لأن الإعجاز لا يكون إنسانياً، ..إلخ» (رسائل الرافعي ، ص ٧٣).
وكان الرافعي لشدة حبه للعربية والإسلام الذي تعبر عنه ؛ قد انبرى لأحمد لطفي السيد صاحب الجريدة، حين دعا إلى تمصير اللغة سنة ١٣٣٠هـ = ١٩١٢ وإعلاء شأن اللهجات العاميّة، ودفعها لتكون لغة الكتابة، وأشار إلى أن هذه الدعوة تستهدف القرآن نفسه، وإلى الفصل بين الأداء العربي في الأسلوب الحديث، ومستوى البيان القرآني، من أجل تعميق الفوارق بينهما، وأن الهدف تمزيق اللغة العربيّة إلى لهجات إقليميّة .

كما تصدى لسلامة موسى عندما حمل على العربيّة، وغمز بالإسلام في كتابه (اليوم والغد) ، كما فجّر أيضا معركة مع خصوم العقيدة واللغة، كانت خيراً وبركة على التراث العربي أدباً وفكراً،وخرج بالدين من المعركة منتصراً .
ويلاحظ أن حظ الرافعي من العامية المصرية كان قليلا، وكان يسأل صديقه محمد سعيد العريان عن كلمة أو عبارة أو مثل ما يقع من أمثال العامة حين تلجئه الحاجة الأدبية إلى ذلك ، فقد كان يعده قاموس العامية (حياة الرافعي ، ص٣١وما بعدها) .
ويمكن القول : إن الرافعي جعل هدفه الأساس الذي يسعى إليه هو حراسة الدين وحمايته ، ودفع أسباب الزيغ والفتنة والضلال عنه، ثم النفخ في اللغة العربية روحا من روحه يردها إلى مكانها ويرد عنها ، فلا يجترئ عليها مجترئ ، ولا ينال منها نائل ، ولا يتندر بها ساخر ، إلا انبرى له يبدد أوهامه ، ويكشف عن دخيلته (انظر السابق ، ص ٧١) .

ـ٥ـ

وأبرز ما يميز كتابات «الرافعي»، في المجال الإسلامي ؛ هو «العاطفة» القوية الملتهبة التي تكاد تتأجج بين السطور، فهو رجل مسلم، يعنيه أمر الإسلام وما يقال عنه وحوله، وأمر المسلمين وتاريخهم وما يجري لهم وما ينتظرهم.. وكان يعدّ نفسه بكتاباته الإسلامية واحداً من حراس العقيدة الواقفين على ثغورها يدافعون عنها بكل ما يملكون، وينطلق في ذلك عنيفاً ثائراً مهتاجاً حين يستدعي الأمر الهياج والثورة والعنف، وموضوعياً عاقلاً هادئاً، حين يتطلب الموضوع الهدوء والتعقل والموضوعية.
إن كتابات «الرافعي» جميعها ترتبط بهذه «العاطفة» القوية الملتهبة من قريب أو بعيد، حتى في كتاباته التي تناولت العلاقة بين الرجل والمرأة في العشق والحب، كانت محكومة بمنطق تلك العاطفة الإسلامية تردعها وتردها عن التمادي والاستطراد إلى خارج ما هو معقول ومسموح، إنها في كل الأحوال محكومة بحكم العاطفة الإسلامية، وملتزمة التزاماً بحدود العقيدة الدينية.
وقد خصص كتابه «تحت راية القرآن» للرد على من نادوا بتجديد الدين، ومن قالوا بمذهب الشك في مصادر الشعر الجاهلي من خلال كتاب «طه حسين» في الشعر الجاهلي ، فقد لعب الرافعي دورا كبيرا في المعركة الأدبية الكبيرة التي نشبت في بداية الربع الثاني من القرن العشرين الميلادي، بسبب هذه الكتاب ، وتحولت فيما بعد إلى خصومة سياسية بين الأحزاب القائمة آنئذ، مما اضطر الجامعة المصرية إلى سحب الكتاب من التداول، وتراجع مؤلفه عن بعض آرائه، وتغيير اسمه إلى «في الأدب الجاهلي» (العريان ، حياة الرافعي ، ص١٣٢-١٣٣) .
كان الرافعي يرى المسألة دائماً – من جانب هؤلاء الداعين إلى التجديد – حملة ضد الإسلام والمسلمين، ومهما لبست دعاواهم من أزياء فهم على حد قوله يريدون بآرائهم الأمة ومصالحها ومراشدها، ويقولون في ذلك بما يسعه طغيانهم على القول واتساعهم في الكلام واقتدارهم على الثرثرة، حتى إذا فتشت وحققت لم تجد في أقوالهم إلا ذواتهم وأغراضهم وأهواءهم يريدون أن يبتلوا بها الناس في دينهم

وأخلاقهم ولغتهم، كالمسلول يصافحك ليبلغك تحيته وسلامه فلا يبلغك إلا مرضه وأسباب موته!» (الرافعي ، تحت راية القرآن ، ص ٨).

لقد كانت في الرافعي عصبية للدين ، ولهذا يفسر محمد سعيد العريان موقف الرافعي من طه حسين ، بأن الأخير كان في أول أمره " كاتبا يزعم أن له مذهبا جديدا في الأدب ، فعاد مبتدعا مضلا له من مذهب في الدين والقرآن ، فكما ترى البدويّ الثائر لعرضه أن ينتهك ، كان الرافعي يومئذ ، فمضي يستعدي الحكومة والقانون وعلماء الدين أن يأخذوا على يده ، ويمنعوه أن تشيع بدعته في طلاب الجامعة .. وترادفت مقالاته ثائرة مهتاجة تفور بالغيظ، وبالحمية الدينية وبالعصبية للإسلام والعرب ، كأن فيها معنى الدم !" (حياة الرافعي ، ص ١٥٦) .

كان الرافعي يكتب مقالاته حول الشعر الجاهلي في صحيفة شعبية واسعة الانتشار هي " كوكب الشرق "التي كانت لسان الوفد وسعد زغلول ، فحققت ما هدف إليه الرافعي من حملته على طه حسين وخصوم الإسلام بصفة عامة ،ويشير العريان أنها بعثت روحا دينية كانت راقدة ، وأذكت حمية كانت خامدة ، وألفت قلوبا كانت متنافرة ، ونبهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتا لتعمل للذود عن دين الله (انظر : حياة الرافعي ، ص١٥٨) .

ومع حدته في هجومه ، فإنه كشف كثيراً من الجوانب المتعلقة بالإسلام قد تخفى على كثيرين ، وهو منهج اتبعه الرافعي في كتاباته التي دافعت عن الإسلام في مناسبات متعددة تستدعى الدفاع عنه ، منها مثلا أنه عندما عرف أن كاتباً يفضل قولا للعرب على آية قرآنية هب للدفاع عن القرآن دفاعاً مجيداً، وخصص لذلك أكثر من مقالة (انظر مثلا : الرافعي ، وحي القلم ،دار الكتاب العربي ، بيروت ، د.ت ، ٣٩٧/٣ وما بعدها) .

من ناحية أخرى فقد ركز الرافعي على بيان فضائل الإسلام وأفضاله على الإنسانية ، وهو جانب أكثر رقياً في كتاباته بوجه عام، وأكثر إفادة وجمالاً أيضاً.ولعل أفضل ما كتبه «الرافعي» في هذا الجانب هو كتابه «إعجاز القرآن» الذي نشر بوصفه جزءا ثانيا من كتابه «تاريخ آداب العرب»، وفي هذا الكتاب تتألق موهبة الرافعي الأدبية، وعقيدته الدينية، في جلاء أسرار المعجزة الكبرى التي اختص الله بها سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – فيغوص بقلمه إلى أعماق لم يصل إليها أحد قبله، ويذكرنا بعبد القاهر الجرجاني، في كتابه العظيم «دلائل الإعجاز» إن عبقرية الرجلين، أوحدة ذهنهما، تؤدي دورها بفعالية في استكشاف المكنون من أسرار كتاب العربية الخالد، ولو لم يكتب الرافعي غير «إعجاز القرآن» لكفاه.

لقد خصص الرافعي عدداً كبيراً من مقالاته لبيان فضائل الإسلام وتقديمه إلى المسلمين وغيرهم بفهم واع، وتفسير سديد. وإنه في ذلك ليمثل «المسلم الظافر» الذي يعتز بدينه ويشعر بالقوة في داخله تحركه، وتأخذ بيده إلى مواقع النصر.. فلم يتحدث بضعف أو وهن ، ولم يأبه لاعتبارات قد تجعله يتحرز في إبداء عاطفته الدينية، ومشاعره الإسلامية وهو – كأعلام مدرسة البيان في عصره – يربط بين الإسلام والواقع ربطاً ناضجاً، ويأخذ من الجزئيات الصغيرة التي قد لا يفكر فيها بعض الكتاب ، معالم تقود إلى أشياء مهمة وخطيرة في حياة المسلم، من بين هذه الجزئيات

مثلاً ذكر اسم النبي – صلى الله عليه وسلم - في الأذان خمس مرات في اليوم والليلة ؛ فيرى في ذلك امتداداً لارتباط المسلمين بنبيهم الكريم – صلى الله عليه وسلم - وتواصلاً لبعث الرسالة باستمرار «فيمتد الزمن مهما امتد الإسلام كأنه على أوله، وكأنه في يومه لا في دهر بعيد، والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه تبعثه روح الرسالة، ويسطع في نفسه إشراق النبوة، فيكون دائماً في أمره كالمسلم الأول الذي غير وجه الأرض، ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحميته في كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة، لا كما ترى اليوم، فإن كل أرض إسلامية يكاد لا يظهر إلا إنسانها التاريخي بجهله وخرافاته وما ورث من القدم. فهنا المسلم الفرعوني وفي ناحية المسلم الوثني ، وفي بلد المسلم المجوسي ، وفي جهة المسلم المعطل .. وما يريد الإسلام إلا نفس المسلم الإنساني»(وحي القلم ، ٢/ ١١).
إن تناول الرافعي للإسلام وتاريخه، يتجاوز دائرة الرتابة، والإنشائيات المكرورة ، إلى أفق أكثر رحابة وبهجة، حيث تبدو مثالية الإسلام وخصائصه الباعثة على معانقة الحياة واستثمارها لصالح الإنسان بقيم الخير والحق والجمال، والتواصل المستمر مع الله.. ولعل أفضل مقالاته في هذا المجال، ما كتبه حول حقيقة المسلم (السابق، ١٢/٢ وما بعدها).
لقد اتكأ «الرافعي» على الحوادث التاريخية والمناسبات الإسلامية المختلفة مثل الهجرة والإسراء والمعراج وموقف أمهات المؤمنين والصيام.. ليصحح مفاهيم قاصرة ويضيء معالم جديدة لهذه المناسبات وتلك الحوادث ، وإنه في ذلك كله ليربط بين الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون، وبين هدى الإسلام ومنهجه الصحيح، ولا يتباطأ في توجيه النقد واللوم للمسلمين المعاصرين، خاصة إذا كانوا من العلماء المزيفين ؛ على تقصيرهم ومجافاتهم لروح الإسلام (نفسه ، ٢/ ٢٤٤ وما بعدها ، وانظر كتابي ، مدرسة البيان في النثر الحديث ، ط٢ ، دار النشر الدولي ، الرياض ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م ، ص ١٨٢ - ١٨٦).

وانطلاقا من الرؤية الإسلامية ؛ عالج الرافعي القضايا ذات الصبغة السياسية في عصره ، مع ملاحظة أنه لم يشتغل بالسياسة ، ولم يخض غمارها ، بل كان على حد تعبير «محمد سعيد العريان» تلميذ ه وصديقه، لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها، بسبب علته (فقد السمع) وإقامته في طنطا بعيدا عن العاصمة ، وتركيز اهتمامه في قضايا الفكر والثقافة ، مما جعل خصوماته الأدبية تنتهي إلى اتهامه في وطنيته ومذهبه السياسي، حتى صار عند بعض القراء رجلاً لا وطنية له ولا إنسانية فيه ولا إخلاص في عقيدته»(حياة الرافعي ، ص ٢٩٢) .
لقد نظر إلى العلاقة بين الحاكم والشعب ، والحاكم وعالم الدين وقضايا الاستقلال والحرية والشورى والنهضة الإسلامية نظرة إسلامية ، سواء عالجها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ؛ وغالبا ما كان يعالج هذه القضايا من خلال النظرة الكلية والتناول غير المباشر ، فإما يتحدث عنها من خلال التاريخ، أو يصنع رمزاً يصب فيه أفكاره، أو يصطنع قصة أو حوارا ليجلو أفكاره وآراءه.

ولعل سلسلة مقالاته «أحاديث الباشا» التي تضمنها الجزء الثاني من «وحي القلم» أبرز الأمثلة وأوضحها على نظرته للساسة المعاصرين له، وعلاقة الأمة بهم، ولأنه يرى أن الأخلاق هي عماد السياسة، وهي عماد الحقيقة على الإطلاق فإنه ينتقد الساسة، وينتقد الجمهور معاً.. ويربط بين الطرفين في رؤية عميقة تتجاوز الانفعال العاطفي السريع الذي تولده الأحداث أحياناً أو يغشى على بعض العقول في بعض الظروف، ومن هنا يصل إلى نتيجة تتلخص في قوله: «ومتى صار الكذب أصلاً يعمل عليه، تقرر عند الناس أن الكلام إنما يقال ليقال فقط، أفلست ترى الرجلين إذا أخبر أحدهما صاحبه الخبر فيه شيء من الغرابة أو البعد، لا يكلمه الآخر أول ما يتكلم إلا أن يسأله: صحيح؟ صدق؟

ولا أضر على الأمة من هذه العقيدة – عقيدة أن الكلام يقال ليقال فقط – فإنها هي طابع الهزل على أخلاق الأمة، وعلى كل أحوالها، وعلى حكومتها أيضاً»(وحي القلم ٢، ٢٦٤/٢).

ولعل لجوء «الرافعي» إلى التاريخ، واستدعاء بعض حوادثه الخاصة بعلاقة علماء الدين بالأمراء، كان يعني حديثاً مقنعاً عن الواقع السياسي، يمنعه عن الجهر به لأمور عديدة تخصه سبقت الإشارة إليها ، ويضاف إليها أيضاً كونه «شاعر الملك» وهي وظيفة أدبية شرفية ؛ تجعل صاحبها ناطقاً باسم السلطة – في شعره على الأقل – بيد أن مقالته القصصية «أمراء للبيع» التي حملت مناقشة حول معنى الإمارة والأمراء، وموقف كل من الشيخ تقي الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد والشيخ عز الدين بن عبد السلام من أمراء زمانهما – تعني هذه المقالة رفضه للطغيان واستعلاء الحكام (وحي القلم ، ٥٢/٣ وانظر مقالة الأسد في السابق ،٤٥/٣)، وهو ما تناوله أيضا باستفاضة في مقالته «تاريخ يتكلم» التي اعتمدت على أسلوب الرمز، وحمل فيها على «أتاتورك» وتتريكه «تركيا» ، ويشير إليه الرافعي بالطاغية، ويتحدث عن سيئاته وجرائمه ضد الشعب والدين والوطن، يقول عنه في بعض أجزاء المقالة والذي سماه «المجلس الخامس» :

«يزعم الطاغية أنه يعز قومه، وما أراه يعزهم، لكنه يمتحن ذلهم وضعفهم وهوانهم على الأمم، يتجرأ شيئاً فشيئاً منتظراً ما يتسهل، مترقباً ما يمكن، وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هي أمواتنا دفنوا أنفسهم فينا، فمن ذلك يهدم الأخلاق ويظن عند نفسه أنه يهدم قبوراً لا أخلاقاً.

ولقد سخر منه المصريون بنكتة من ظرفهم البديع، وجاءوه من غريزته، فصنعوا امرأة من الورق الذي يشبه الجلد، وألبسوها خفها وإزارها، حتى لا يشك من رآها أنها آدمية، ثم وضعوا في يدها قصة وأقاموها في طريقه، فلما رآها عدل إليها وأخذ من يدها القصة وقرأها. فإذا بها سب له ولآبائه، وسخرية من جنونه ورعونته المضحكة، فغضب وأمر بقتل المرأة، فكانت هذه السخرية أخرى حين تحقق أنها من الورق...» (وحي القلم ، ٢١٦/٢).

وعلى هذا النهج صاغ مقالته «كفر الذبابة»، وإن كان قد اتخذ من «كليلة ودمنة» والحوار فيما بينهما أسلوباً رمزياً آخر لمعالجة فكرة الطغيان والديكتاتورية التي عالجها في حديثه عن «أتاتورك»(وحي القلم ، ٢٦٢/٢).

ويلاحظ أن الرافعي في هذه اللون من النثر يلجأ إلى حشده بالقصص والحكايات والطرائف التي تؤكد فكرته، وتجلوها، وتحقق غاية «التشنيع» على الحاكم الديكتاتور، و«التحريم» لسلوك الطاغية الظالم.
ونظرة الرافعي إلى الاستقلال تتجاوز ما هو معروف لدى الناس والسياسيين عامة، من خروج جيش الاحتلال، وحكم البلاد بمعرفة شعبها وأبنائه.. إلى أن الاستقلال الحقيقي يعني سلامة مقوماته الثلاثة: اللغة والدين والعادات من التشويه والتعيير والتعديل. فهذه المقومات كانت دائماً وما زالت هدفاً للمؤامرات الاستعمارية، وضياعها يعني ضياع الوطن واستقلاله الحقيقي (السابق ، ٣٢/٣ وما بعدها).
إن الرافعي يرى أن الاستقلال الحقيقي للأمة العربية من الناحية الإنسانية
والحضارية لا يقوم إلا على أساس من الدين الإسلامي واللغة العربية، وبذلك ينفتح الطريق إلى الوحدة العربية..ويلاحظ أن «الرافعي» كانت له لمسة في غاية الدقة حين أشار إلى أن الساسة في الغرب، قد ساعدوا في توضيح صورتنا أمام أنفسنا، وأننا ينبغي أن نفيد من مخططاتهم لإصلاح واقعنا، ومواجهتهم بما يتلاءم مع قدرنا، وطبيعتنا وهويتنا «فإن نحن أخذنا من النظامات السياسية فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ في آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذي لا يجور على أخلاق الأمة ولا يفسد مزاجها ولا يضعف قوتها» (السابق ،١٧٤/٣).
وعلى كل، فإنه ينبغي ملاحظة أن «الرافعي» قد جعل «الدين الإسلامي» محور الحركة والتطور في كتاباته السياسي، وفي كتاباته عموماً، وهذا المحور هو الذي يفسر به الأحداث المختلفة داخل الوطن وخارجه، ويطرح من خلاله العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين المسلمين وغيرهم من دول الأرض، مستعمرين وغير مستعمرين .
ومهما يكن من شيء ، فإن «الرافعي» بعاطفته الدينية القوية، قد استطاع أن يؤكد في على أكثر من حقيقة، تقول بعظمة الإسلام وتفوقه ، من خلال كتابه الخالد وفضائله العظيمة،وأفضاله الجمة ، وإنه أي الرافعي بكتاباته الإسلامية قد قدم المثل للكاتب المسلم حين يملك الوعي بأصول عقيدته وتراثه فيهب للدفاع واثقاً من نفسه ومن إيمانه..ولعل هذا يغفر له بعض حدته التي تجاوزت أحيانا ما هو مقبول في قواعد النقاش والجدل. (انظر كتابي ، مدرسة البيان في النثر الحديث ، ص ١٩٧ - ٢٠١) .
وكان تناول «الرافعي» للقضايا الاجتماعية، مثل تناوله للقضايا الإسلامية والسياسية ؛ يدور في دائرة تصوره الإسلامي للمجتمع وقيمة وعاداته وتقاليده.. ومن ثم ، فقد كان حريصاً على أن يبرز هذا التصور بوضوح وحسم في كل قضية يتناولها أو يعالجها.
ويمكن القول: إن أهم القضايا الاجتماعية التي تناولها دارت حول الغنى والفقر، والزواج، والطفولة، وشئون المرأة والحجاب، والصراع بين الحضارة الإسلامية والمدنية الغربية في مرحلة النهضة الحديثة، والصراع الإنساني والتكالب على الحياة.

فإذا نظرنا إلى الغنى والفقر مثلا ، سنجد قضية لها مدلولها المهم في مصر على عهد الرافعي، وربما في عصرنا أيضاً، ولكنها في أيامه كانت الشغل الشاغل لكثير من الكتاب ، فالتفاوت الطبقي الرهيب، وانتشار ثالوث الفقر والمرض والجهل. جعل من قضية الغنى والفقر، مسألة حيوية بالنسبة للكتاب.. وقد تناولها الرافعي من زاوية التأمل الذي يرى في «الفقر» وصمة على جبين الإنسانية عامة، والأغنياء الشّرهين خاصة، وقد نجح «الرافعي» - لا سيما عندما يستخدم أسلوب الحكاية – في إدانة هؤلاء الأغنياء الذين يسخرون الدنيا – ومنها الفقراء – لخدمتهم والحدب عليهم والوقوف إلى جانبهم حتى ولو كانوا على خطأ وضلالة. ومن أنضج الأمثلة على ذلك مقالته القصصية.. «الطفولتان» التي تدور حول الطفل «عصمت» ابن أحد الأغنياء، و «جعلص» الولد الفقير، وإن كان الحوار الذي أجراه الرافعي بين الطفلين يفوق مستواهما العقلي، ويحسن هنا إثبات بعض الحوار، الذي تأتي أهميته في مضمونه، مع ملاحظة ما فيه من تورية وتصوير طريف:

قال جعلص: ما اسمك؟

قال (أي عصمت): أنا ابن المدير..!

قال جعلص: لا تبك يا ابن المدير تعلّم أن تكون جلداً، فإن الضرب ليس بذل ولا عار، ولكن الدموع هي التي تجعله ذلاً وعاراً: إن الدموع لتجعل الرجل أنثى. نحن يا ابن المدير نعيش طول حياتنا إما في ضرب من الفقر أو ضرب من الناس، هذا من هذا، ولكنك غني يا ابن المدير، فأنت كالرغيف (الفينو) ضخم منتفخ، ولكنه ينكسر بلمسة، وحشوه مثل القطن..» (وحي القلم ،٧٦/١- ٧٧).

ويبدو أن «الرافعي» في فلسفته للأمور، كان يريد أن يذكر الطرف الظالم بأنه ناقص ويحتاج إلى الكمال الذي يتوفر عند الطرف المظلوم بالضرورة. وهذا ما جعله يعقد لواء البطولة للفقراء: «وأنتم أيها الفقراء، حسبكم البطولة، فليس غني بطل الحرب في المال والنعيم، ولكن بالجراح والمشقات في جسمه وتاريخه(السابق ، ٧٧/١)، بل إنه يرفع الفقر إلى درجة السمو حين يتحدث عن فقر الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم (السابق ، ٤٦/٢- ٥٨). وهو في تناوله للقضايا المتعلقة بالغنى والفقر، مثل البخل والتشرد والبؤس والانتحار. لا يشذ عن منهجه كثيراً الذي يعتني بناحية التأمل في جوانب النقص والكمال لدى كافة الأطراف، مع إدانته الصريحة والواضحة للخروج عن القواعد التي أرساها الإسلام في هذا المجال»(انظر مثلا : وحي القلم ، ٥١/١ مقالة "حديث فطين " ، ٧٨/١ مقالة " أحلام في الشارع " ، ٨٥/١ مقالة " أحلام في قصر" ، ٣٠٦/١ ، ٢/ ٨٧- ١٤٠ مقالات " الانتحار").

لعلها سمة عامة عند «الرافعي»، وهي تناوله للقضايا المختلفة ـ ومنها قضايا المجتمع ـ بنظرة تأملية، تتجاوز الأحداث ووقائعها إلى مغزاها ومدلولها وتأثيرها.. ولعل هذا أيضاً، ما جعل «الرافعي» لا يلح على قضايا بعينها. وأحداث محددة بقدر ما يلح على مضمون قيم معينة ودلالات مخصوصة.

لقد كان يرى الحدث أو القضية، فلا يتوقف عند سرده وتفاصيله كما يفعل غيره ، ولكنه كان يقدح زناد فكره، ويغوص إلى أعماق الأمور. فيتناولها ويفلسفها، ويعلق عليها، ويربطها بحلقة متينة من القيم أو الأخلاق.

وقدا هتم «الرافعي» بصفة خاصة بموضوع «الزواج» وأفرد له عدداً من الصفحات تناول فيه مشكلات الزواج والمهر، وعالج عزوف الشباب عن الزواج وأسبابه المختلفة على ضوء الواقع الجديد، الذي أصبحت فيه المرأة متعلمة وعاملة وتخرج إلى ميدان العمل مثل الرجال، وقد تناول هذه القضايا على هيئة حوار يعرض لوجهات النظر المختلفة (انظر مثلا : وحي القلم ، ١٦١/١ مقالات " الطائشة " ، ١/ ٢٠٠ مقال "س .أ . ع " ، ٢١٤/١ مقالة " أرملة الحكومة ").

كما حظيت الطفولة والمرأة بنصيب وافر في كتابات «الرافعي» الاجتماعية ، وله في الطفولة كلام عذب رقيق حيث يرى فيها كمال الإنسانية وبراءتها (وحي القلم ، ١/ ٢٩ مقالة " اجتلاء العيد ") ، أما المرأة فقد شغلته بقضاياها التي سادت المجتمع آنئذ. خاصة مسألة الحجاب، وقد كان الرافعي حريصاً على تناول المسألة بمنطق يعنى المرأة قبل أن يعني الرجال، وقد نجح منطقة نجاحاً ملحوظاً ، خاصة عندما يقول مثلاً:

«وما هو الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة، وإغلاء سعرها في الاجتماع وصونها من التبذل الممقوت، لضبطها في حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم قانون العرض والطلب، والارتفاع بها أن تكون سلعة بائرة ينادي عليها في مدارج الطرق والأسواق: العيون الكحيلة، الخدود الوردية، الشفاة الياقوتية. الثغور اللؤلئية. الأعطاف المرتجة، النهود ال.. أو ليس فتياتنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هذا فإنهن لايظهرون في الطرق إلا لتنادي أجسامهن بمثل هذا»(وحي القلم ، ٣٩/١).

وهذه الوقفة من «الرافعي» مظهر من مظاهر الاحتجاج ضد غزو المدنية الغربية، بأخلاقها وعاداتها وتقاليدها وسلوكياتها، وهي وقفة تحرص كل الحرص على خصائص الشخصية الإسلامية ومقوماتها في مصر، دون أن تتنكر لمعطيات المدنية الغربية في جانبها المادي الخاص بالعلم وما يسمى في هذه الأيام «بالتكنولوجيا» وقد أشار إلى ذلك الرافعي في بعض مقالاته بوضوح(وحي القلم ، ٣/ ٣٢ وما بعدها).

وقد سجل الرافعي تطبيقاً لهذه الوقفة في موضوع « الربيطة » عن أولئك الذين تأثروا بالحياة الأوربية وتشبعوا بها، وأداروا ظهورهم لمجتمعهم المسلم وقيمه، فيخاطبهم قائلاً:

«... ألا ليتكم جئتم للبلاد من أوربا بمحاريث ، بدلاً من هذه المواريث. وجئتم بالسماد بدلاً من هذا الوساد (كناية عن الزوجة الأجنبية)، وبالبهائم للسواني (السواقي) لا بالحلائل والغواني، وببضائع الحوانيت لا ببضائع أنطوانيت...» (السحاب الأحمر ، ص٦٦).

وقد تناول الرافعي ظاهرة الصراع الإنساني والتكالب على الحياة – جشعاً وطمعاً – بالتأمل الذهني الذي يرى في الحيوان أعقل وأشرف من الإنسان، حيث أراح نفسه واكتفى بأن يأكل ويشرب دون صراع، ثم يسلم أمره أخيراً لله دون أسى على ما كان

أو ما سيكون(وحي القلم ، ١/ ٥٩ وما بعدها ، وانظر كتابي : مدرسة البيان في النثر الحديث ، ص١٦٦- ١٧١) .

-٧-

مؤلفات الرافعي :

تاريخ آداب العرب (ثلاثة أجزاء)، صدرت طبعته الأولى في جزأين عام ١٣٢٩ هـ، ١٩١١م. وصدر الجزء الثالث بعد وفاته بتحقيق محمد سعيد العريان وذلك عام ١٣٥٩ هـ الموافق لعام ١٩٤٠م.

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (وهو الجزء الثاني من كتابه تاريخ آداب العرب)، وقد صدرت طبعته الأولى باسم إعجاز القرآن والبلاغة النبوية عام ١٩٢٨م

كتاب المساكين، صدرت طبعته الأولى عام ١٩١٧م.

السحاب الأحمر

حديث القمر.

رسائل الرافعي، وهي مجموعة رسائل خاصة كان يبعث بها إلى محمود أبي رية ، وقد اشتملت على كثير من آرائه في الأدب والسياسة ورجالهما

تحت راية القرآن، مقالات الأدب العربي في الجامعة، والرد على كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين

على السفود، وهو رد على عباس محمود العقاد.

وحي القلم، (ثلاثة أجزاء) وهو مجموعة فصول ومقالات وقصص كتب المؤلف أكثره لمجلة الرسالة القاهرية بين عامي ١٩٣٤- ١٩٣٧م.

أوراق الورد.

رسائل الأحزان.

السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية، وهو بحث نفيس أنشأه الرافعي إجابة لدعوة جمعية الهداية الإسلامية بالعراق ؛ لتنشره في ذكرى المولد النبوي سنة ١٣٥٢ هـ . وقد صدّر به محمد سعيد العريان الجزء الثالث من وحي القلم ، ثم نشره منفصلا وائل حافظ خلف .

ديوان الرافعي (ثلاثة أجزاء) صدرت طبعته الأولى عام ١٩٠٠م.

ديوان النظرات (شعر) صدرت طبعته الأولى عام ١٩٠٨م.

ملكة الإنشاء ١٩٠٥م .

وفاته :

في اليوم السابق على رحيله ، قام الرافعي ببعض الزيارات الخاصة لأصدقائه ، وأداء بعض الواجبات الاجتماعية ، وفي فجر يوم الاثنين العاشر من مايو لعام ١٩٣٧ استيقظ فيلسوف القرآن لصلاة الفجر، ثم جلس يتلو القرآن، فشعر بحرقة في معدته، تناول لها دواء، ثم عاد إلى مصلاه، ومضت ساعة، ثم نهض وسار، فلما كان بالبهو سقط على الأرض، ولما هب له أهل الدار، وجدوه قد فاضت روحه الطيبة إلى بارئها، وحمل جثمانه ودفن بعد صلاة الظهر إلى جوار أبويه في مقبرة العائلة في طنطا. ومات مصطفى صادق الرافعي عن عمر يناهز ٥٧ عاماً(انظر وصفا تفصيليا للوفاة في : حياة الرافعي ، ص ٣٤٠ وما بعدها) – رحمه الله .

***

محمد رشيد رضا
تأسيس المنار والبعث الإسلامي

- ١ -

هذا رجل من أولي العزم من الرجال ، قام بدور مهم في مطالع القرن العشرين ، وأثر في الأمة شرقا وغربا بمواقفه وكتاباته وإصداراته ، ويمكن القول إنه واحد من القلائل الذين أسهموا في بعث الأمة وهيأوا لها سبل العمل من أجل الاستقلال والبناء ، وضحي بماله وجهده ووقته من أجل الخدمة العامة التي يقررها الإسلام في مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأعطي خلاصة علمه وكل عمله لخدمة هذا المفهوم ، وهو ما جعل كبار الكتاب والمفكرين في زمانه وبعد زمانه يكتبون عنه ، ويتناولون جوانب حياته المختلفة بالدراسة والبحث والتقدير والإشادة ، وما فعلوا ذلك إلا إيمانا بدوره العظيم في نهضة الإسلام مطالع القرن العشرين ، وتحريك المسلمين لفهم دينهم وتطبيقه في حياتهم تطبيقا صحيحا ، والعمل على رفض التبعية للاستعمار الغربي ونبذ الجانب السلبي في ثقافته ، وممن كتبوا عنه : أحمد أمين ، أنور الجندي ، جرجي زيدان ، جمال الدين الأفغاني ، جمال الدين الشيال ، سامي الدهان ، شكيب

أرسلان ، عبد القادر المغربي ، عبد المتعال الصعيدي ، عبود مارون ، عثمان أمين ، محمد البهي ، وغيرهم ..
والرجل منذ نشأته في قرية "القلمون " - تقع على شاطئ البحر المتوسط من جبل لبنان وتبعد عن طرابلس الشام بنحو ثلاثة أميال - حيث ولد في السابع والعشرين من جمادى الأولى ١٢٨٢ هـ = الثالث والعشرين من سبتمبر ١٨٦٥م ،إلى أن توفي بمصر في الثالث والعشرين من جمادى الأولى ١٣٥٤ هـ = الثاني والعشرين من أغسطس ١٩٣٥م ، وهو يؤدي دوره المميز في خدمة الإسلام والمسلمين . لقد رباه أبوه "علي رضا" وكان شيخًا للقلمون وإمامًا لمسجدها، تربية إسلامية طيبة حيث حفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ثم انتقل إلى طرابلس، فدخل المدرسة الرشيدية الابتدائية، ثم المدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس التي أسسها ورعاها الشيخ حسين الجسر، وكانت تهتم بتدريس اللغة العربية والعلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية ، وكان يرى أنه من الضرورة لرُقي الأمة الجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة الأوروبية الحديثة مع التربية الإسلامية الوطنية. وقد توثقت صلة رشيد رضا بالشيخ الجسر، واتصل بحلقاته ودروسه، بعد أن أُغلقت المدرسة ، وأحاطه الشيخ الجسر برعايته، ثم أجازه سنة ١٨٩٧م ؛ لتدريس العلوم الشرعية والعقلية والعربية، وفي الوقت نفسه درس "رشيد رضا" الحديث على يد الشيخ "محمود نشابة" وأجازه أيضًا لرواية الحديث، كما واظب على حضور دروس نفر من علماء طرابلس مثل: الشيخ عبد الغني الرافعي، ومحمد القاوجي، ومحمد الحسيني، وغيرهم . وعندما نفي الشيخ محمد عبده بعد الثورة العرابية وذهب إلى بيروت للإقامة بها ، كان رشيد رضا يتلقى دروسه في طرابلس ، ولكنه لم يستطع أن يلتقي بالشيخ مباشرة طوال إقامته في لبنان .
لقد كان محمد عبده يدرس في المدرسة السلطانية ببيروت، ويلقي دروسه التي حققت له شهرة فائقة وجذبت إليه طلبة العلم بما لديه من أفكار جديدة ولمحات ذكية وآراء جيدة مقنعة ، خاصة بعد أن ترك العمل في السياسة، وآثر أن يركز جهوده في الناحية التربوية والتعليمية بوصف ذلك سبيل الإصلاح وطريق الرقي .
وقد تركت شهرة الشيخ لدى محمد رشيد رضا إعجابا كبيرا به ، ورغبة قوية في متابعته والسير على نهجه التربوي الإصلاحي ، فاغتنم بعدئذ فرصة زيارة الشيخ إلى طرابلس تلبية لدعوة كبار رجالها، وتوثقت الصلة بين الرجلين، وازداد تعلق رشيد رضا بأستاذه، وقوي إيمانه به وبقدرته على أنه خير من يخلف "جمال الدين الأفغاني" في ميدان الإصلاح وإيقاظ الشرق من سباته.
وإذا كان رشيد رضا قد حقق أمنيته بلقاء الأستاذ الإمام ، فإن حلمه بلقاء جمال الدين الأفغاني مفجر الثورات وأستاذ محمد عبده والتلمذة على يديه لم يتحقق، واكتفى بتبادل الرسائل معه وإبداء الإعجاب به ، فقد كان جمال الدين في الآستانة يومئذ محاصرا وعين الدولة عليه لا تفارقه ، ثم إنه هناك فقد ذراعه اليمنى التي كانت تساعده وتحركه أعنى محمد عبده . ولم يلبث حتى انتقل إلى رحاب مولاه عام (١٣١٤ هـ = ١٨٩٧م) .

وكان لقاء طرابلس بالإمام محمد عبده بداية لعلاقة قوية فيما بعد نمت وتطورت على أرض مصر حين انتقل إليها محمد رشيد رضا .

- ٢ -

بيد أن تكوينه العلمي والفكري كان مستمدا بصفة عامة من كتب التراث الإسلامي ، فضلا عن القرآن الكريم الذي حفظه وكان لا يكف عن تلاوته ، والحديث الشريف الذي كان يدرسه ويوثقه وفقا لمنهج علماء الحديث ، وقد نال إجازة فيه عن أستاذه محمود نشابة الذي سبقت الإشارة إليه ، حتى صارت له مكانة عالية في علم الحديث ؛ ولقبه أحدهم باسم " فولتير المسلمين " . وقد شهد له أساتذته بصواب الرأي ورجاحة العقل فيما يعرض له من مسائل في الفقه أو الحديث .

لقد كان رشيد رضا متأثرا بالإمام الغزالي في تلقيه العلم ، وكان يضع نصب عينيه نصيحته التي ذكرها في الفرق بين " العلم الذي يصل إلى القلب أو النفس عن طريق الحواس ، والعلم الذي يتفجر منه بتطهيره من الصفات المذمومة والأفكار الرديئة ، حتى يكون كالمرآة الصقيلة ،بأن مثل الأول كالماء الذي يجري بين السواقي المحفورة على حفرة أو بئر ، يجتمع فيها مع كل ما يحمله في طريقه من الغثاء والوحل ، ومثل الثاني كماء الينبوع الذي يتفجر من الصخر النظيف " .

ويوضح محمد رشيد رضا ذلك في مذكراته بقوله : "فقد كنت أتحرى أن يكون قلبي طاهرا ونفسي زكية لأكون مستعدا للعلم الإلهامي ، ولتكون مرآة نفسي صقيلة ينطبع فيها ما تتوجه إليه من المعلومات الكسبية (المكتسبة) على اختلاف أنواعها " (انظر : إبراهيم أحمد العدوي ، رشيد رضا : الإمام المجاهد ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م، ص ٣١ – ٣٢) .

وكان إخلاصه للعلم وانقطاعه له ، ينطلق من حب للتقوى والعبادة ، وميل فطري للتنسك والزهد والتقشف وكبح جماح النفس ومقاومة الهوى مذ كان شابا صغيرا .

ويروى أنه جاءته إحدى الفتيات البارعات الجمال ، وقالت له : يا سيدي ، صدري ضيق ، حط إيدك المباركة عليه . فقال لها :إن اليد التي توضع على صدر أجنبية مثلك يد نجسة لا مباركة ، لأن هذه معصية . اذهبي وأنا أدعو الله أن يشرح صدرك ويزيل ضيقه .

لقد كان رشيد رضا يضع نصب عينيه ما يحدث لعلماء الدين والنساك من فساد لافتتانهم بالحسان والخضوع لهن ، وقد ظل الرجل يأخذ نفسه بطاعة الله والتمسك بتعاليم الدين الحنيف ، وكان الفضل في ذلك يرجع إلى شدة تأثره بكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (انظر : السابق ، ص ٣٦ – ٤٠) .

وإلى جانب الثقافة الإسلامية ، فقد اطلع محمد رشيد رضا على كتب الأدب واللغة ، فاكتسب منها القدرة على التعبير الجيد ، وتفتحت موهبته الشعرية منذ بداياته التعليمية ، فنظم كثيرا من القصائد الرقيقة في مناسبات مختلفة تدل على حرصه الواضح على الزهد وترك المظاهر الدنيوية الخادعة وتذكر الموت والآخرة ..

وقد هيأ له إخلاصه للعلم وانقطاعه للبحث والقراءة أن يقدم إنتاجا فكريا ضخما تمثل في كتاباته التي سطرها على صفحات المنار أو الكتب التي ألفها لبيان جوانب إسلامية أو رد شبهات يلهج بها خصوم الإسلام . لقد كان تراثه العلمي الذي خلفه

وراءه تراثا علميا رائعا ، لا ينهض به إلا رجل من أولي العزم من الرجال ؛ يعيش عيشة الصالحين المنقطعين للعبادة عن طريق العمل ، ويتضح من سرد أسماء تلك الأعمال العلمية أن صاحبها لم يعرف في حياته لغوا ولا لهوا ، وإنما استهدف الجد والنفع العظيم ، ومنها :
١ – الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية ، وهي أول مؤلفات رشيد رضا ، دوّنه في أثناء طلبه للعلم بالشام ، واستهدف به الرد على أبي الهدي الصيادي الذي عرض للشيخ الصوفي السيد عبد القادر الجيلاني . وانتهى رشيد رضا في هذا الكتاب إلى تحقيق مسائل في الإصلاح الإسلامي نشر بعضها فيما بعد في المنار .
٢ - مجلة المنار ،وصدر الجزء الأول منها سنة ١٣١٥هـ = ١٨٩٨م أي عقب هجرته مباشرة إلى مصر ، وآخر ما طبع فيها الجزء الثاني من المجلد الخامس والثلاثين ، في ٢٩ربيع الثاني سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م . ضمت ١٦٠ ألف صفحة، وتلك المجموعة من مجلة المنار هي المعلمة الإسلامية الكبرى والكنز الذي احتوى ثمار تجارب رشيد رضا وآرائه في الإصلاح الديني والسياسي. فضلاً عن رحلاته التي قام بها إلى أوروبا والآستانة والهند والحجاز، ومشاركته في ميادين أخرى من ميادين العمل الإسلامي.
وتعد المؤلفات الأخرى التي وضعها رشيد رضا فيما بعد فروعا لدوحة المنار ، أو شرحا لآراء سبق أن أشار إليها في المنار ، أو دراسات جمعها في وحدة واحدة بعد أن كانت شذرات مبعثرة في المنار ، ومن تلك المؤلفات :
٣ – تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وما جرى بمصر في عصره.
٤ – نداء للجنس اللطيف (حقوق النساء في الإسلام) .
٥ – الوحي المحمدي .
٦ - المنار والأزهر .
٧ – ذكرى المولد النبوي .
٨ – الوحدة الإسلامية .
٩ – يسر الإسلام وأصول التشريع العام .
١٠ – الخلافة أو الإمامة العظمى .
١١ – الوهابيون والحجاز .
١٢- السنة والشيعة .
١٣ – مناسك الحج ؛ أحكامه وحكمه .
١٤ – تفسير القرآن الكريم ، المعروف بتفسير المنار .
١٥ – حقيقة الربا .
١٦ – مساواة الرجل بالمرأة .
١٧ – رسالة في حجة الإسلام الغزالي .
١٨ – المقصورة الرشيدية .
وقد استطاع رشيد رضا بهذه المؤلفات أن يكون في صدره علماء عصره وعظمائه المصلحين ، كما استطاع أن ينتصر على خصومه بما كشفت عنه هذه المؤلفات من

رسوخ في العلم وإيمان بالعقيدة وثبات على المبدأ .وأن ينزع منهم عصا التمرد، ويحملهم على الاعتراف بزعامته (انظر :السابق أيضا ، ص٢٦٩-٢٧١) .

- ٣-

بدأ الشيخ رشيد رضا دعوته على أرض قريته الصغيرة ، فكانت القرية ميدانًا لدعوته الإصلاحية بعد أن تزود بالعلم وتسلح بالمعرفة، وصفت نفسه بالمجاهدات والرياضات الروحية ومحاسبة نفسه وتخليص قلبه من الغفلة وحب الدنيا ، وراح يلقي الدروس والخطب في المسجد بطريقة سهلة بعيدة عن السجع الذي كان يشيع في الخطب المنبرية آنذاك ، ويختار آيات من القرآن يحسن عرضها على جمهوره، ويبسط لهم مسائل الفقه، ويحارب البدع التي كانت شائعة بين أهل قريته.

ولم يكتف الشيخ رضا بمن يحضر دروسه في المسجد، فذهب هو إلى الناس في تجمعاتهم في المقاهي التي اعتادوا على الجلوس فيها لشرب القهوة والنارجيلة، ولم يخجل من جلوسه معهم يعظهم ويحثهم على الصلاة، وقد أثمرت هذه السياسة المبتكرة، فأقبل كثير منهم على أداء الفروض والالتزام بالشرع والتوبة والإقبال على الله (ويلاحظ أن الإمام الشهيد حسن البنا سار في دعوته على نهج رشيد رضا الذي تأثر به كثيرا ، وذهب مثله إلى الناس في المقاهي وصنع منهم أصحاب دعوة) ، وبعث رشيد رضا إلى نساء القرية من دعاهن إلى درس خاص بهن، وجعل مقر التدريس في دار الأسرة، وألقى عليهن دروسًا في الطهارة والعبادات والأخلاق، وشيئًا من العقائد في أسلوب سهل يسير.

ويبدو أن ميدان الدعوة في القرية أو في لبنان لم يكن مرضيا له ، وخاصة بعد ما كان من احتكاكات بين أهل الشام والولاة العثمانيين دفعت كثيرا من الشوام إلى الهجرة إلى مصر أو الأميركيتين ، فبحث عن ميدان أوسع وأرحب يساعد على الحركة الطليقة ، فهاجر إلى مصر ليعمل أستاذه وحبيبة الإمام مع محمد عبده تلميذ الأفغاني ، فهاجر إلى مصر ، ونزل الإسكندرية في مساء الجمعة (الثامن من رجب ١٣١٥ هـ = الثالث من يناير ١٨٩٨م)، وبعد أيام قضاها في زيارة بعض مدن الوجه البحري توجه إلى القاهرة واتصل على الفور بالأستاذ الإمام، وبدأت رحلة جديدة لرشيد رضا كانت أكثر إنتاجًا وتأثيرًا في تفكيره ومنهجه الإصلاحي.

- ٤ -

لم يكد يمضي شهر على نزوله القاهرة حتى صارح شيخه بأنه ينوي أن يجعل من الصحافة ميدانًا للعمل الإصلاحي، ودارت مناقشات طويلة بين الإمامين الجليلين حول سياسة الصحف وأثرها في المجتمع، انتهت بالاتفاق على تأسيس المنار حيث أقنع التلميذ شيخه بأن الهدف من إنشائه صحيفة هو التربية والتعليم، ونقل الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والخرافات والبدع، وأنه مستعد للإنفاق عليها سنة أو سنتين دون انتظار ربح منها.

وكانت هناك صحف في أواخر القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين تهتم إلى حد كبير بقضايا العالم الإسلامي، ومن أبرزها : المؤيد (على يوسف) وصدرت في أواخر ١٨٨٩، وكان محمد رشيد رضا يراها المجلة الإسلامية اليومية الأولى في زمنها ، ثم صدرت المنار (محمد رشيد رضا) في ١٨٩٨،واستمرت حتى وفاة

صاحبها ١٩٣٥ ، وتعد من أطول المجلات الإسلامية عمرا ، والحياة (محمد فريد وجدي) ، وصدرت في ١٨٩٩ وتوقفت بعد صدورها بوقت قصير ، ثم اللواء (مصطفى كامل) وصدرت في أوائل ١٩٠٠. وأصدر مصطفى كامل بعدها مجلة العلم الإسلامي عام ١٩٠٥وتوقفت ١٩٠٧، وأصدر عبد العزيز جاويش مجلة الهداية ولم تعمر طويلا ، ولكنه أصدر بعدها حين هاجر إلى تركيا مجلة العالم الإسلامي عام ١٩١٦-١٩١٧ ، وفي هذه المرحلة صدرت مجلات إسلامية عديدة مثل مجلة " مكارم الأخلاق الإسلامية " ومجلة جمعية الملاجئ ، ومجلة الأزهر التي استأجرها ويليم ويلكوكس لنشر دعوته إلى العامية ..

وكانت هناك مجلات لها طابع إسلامي ، ولكنها ليست إسلامية خالصة ، ومنها مجلة " مرآة الشرق " (١٨٨٣) ومصباح الشرق (١٨٩٨) ومجلة المجلات العربية (١٩٠٨) .

وكانت مجلة العروة الوثقى " قبل ذلك (١٨٨٣م) قد صدرت شهرية في باريس بمعرفة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وهما منفيان ، وصدر منها ستة عشر عددا ثم توقفت . وكانت أشهر المجلات الإسلامية الشهرية في وقتها ، وتأثر بها محمد رشيد رضا تأثرا كبيرا ، ولذا ارتبطت المنار بالعروة الوثقي ارتباطا وثيقا بحكم العلاقة بين صاحبي العروة ومحرر المنار ، الذي كان تلميذا مخلصا لأفكارهما ومنهجهما ، وكان محمد عبده بمثابة المشرف على المنار ، ويرى محمد رشيد رضا أن المنار امتداد للعروة إلا في مسائل السياسة ، فقد كانت العروة الوثقى قذيفة نارية على الاستعمار البريطاني ، بينما كان محمد رشيد رضا يتجنب معارضة النفوذ البريطاني . وسوف نلاحظ تشابها كبيرا بين منهجي العروة الوثقى والمنار في الأهداف والغايات والأسلوب ، وأن كثيرا من الكتاب البارزين في تلك الفترة التي شهدت وجود العروة والمنار وكتبوا فيهما أو تتلمذوا على فكر جمال الدين ومحمد عبده ؛ كانوا يسيرون وفق تصورات مشتركة غالبا ..

فمنهج العروة الوثقى يشير إلى تبني قضية الوحدة الإسلامية وتحرير الأوطان الإسلامية من النفوذ الأجنبي من خلال :

١ – إيقاظ الروح الكامنة في النفس الشرقية ومحاربة اليأس ومواجهة النفوذ الأجنبي الزاحف .

٢ – التماس منهج القرآن في بناء الأفراد والمجتمعات بوصفه المنقذ الوحيد للمسلمين .

٣ – تنبيه الأمة إلى ذاتيتها الأصيلة التي أنشأت الحضارة الزاهرة .

٤ – محاربة الاستعمار بكل الوسائل من خلال مفهوم الجهاد .

٥ – الدعوة إلى امتلاك أسباب القوة والتقدم والعلم والتمدن ؛ دون التخلي عن الجذور الإسلامية .

٦ – مقاومة التبعية والذوبان في الآخر (انظر : أنور الجندي ، الصحافة الإسلامية ، توزيع دار الأنصار ، القاهرة ، د.ت ،١/ ١٩) .

لقد دخلت العروة الوثقى بالصحافة الإسلامية إلى إطار الإسلام السياسي والحضاري والاجتماعي ، بعد أن كانت تقف عند الكتابات الخاصة بالعقائد والعبادات فحسب .

أما المنار فقد أعلنت عن غاياتها باختصار شديد في العدد الأول ، وإن كانت قد وسعت عمليا دائرة هذه الغايات في أعدادها اللاحقة بما نشرته من موضوعات تتفق مع غايات العروة الوثقى . ففي العدد الأول من المنار أعلنت أهدافها وغاياتها متمثلة فيما يلي :

- الإصلاح الديني والاجتماعي لأمتنا الإسلامية .
- اتفاق الإسلام مع العلم والعقل ومواقفه لصالح البشر في كل قطر وكل عصر.
- إبطال ما يورد من الشبهات عليه ، وتفنيد ما يعزى من الخرافات إليه.

وقد قارن محمد رشيد رضا بين العروة الوثقى والمنار ؛ فأشار إلى دور العروة الوثقى التي صدر منها ثمانية عشر عددا هزت القلوب ، وأيقظت العقول ، وكان الغرض من إنشائها : إثارة العالم الإسلامي ، وجمع كلمته لدفع عبودية الاستعمار الأوربي ، وتجديد دولة إسلامية عزيزة تتولى في ظل حريتها ما يجب من الإصلاح الديني والدنيوي .

أما غرض المنار؛ فهو إعداد الأمة لهذا التجديد ، وأول رسائله بيان أمراض الأمة ، وأسبابها ، ووصف علاجها ، وتأليف الجماعات للتعاون في المعالجة المطلوبة ...(انظر: السابق : ص ٢٥) ، وكأن رشيد رضا يريد أن يقول إن المنار تتكامل مع العروة الوثقى ،وإن كانت تتبني الدعوة إلى بناء الإنسان المسلم أولا ليحقق ذاته واستقلاله ومستقبله .

وقد أحصى الشيخ أحمد الشرباصي في كتابه (مدرسة الأستاذ الإمام وأثرها في اللغة والأدب) تلامذة العروة الوثقى والمنار، ممن جمعهم تصور إسلامي مشترك ، عبروا عنه في كتاباتهم ، وآرائهم فنذكر :

سعد زغلول ، حفني ناصف ، محمد المهدي ، مصطفى لطفي المنفلوطي، على يوسف، محمد رشيد رضا ، شكيب أرسلان ، عبد القادر المغربي ، عبد الرحمن البرقوقي ، أحمد لطفي السيد ، مصطفى عبد الرازق، أحمد تيمور ، محمد مصطفى المراغي ، أحمد فتحي زغلول ، إبراهيم اللقاني ، عبد الكريم سلمان ، إبراهيم الهلباوي ، عبد العزيز جاويش ، حافظ إبراهيم ، إسماعيل صبري ، رفيق العظم ، أحمد إبراهيم ، حسن منصور ، عبد الوهاب النجار ، مصطفى العناني ....

وكما نرى فهؤلاء أعلام في السياسة والأدب والشعر، والتعليم والصحافة والتحقيق والمحاماة والتأريخ كتب معظمهم في المنار ، وساروا على نهج منشئها وصاحبها ، وعالجوا القضايا التي هدف إليها...

- ٥ -

يقول محمد رشيد رضا عن إنشاء المنار :

" إنني لم أنشئ المنار ابتغاء ثروة أتأملها ولا رتبة من أمير أو سلطان أعمل بها ولا جاه عند العامة أو الخاصة أباهي بها الأقران ، بل لأية فرض من الفروض ، يرجى النفع من إقامته ، وتأثم الأمة كلها بتركه ، فلم أكن أبالي بشيء إلا قول الحق والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فكنت إذا أصبت هذا بحسن عملي واجتهادي ؛ فسيّان رضي الناس أم سخطوا ، قبلوا المنار أم رفضوا " (السابق أيضا :ص ٣٣) .

وكان رشيد رضا قد قال عن نفسه من قبل موضحا طبيعة المنار وعمله فيها :
" منشئ المنار نشأ وشب وشاب على الزهد في الدنيا وجدانا وعملا لا رأيا وعقلا ، فهو يرى أن الزهد لا يجوز أن يتجاوز شعور القلب إلى التقصير في الكسب ، لكن قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " كل ميسر لما خلق الله " متفق عليه ، وروي بزيادة " اعملوا " في أوله ، وبهذا الزهد يسر الله له أن يتصرف بكل قواه إلى الإصلاح والتجديد الإسلامي علما وبحثا ودعوة وحجة ودفاعا وإقناعا ،حتى صار موضع ثقة خواص المسلمين غير الجغرافيين في العالم الإسلامي كله في إصلاحهم كما قال الشيخ المراغي ...." إن المسلمين لا يرجى لهم صلاح إلا بالقرآن على الوجه الذي يفسره به المنار " (نفسه : ص ٢٥ وما بعدها) .
لقد تحمل رشيد رضا بإصراره وزهده متاعب كثيرة في سبيل أن تستمر المنار في الصدور حوالي سبعة وثلاثين عاما ، دون مساندة من دولة أو مؤسسة أو جماعة ، وقد تعرض في أخريات حياته وحياة المنار إلى أعباء ثقيلة من الديون التي تراكمت للمطابع وجهات أخرى ، وكان يضطر إلى التضحية ببيع بعض ممتلكاته البسيطة للوفاء بجزء من هذه الديون ، ولكن الموت وضع حدا لهذه الأزمة التي تراكمت فتوقفت المنار بعد عمر طويل في ميدان الصحافة الإسلامية ، وخرج من الدنيا خالي الوفاض من المال ، ولكنه كان يحمل حب المسلمين وذكرا خالدا لما قام به من جهاد في سبيل الدعوة والمعرفة والبعث الإسلامي !
ويلاحظ أن رشيد رضا كان يحرر معظم مادة المنار على مدى عمرها المديد، معتمدا على معرفة غزيرة ممتدة ، وزاد واسع من العلم، فهو عالم كبير موسوعي له إلمام عريض بالتراث الإسلامي والأدب العربي ، محيط بعلوم القرآن، على دراية واسعة بالفقه الإسلامي والسنة النبوية، عارف بأحوال المجتمع والأدوار التي مر بها التاريخ الإسلامي، شديد الإحاطة بما في العصر الذي يعيش فيه، خبير بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية.
وقد أدخلت المنار أسلوب المعالجة الصحفية والفكرية الحديثة وقضايا المسلمين إلى الصحافة الإسلامية ، كما اعتمدت أسلوب أهل السنة والجماعة ، وهو الطور الطبيعي للأسلوب الذي بدأه الأفغاني ومحمد عبده ، وكان يسمى المعتزلة الجدد ، وصولا إلى منهج إلى أهل السنة ومفهوم القرآن الأصيل على النحو الذي سار عليه محمد رشيد رشا ، حيث اتسع وتعمق في كتابات حسن البنا (أنور الجندي ، مرجع سابق ، ص ٩) .
لم تمض خمس سنوات على صدور المجلة حتى أقبل عليها الناس، وانتشرت انتشارًا واسعًا في العالم الإسلامي، واشتهر اسم صاحبها حتى عُرف باسم رشيد رضا صاحب المنار، وعرف الناس قدره وعلمه، وصار ملجأهم فيما يعرض لهم من مشكلات، كما جاء العلماء يستزيدون من عمله، وأصبحت مجلته هي المجلة الإسلامية الأولى في العالم الإسلامي، وموئل الفتيا في التأليف بين الشريعة والعصر.
يقول المستشرق هاميلتون جب في كتابه وجهة الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريده عن المنار وتأثيرها :

" ولم يشرق منار القاهرة على المصريين وحدهم ،ولكنه أشرق على العرب في بلادهم وخارجها وعلى مسلمي أرخبيل الملايو الذين درسوا في الجامعة الأزهرية وعلى الإندونيسي المنعزل الذي ظل محافظا على علاقاته بقلب العالم الإسلامي بعد عودته إلى بلاده النائية على حدود دار الإسلام : هؤلاء جميعا رأوا الإسلام على نور جديد لم يروا فيه مثالا للتشدد والجمود ورأوه الدين المختار بين الأديان ، وحامل المثل الأعلى لكل زمان مضى ، المثل الجديدة لكل زمان آت ، وهو شباب متجدد الشباب حامل لواء كل تقدم ، شديد في التسامح ، وقد أصبح الذين اقتبسوا من نور المنار منارات صغرى بعد أن عادوا إليها " (أنور الجندي ، نفسه ، ص ٢٢) .

لقد امتد التأثير إلى الحركة السلفية في تونس والجزائر ، فضلا عن الجزيرة العربية ، كما نشأت مجلات وصحف على هدى من العروة الوثقى والمنار في شتى أرجا العالم الإسلامي بدءا من الشمال الإفريقي والجزيرة العربية إلى الهند والملايو وإندونيسيا .

وقد وصف الشيخ قاسم بن مهزع أبرز زعماء الفكر الإسلامي في البحرين مجلة المنار بقوله : إنها تعبر عن الأقوال الفاصلة بالحق ".

- ٦ -

لقد أثارت المنار كثيرا من القضايا لبعث العالم الإسلامي وإصلاحه وبنائه ، كما أثيرت بعض القضايا حول صاحب المنار وكتاباته بحكم ارتباطه بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ومخالفة بعض الناس لاجتهاداته أو آرائه .

ومن القضايا التي ركزت عليها المنار في معظم أعدادها ،إصلاح الأمة والتربية والتعليم ، والعلاقة بين العلماء والحكام وغيرها ..

كان أكثر ما يؤرق رشيد رضا ، وقادة الإصلاح في زمنه ، هو الفرقة التي تحكم علاقة المسلمين ببعضهم ، فهي سبب الضعف والهوان الذي يعيشونه، وهي الذريعة أو الفرصة التي يتخذها خصوم الإسلام وأعدائه للنيل من المسلمين ، وهزيمتهم واغتصاب ثرواتهم ، وحرمانهم من الحرية والاستقلال .

وقد ألح في كثير من أعداد المنار على هذه الناحية مبينا ما آلت إليه أحوال المسلمين في زمانه على يد أفرادهم وحكامهم وأعدائهم ، ودعا إلى هبة يقوم بها نفر من علمائها وأصحاب العقول فيها من أجل الوحدة والاتفاق والاعتصام بحبل الله ، ويعد المنار عنصرا من عناصر الدعوة للعمل للأمة وإصلاحها . يقول في افتتاحية السنة التاسعة من المنار :

" إن المسلمين أمسوا كالريش في مهب الحوادث ، وكالغثاء في مجرى سيول الكوارث ، لا رأى لخواصهم فيما يراد منهم ، ولا شعور لعوامهم فيما يراد بهم ، وللأجانب يد في تصرف حكامنا في سياستنا ، ويد في تصريف أموالنا في مصلحتهم دون مصلحتنا ، ويد تطبع الأرواح بأخلاق وعادات تنافي آداب ملتنا ، وتوقع في العقول عقائد وأفكارا تقوض بناء وحدتنا ..... ".

" إنه لم تستيقظ أمة من نومها ، ولم تبعث دولة من موتها إلا بصيحة نفر من أولى الألباب، وتستعفي العقول والألباب الذي يغير الله ما في نفوس أقوامهم بما يلقيه من الحكمة في ذلاقة ألسنتهم ، ونفثات أقلامهم فيستبدلون الاعتصام بالانفصام ، والاتفاق

بالشقاق ، والوحدة بالفرقة ، وبذلك يشعر الأفراد بمعنى الأمة ، ويعملون بالتعاون فيكونوا أمة : " سنة الله التي قد خلت من قبل وخسر هنالك الكافرون " .
" وما المنار إلا صحيفة أنشئت لتأييد دعاة العلم للأمة والعمل لها ، سواء منهم من دعا إلى الإصلاح معها ، ومن يدعو إليه معها ، ولتكثير سواد الدعاة الذين يتعلمون للأمة ويعملون للأمة ... " .
لذا رأى رشيد رضا أن القضاء على الفرقة وأسبابها أمر ممكن من خلال تأليف كتاب يحوي ما اتفقت عليه كلمة المسلمين بكل فرقهم ، في المسائل التي تتعلق بصحة الاعتقاد وتهذيب الأخلاق وإحسان العمل، والابتعاد عن مسائل الخلاف بين الطوائف الإسلامية الكبرى كالشيعة، وتُرسل نسخ بعد ذلك من هذا الكتاب إلى جميع البلاد الإسلامية، وحث الناس على دراستها والاعتماد عليها. كما طالب بتأليف كتب تهدف إلى توحيد الأحكام ، فيقوم العلماء بوضع هذه الكتب على الأسس المتفق عليها في جميع المذاهب الإسلامية وتتفق مع مطالب العصر، ثم تُعرض على سائر علماء المسلمين للاتفاق عليها والتعاون في نشرها وتطبيق أحكامها .

***

وفي مجال التربية والتعليم كان الشيخ رشيد رضا من التابعين لأستاذه محمد عبده ،حيث كان يرى أن بناء الأمة يقوم أو يرتكز بالدرجة الأولى على التربية والتعليم لأن "سعادة الأمم بأعمالها، وكمال أعمالها منوط بانتشار العلوم والمعارف فيها".
وفي هذا السياق طرح "رشيد رضا" ما ينبغي على الأمة أن تتبناه من علوم لإصلاح شئون الناس، ودفعهم إلى مسايرة ركب العلم والعرفان، مثل: علوم أصول الدين، وفقه الحلال والحرام والعبادات، والتاريخ، والجغرافيا، والاجتماع، والاقتصاد، والتدبير المنزلي، وحفظ الصحة، ولغة البلاد، والخط.
وقد طبق محمد رشيد رضا فكرته النظرية عن التعليم بإنشاء مدرسة تربوية تعليمية يتحقق من خلالها ما دعا إليه وطالب به ، ولذا أنشأ مدرسة دار الدعوة والإرشاد لتخريج الدعاة المدربين لنشر الدين الإسلامي، وجاء في مشروع تأسيس المدرسة أنها تختار طلابها من طلاب العلم الصالحين من الأقطار الإسلامية، ويُفضل من كانوا في حاجة شديدة إلى العلم كأهل جاوة (إندونيسيا) والصين (يقصد مسلمي الصين في تركستان) ، وأن المدرسة ستكفل لطلابها جميع ما يحتاجون إليه من مسكن وغذاء (على طريقة الأزهر) ، وأنها ستعتني بتدريس طلابها على التمسك بآداب الإسلام وأخلاقه وعبادته، كما تُعنى بتعليم التفسير والفقه والحديث، فلا خير في علم لا يصحبه خلق وسلوك رفيع، وأن المدرسة لا تشغل بالسياسة، وسيُرسل الدعاة المتخرجون إلى أشد البلاد حاجة إلى الدعوة الإسلامية. وقد افتتحت المدرسة في ليلة الاحتفال بالمولد النبوي سنة (١٣٣٠ هـ = ١٩١٢م) في مقرها بجزيرة الروضة بالقاهرة، وبدأت الدراسة في اليوم التالي للاحتفال، وكانت المدرسة تقبل في عداد طلبتها شباب المسلمين ممن تتراوح أعمارهم ما بين العشرين والخامسة والعشرين، على أن يكونوا قد حصلوا قدرًا من التعليم يمكنهم من مواصلة الدراسة.
غير أن المدرسة كانت في حاجة إلى إعانات كبيرة ودعم قوي، وحاول رشيد رضا أن يستعين بالدولة العثمانية في إقامة مشروعه واستمراره لكنه لم يفلح ، ثم جاءت

الحرب العالمية الأولى لتقضي على هذا المشروع، فتعطلت الدراسة في المدرسة، ولم تفتح أبوابها مرة أخرى.

***

أما علاقة الحكام بالعلماء فقد كان يراها محمد رشيد رضا أساس الإصلاح العام ، فقد كتب مئات المقالات والدراسات لإعداد الوسائل كي تنهض الأمة وتقوي، وخص العلماء والحكام بتوجيهاته؛ لأنهم بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الإنسان، وأن في صلاح حالهم صلاح حال الأمة، يقول: " إذا رأيت الكذب والزور والرياء والنفاق والحقد والحسد وأشباهها من الرذائل فاشية في أمة، فاحكم على أمرائها وحكامها بالظلم والاستبداد وعلى علمائها ومرشديها بالبدع والفساد، والعكس بالعكس".

وكان رشيد رضا يحدد طبيعة العالم الحقيقي الذي يعلق عليه أملا في الإصلاح وأداء الواجب الإسلامي في بناء الأمة ، فيقول :

" لا أعني بالعلماء من قرأ حواشي الصبان على الأشموني ، ومطولات الفقه بحيث يقدر على التنكيت في قوله ... وإنما أعني بالعلماء من كل من له وقوف على سر الدين وحكم التشريع وانطباق أحكام الإسلام على مصالح البشر وتأثيرها في سعادتهم في الدارين ، وحكمه في وضع الأشياء في مواضعها ومخاطبة الناس على قدر عقولهم وإعطائهم ما تمس إليه حاجتهم ، وإنما تجتمع هذه الصفات لمن يجمع بين العلم بأخلاق الدين وعقائده وآدابه والعلم بأحوال الناس وشئونهم ومرامي أفكارهم وكيفية معاملاتهم ".

كما أتبع رشيد رضا هذا التحليل بإلقاء تبعة إيقاظ الإيمان في قلوب الناس على العلماء المخلصين لرسالتهم الحقيقية ، ورسم لهم منهجا عمليا محدد الأهداف كي يقوموا بالإصلاح في ميدان البدع والمفاسد ، ورأى أن الطريقة المثلى لإبطال المنكرات والبدع إنما هي الوعظ والتعليم ، وذلك على ضروب ثلاثة : هي الخطابة ، وقراءة علم الأخلاق والآداب ، وسلوك طريق التربية عملا وحقيقا ، ويرى أن هذه الأمور الثلاثة لو أعطيت حقها من العناية لنهضت الأمة نهضة الأسود . (انظر : إبراهيم أحمد العدوى ، مرجع سابق ،١٧٠- ١٧١) .

- ٧ -

ومن القضايا التي أثيرت حول محمد رشيد رضا ؛ علاقته بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده لارتباطهما بالحركة الماسونية التي دخلت مصر مع الاستعمار الغربي الحديث . وهذه القضية سببت التباسا لدي كثير من الناس ، لأنهم ينظرون إليها بمنظار معاصر عرف طبيعة هذه الحركة بعد اكتشاف أبعادها وأهدافها وارتباطها بالصهيونية ومؤامراتها ..

ومن المؤكد أن الارتباط بالصهيونية أو الاستعمار بصفة عامة كان هدفا غائبا عمن انتسبوا إليها في القرن التاسع عشر ، لأنها قدمت نفسها بوصفها حركة اجتماعية تدعو إلى الحرية والإخاء والمساواة ، وهي أهداف عامة لا يرفضها أحد ، فضلا عن كونها شعار الثورة الفرنسية ، وكان انضمام جمال الدين الأفغاني إليها بسبب هذا

الشعار الذي يدعو إلى الحرية ، لأنه كان حريصا على تحرير مصر والبلاد الإسلامية جميعا من قبضة الاستعمار والاستبداد .
في ٢٠ مارس ١٩٠٣ روى المستشرق الإنجليزي ويلفريد بلنت أن الشيخ محمد عبده قال له :
" حدثت محاولة لإدخال الماسونية مصر في أواخر أيام إسماعيل باشا . وكانت جميع المحافل مرتبطة بالمحافل الأوربية ، وقد انضم الشيخ جمال الدين إلى أحدها ، ولكن سرعان ما اكتشف عدم جدواها فانسحب منها ، وكان إسماعيل يشجعها حين بدأت متاعبه كي تخدم أهدافه ، ولكن الماسونية لم تكن لها قوة في مصر على الإطلاق " .
ويبدو أن بلنت لم يحاول تقصي تاريخ الماسونية في مصر . ولا كان محمد عبده يهمه أن يؤرخ لها ، فقد دخلت الماسونية مصر في عهد إسماعيل ، وحاولت المحافل الأجنبية – ذات الأغلبية الأوربية – أن تشتغل بالسياسة والمكائد، و انقسمت في أواخر عهد إسماعيل بحيث كان قسم منها يؤيده أو يؤيد خلافة ابنه توفيق له .وقسم آخر يؤيد ولاية الأمير حليم ..أما أن الماسونية لم تكن لها في مصر – حتى ذلك الوقت – قوة ولا نفوذ فأمر نسبي في الحقيقة يمكن أن ينطبق على الأقلية المصرية في المحافل ، ولكنه لا ينطبق على الأغلبية الأوربية فيها . فقد كانت هذه الأغلبية تعمل – بطبيعة تركيبها وانتماءاتها – لحساب المصالح الأوربية وقناصل أوربا ، على الرغم من شعار عدم التدخل في الدين أو السياسة الذي ترفعه الماسونية دائما .
(على شلش ، الماسونية في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٩٢م ، ص ٥٥).
لقد أشار الأفغاني بعد سنوات عديدة إلى سر خلافه مع الماسونية في خلال تلك المرحلة بوجه عام ، حين صرح لتلميذه محمد المخزومي في الآستانة بأنه " اكتشف أن الجبن يمكن أن يدخل بين اسطوانتي المحافل الماسونية " . وأن شعارات الماسونية استدرجته وجعلته ينضوي تحتها ، فإذا به يجدها مفعمة بالأنانية وحب الرياسة والأعمال التي تقودها الأهواء، وحذر في الوقت نفسه من أن الماسونية ستختنق في المهد ، إن لم تصلح حالها وتعود إلى أصولها الصحيحة التي شوقته للعمل تحت لوائها ، مثل الحرية والإخاء والمساواة والسعي وراء دك صروح الظلم وتشييد معالم العدل المطلق على حد تعبيره" (على شلش ، مرجع سابق ، ص ٥١)
.
وهذا يعني أن الماسونية في تصوره وتصور معاصريه لم تكن إلا جماعة تهدف إلى الخدمة العامة ، ولكن الأفغاني اكتشف سلبياتها ورصد عيوبها ، وكان يأمل أن ينصلح حالها ليستفيد منها الناس ، وواضح أنه انخدع فيها مثلما انخدع فيها معظم رجالات النخبة العليا في المجتمع آنذاك ، فقد ضمت كثيرا من المشاهير، أبرزهم :
الخديو توفيق – شاهين مكاريوس صاحب جريدة اللطائف – حسين فخري باشا وزير الحقانية (العدل) – حفني ناصف – إدريس راغب بك – الأمير محمد على توفيق – الشاعر ولي الدين يكن - إبراهيم اليازجي – الشاعر خليل مطران – الشاعر إسماعيل صبري – أحمد فتحي زغلول المحامي – وشقيقه الزعيم سعد زغلول – عدلي يكن السياسي – عبد الخالق ثروت السياسي – الشاعر محمود

رمزي نظيم – الشاعر أحمد زكي أبو شادي – ومن الأمراء والنبلاء : عمر سعيد حليم ، وسعيد محمد على حليم وسعيد داود ، ومن السياسيين : على شعراوي ومحمد حافظ رمضان وفؤاد أباظة ، ومن علماء الأزهر الشيخ حسن مأمون ، ومن العسكريين اللواءان على شوقي ومحمد فهمي المتيني وغيرهم (انظر : على شلش ، مرجع سابق ، ص ٥٧ – ٦٠).
ولا أظن أن ذلك يدفعنا إلى اتخاذ موقف حاد من هؤلاء الذين تصوروا أنهم يحسنون صنعا بانضمامهم إلى الماسونية ذات الشعارات البراقة في عصرهم ، وقد رأينا أن جمال الدين ومحمد عبده يتجاوزان مرحلتها ، ويبتعدان عنها ، مثلما ابتعد عنها محمد رشيد من البداية ولم ينضم إليها .

***

هناك بعض الانتقادات توجه إلى تفسير المنار ومواقف محمد رشيد رضا من بعض الأحاديث ، ولا أحسب أن هذه الانتقادات تسوغ أن نرفض هذا التفسير أو عمل الرجل في مجال الحديث ، ونهدر جهده العلمي الذي استغرق منه عمرا بأكمله ومشقة عظيمة صبر على بذلها وأدائها مضحيا بالوقت والمال . إن الحق سبحانه يحاسب على مثقال الذرة خيرا أو شرا ، فكيف لا يرى بعضهم غير السلبيات – إن صحت – ويبني عليها رفضا كاملا لتراث ضخم ، وحكما قاسيا بالرفض للرجل وعلمه ؟
إن أصحاب بعض الآفاق المحدودة يرفضون ويحكمون من خلال نظرات جزئية ضيقة لا تستقيم مع الأحكام العلمية ، ولا المنهج الذي يقول بأن كل المسلمين يؤخذ منه ويرد عليه إلا المعصوم عليه الصلاة والسلام . ويجب أن نتجاوز ذلك إلى الرؤية الناضجة التي ترى الموضوع من كل جوانبه ، وتوازن بين الإيجابيات والسلبيات ، وتضع كلا في مكانه وموقعه الملائم .

- ٨ -

تميز رشيد رضا بأخلاق رفيعة ، فهو لا يعرف الحقد ، ولا يعرف الحقد طريقا إلى قلبه ، وقد خاض معارك عديدة وضارية مع خصومه والمتحاملين عليه ،ولكنه لم يحمل ضغينة لأحدهم ، وكان لا يمضي وقت قصير حتى ينسى ما وجه إليه ويذكر حسنات من هاجموه.
وقد شبه شكيب أرسلان أخلاق رشيد رضا بأخلاق صلاح الدين الأيوبي الذي أوصاه أبوه بمجموعة من الوصايا منها :" ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقي على أحد " .
كما أجمع المعاصرون لرشيد رضا أنه كان أصدق الناس لهجة وأبعدهم عن الكذب والتدليس ، وقد تأصل هذا الخلق فيه بسبب دراسته للحديث الشريف ، وما يتطلبه ذلك من الحيطة في رواية الحديث وضبط الكلمة بل الحرف .
لذا اشتهر رشيد بكراهية الغيبة والنميمة ، واحترامه لحقوق الصداقة والإخوان .
وذكّر شكيب أرسلان بقدرة رشيد رضا على نسيان العداوة ، وحرصه على إعادة المودة مع كبار معاصريه من المناوئين له ، كما جرى مع الشيخ عبد العزيز جاويش .

وكان مع وداعته وقورا ، وفي تواضعه كبيرا ، وكانت رقته في مواطن الحنان تدل على بلوغ الإنسانية فيه مثلها الأعلى ، وأنه قلما اجتمع العلم والخلق اجتماعهما في الشيخ ، وقلما جرى العقل والقلب في شوط واحد كما جريا في هذه الفطرة الشريفة " .

وبذلك نال رشيد رضا إجلال معاصريه واحترامهم ، كبيرهم وصغيرهم ، عالمهم وطالبهم ، فكان أخص أصدقائه ، حتى المتقاربين معه في السن يبادرون إلى تقبيل يده لعلمه وفضله ، واعترافا منهم بمكانته .وكان بعض من يقبل يده يجيب عن سبب ذلك كما يروي شكيب أرسلان ؛ بأنه يقبّل يد العلم قبل اليد التي طالما ناضلت عن الإسلام ، وتناولت قلما من نوادر الأقلام التي كشفت الكرب عن وجوه المسلمين .(إبراهيم أحمد العدوي ، مرجع سابق ، ص ٢٧١-٢٧٤) .

***

وأخيرا ، كانت الخاتمة الطبيعية لكل كائن حي ، حيث جاءت لحظة الرحيل، فذهب الشيخ إلى السويس لتوديع أحد الأمراء السعوديين من أصدقائه ، وعاد في اليوم نفسه، وكان واضحا أنه أجهد نفسه وسهر كثيرا ، فلم يتحمل جسده الضعيف مشقة الطريق، وكان طول الطريق يتلو القرآن كعادته، ثم أصابه دوار من ارتجاج السيارة، وطلب من رفيقيه أن يستريح داخل السيارة، ولكن روحه الطاهرة فارقته ، ووافق ذلك يوم الخميس الموافق (الثالث والعشرين من جمادى الأولى ١٣٥٤ هـ = الثاني والعشرين من أغسطس ١٩٣٥م)، وذهب إلى ربه راضيا مرضيا ، رحمه الله تعالى .

الشيخ عبد العزيز جاويش :
رائد الإصلاح والعمل الوطني

-١-

يحكي زكي مبارك أنه دخل على الشيخ عبد العزيز جاويش فوجد إنسانا منزويا في إحدى نواحي مكتبه ، والشيخ غضبان يتطاير الشرر من عينيه ، وما هي إلا لحظات حتى انفجر الشيخ كالبركان في وجه ذلك الجليس صارخا : " من يتزوج بناتنا إذا جاز لكل شاب مأفون ألا يزور أوروبا إلا عاد ومعه زوجة فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية ؟ إن الأتراك لا يتزوجون بناتنا غطرسة منهم وكبرياء ، والمغاربة وهم في مثل حالنا لا يتزوجون بناتنا في قليل من الأحوال، فكيف يجوز لشاب أن يترك بنات وطنه للبوار ، وهو يعرف في سريرة نفسه أن الفتاة المصرية معدومة النظائر في الجمال وفي أدب النفس ؟ وما الذي يبهرك في الفتاة الأوربية حتى تنسى بها بنت وطنك ؟ ومتى يصير أمثالك رجالا يعتمد عليهم الوطن ، وقد حرمكم الله نعمة الوطنية ؟ ".

وخرج الشاب وهو آسف ، وكانت لحظة صمت توهمت فيها عيني الشيخ جاويش مغرورقتين بالدمع ، فطلب فنجان قهوة ثم تكلف الابتسام وقال : " لا تؤاخذني ، فذاك فتى كان أبوه من أعز أصدقائي وما كنت أحب أن ينسلخ عن وطنه بالزواج من امرأة أجنبية " (انظر : محمد رجب البيومي ، النهضة الوطنية في سير أعلامها المعاصرين ، ط١ ، دار القلم للطباعة والنشر ، دمشق ، والدار الشامية ، بيروت ، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م ، ٦٨/١).

هذه القصة تقدم ملمحا مهما يفسر إيمان الشيخ عبد العزيز جاويش بوطنه واعتزازه به ، ورفضه أن ينسلخ عنه أبناؤه ولو من خلال الزواج بالفتيات الأجنبيات . كانت ظاهرة الزواج بالأجنبيات في مطلع القرن العشرين محدودة نسبيا ، فكيف لو كان الشيخ جاويش يعيش بيننا الآن ؟

إن الشيخ جاويش نموذج فريد من نماذج الوطنية والدعوة إلى الإسلام ، أدى دوره في زمنه بهمة واقتدار ، ورفض أن يهادن أعداء الدين والحرية ، أو يقبل بالاستبداد أو الاحتلال .

احتلت بريطانيا مصر سنة (١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م) بعد فشل الثورة العرابية والقبض على زعماء الثورة ومحاكماتهم ، وبسطت دولة الاحتلال سيطرتها المالية والإدارية على كل مفاصل الوطن ، ومدت نفوذها إلى كل شيء، بعد أن ألغت الجيش الوطني، ووضعت على رأس الشرطة ضابطا إنجليزيا، وألغت الدستور والمجلس الوطني، ووضعت في كل وزارة مستشارا إنجليزيا يصرفها كيفما شاء.. وأصبح اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني بيده زمام الأمور في مصر، وكان رجلا ماكرا

يسعى لتكريس الاحتلال وصنع أجيال جديدة مقطوعة الصلة عن تراثها وماضيها، وقطع في ذلك أشواطا بعيدة.
بيد أن الأمة لم تقبل بذلك الوضع المذل المهين ، فقد كان حرصها على كرامتها وعزتها واستقلالها وحريتها أكبر من سيف المحتل وجبروته ، وكان إسلامها وعروبتها وإباؤها تحرك فيها نخوة المواجهة والرفض لما يفرضه عليها الغزاة المحتلون ، وكان تيار اليقظة الإسلامية الذي يحمل لواء الانتماء إلي الوطن والمقاومة والجهاد يجري هوينا بصوت قوي وخطا واثقة يهز النفوس هزًا ويبعث الحياة في الأجسام الواهنة ويحرك العقول الجامدة كي تستنهض وتفيق، وكان يقود هذا التيار جيل من الزعماء المجاهدين في مقدمتهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومصطفى كامل، ومحمد فريد وجدي، ومحمد رشيد رضا، وعلى الغاياتي ، وعبد العزيز جاويش.
تصاعدت روح المقاومة والجهاد بعد احتلال إنجلترا لمصر في كل المجالات ؛ سواءٌ في السياسة أو الخطابة أو الشعر والأدب، وظهر الشيخ عبد العزيز جاويش عضوا بارزا في سياق المقاومة والجهاد ،عبر الكلمة المخلصة القوية ، فإذا تحدثت عن أدب ذلك العصر وجدته في مقدمة أدبائه، وإذا تحدثت عن العلم والعلماء رأيته في الذروة، وإذا تحدثت عن التربية والتعليم ألفيته المصلح الكبير، وإذا ذكرت المضحِّين في سبيل الوطنية وجدته أكبر المضحين، وإذا تحدثت عن الإرشاد الاجتماعي وجدته من ذوي الآراء الناضجة، وإذا تحدثت عن المضطهدين في أوطانهم كان أوضح عنوان لهذا الاضطهاد.
ثم إن الرجل لم يكن مرتبطا بالكلمة وحدها في مجال المقاومة والجهاد ، ولكنه ارتبط بالعمل على الأرض من خلال السياسة الحزبية ، فقد تعرف على الزعيم محمد فريد في مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥، الذي عرّفه بدوره بمصطفي كامل سنة ١٩٠٦ بباريس فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية والإسلامية.
إذا من سنة ١٩٠٥ انخرط الشيخ عبد العزيز جاويش في الحركة الوطنية في مصر مع أنه تونسي الأصل ، فالدفاع عن قضايا المسلمين والإسلام ليس قاصرا على جنسية دون أخرى ، ولا على وطن دون سواه . الدفاع عن الإسلام واجب على كل المسلمين في كل مكان .
وقيل إن الحزب الوطني في ذلك الوقت قد أنشأ عدداً كبيرًا من الجمعيات السرية لمقاومة الانجليز والإعداد لتفجير الثورة الشاملة ، وقد لعب الشيخ جاويش دوراً كبيراً مع كل من محمد فريد وإبراهيم الورداني في هذا الصدد كما يقول محمد مورو في مقال له . وفي محاولة من الحزب الوطني للتغطية على الجمعيات السرية، قام الشيخ عبد العزيز جاويش بإنشاء عدد من الجمعيات العلنية، ليستقطب إليها اهتمام البوليس السياسي الذي تم إنشاؤه خصيصًا لمتابعة الجمعيات السرية، ولتكون غطاء للعمل السري في الوقت نفسه ، فأسس الشيخ عبد العزيز جاويش جمعية " التشجيع على التعليم الحر" وجمعية " حصن اليتامى " وجمعية " الإخلاص الوطنية "، كما قام الشيخ عبد العزيز جاويش أيضًا بتأليف كتاب عن النظام الإيطالي للفوضويين

ونظام للشفرة للتراسل السري في سبتمبر ١٩١٠، وإنكان الشيخ جاويش قد نفى موضوع الجمعيات السرية جملة وتفصيلا .
كانت سلطات الاحتلال تعدّ الشيخ "عبد العزيز جاويش " أكثر الجماعة خطرًا وتعصبًا، ووصفته سلطات الاحتلال بأنه داعية سيئ الشهرة، وأن حبسه من قبل لم يقلم أظفاره، وأنه يشكل تهديدًا مستمرًا للنظام العام والأمن العام، وأنه يدبر المؤامرات لتحريض الطلبة والعمال والفلاحين، وأنه يتمتع بجملة من الميزات تجعل منه ثوريا خطيرًا بسبب تعليمه وذكائه وموهبته كاتبا وخطيبا، وأنه ليس من الصعب على داهية مثله أن يقوم بأية أعمال ضارة، ويظل بمنأى عن طائلة القانون.
خاض الرجل العمل في ميادين عديدة : التعليم والدعوة والإصلاح والسياسة والصحافة ، وتعرض للمحاكمات والنفي والغربة ، وشارك في الدفاع عن الأشقاء العرب المظلومين كما حدث في مشاركته لدعم ثوار ليبيا ، كما كانت مشاعره مع دولة الخلافة والتعاطف مع الأشقاء الأتراك .
لقد اتهم بالدعوة إلى العثمانية والخلافة الجامعة الإسلامية ،وقد صحح ذلك بقوله : " لوكان الذين رموني بهذه التهمة ممن يعقلون لعرفوا أن الشرق برمته كتلة واحدة لا يسلم منه جزء إلا بتماسكه هو وغيره ولا يمكن لأمة مهما بلغ عددها أن تفوز إلا إذا اعتصمت بأختها المشاركة لها في خصائصها " (أنور الجندي، عبد العزيز جاويش رائد من رواد التربية والصحافة والاجتماع ،الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥، ص ٧).
كان الخلاف بينه وبين معاصريه أن الناس كانوا تابعين لجهة ما ، إما القصر أو الإنجليز أما هو فلم يكن تابعا لأحد ، غير معتمد على أحد ؛ وكان هذا غريبا ومستغربا ولا يتقبله الناس ببساطة "(السابق ، ص ٧).
لقد رفض الوظيفة الحكومية ورفض النيشان الحكومي ، وقال : " إن الذي يحمل وسام الشعب الذي أهدته إليه الأمة بعد خروجه من السجن لا يتسع صدره لوسام غيره " ، كما رفض تقبيل يد الخليفة العثماني ، ورفض أن يرسل من سجنه خطاب اعتذار للإفراج عنه . وكان في الحزب الوطني رئيسا لتحرير اللواء أو العلم أو الشعب ، ولكن زعامته ومكانته في العالم الاسلامي قائدا ومصلحا ..كانت بلا حدود (راجع : السابق ، ص ٨).
لذا حظيت شخصيته باهتمام كبير من الكتاب والباحثين حتى يومنا هذا بوصفه شخصية مهمة ومؤثرة في تاريخنا المعاصر ، ومما كتب عنه الدراسات والموضوعات التالية التي تناولته في ثنايا المعاجم وغيرها :
١ - أنور الجندي ، عبد العزيز جاويش: من رواد التربية والصحافة والاجتماع، سلسلة أعلام العرب، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، د.ت.
٢ - حسن الشيخة. عبد العزيز جاويش، القاهرة: المؤسسة العربية للطباعة والنشر، سلسلة الألف كتاب – رقم ٣٥٧، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.
٣ - حسن الشيخة. أقلام ثائرة، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، المكتبة الثقافية، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

٤ - محمد خير رمضان يوسف. معجم المؤلفين المعاصرين، الجزء الأول، الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة الثالثة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
٥ - صلاح زكي أحمد. أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، القاهرة: مركز الحضارة العربية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٦ - عباس محمود العقاد. رجال عرفتهم، القاهرة: ط ٣ ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، ٢٠١٠م .
٧ - محمد رجب البيومي ، النهضة الوطنية في سير أعلامها المعاصرين (٥ أجزاء) ، ط١ ، دار القلم للطباعة والنشر ، دمشق ، والدار الشامية ، بيروت ، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.
٨ - خير الدين الزركلي. الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
٩ - عمر رضا كحالة. معجم المؤلفين، بيروت: دار إحياء التراث العربى، بدون تاريخ، الجزء الخامس.
١٠ - أنور الجندي. تاريخ الصحافة الإسلامية، القاهرة: دار الأنصار، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
١١ - أنور الجندي: أعلام وأقلام- دار نهضة مصر للطبع والنشر- القاهرة – بدون تاريخ.
١٢- أنور حجازي: عمالقة ورواد- الدار القومية للطباعة والنشر- القاهرة – بدون تاريخ.

- ٢ -

اسمه الكامل : عبد العزيز خليل حسن جاويش ، ولد بالإسكندرية في ١٢ من شوال ١٢٩٣ هـ = ٣١ من أكتوبر ١٨٧٦ م ، ونشأ في أسرة كريمة تعمل بالتجارة، لأب من أصل تونسي وأم من أصل تركي، فقد هاجر والده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى الإسكندرية واتخذ فيها متجرا للواردات الليبية، وحاول الأب محاولات شتى لترغيب ولده في العمل معه بالتجارة، ولكنه فضل العلم على التجارة.
التحق جاويش بالكتاب فحفظ كتاب الله وهو في الرابعة عشرة ، ثم بدأ يطلب العلم بجامع إبراهيم باشا بالإسكندرية، وكان التعليم فيه – مثل مساجد مصر الكبرى - يجري على نسق التعليم الأزهري في القاهرة، وبعد إتمامه الدراسة الابتدائية انتقل إلى القاهرة ليجاور في الأزهر الشريف وكان في السادسة عشرة، ، كان الأزهر في هذه الفترة يحاول أن ينفض عنه غبار الزمن ويسترد بعضا من عافيته ، ويعود سيرته الأولى يقظة ونشاطا، من خلال الإصلاح الذي حمل عبئه الإمام محمد عبده، والشيخ محمد الإمبابي شيخ الجامع الأزهر.
وحين سمع بأن مدرسة دار العلوم - التي أنشأها علي مبارك ناظر المعارف في عهد الخديوي إسماعيل – تجري اختبارا لطلاب الأزهر ليطلبوا العلم على نهج أكثر مواكبة لمتغيرات العصر ؛ سارع لدخول الاختبار ونجح فيه مع ستة عشر طالبا سنة (١٣١٠هـ = ١٨٩٢م) بعد أن اجتاز اختبارًا صعبًا بين يدي لجنة تضم عشرةً من كبار رجال العلم تمتحن المتقدمين في دقائق الفقه والتفسير والنحو والبيان والبديع

والإنشاء والتاريخ. وفي المدرسة تفتحت مواهب الطالب النابه فتفوق في الطبيعة والفلك، ونبغ في علوم العربية، وشارك في مواقف القول ومحافل البيان خطيبا مفوها ومتحدثا نبيها، حتى أتم دراسته في المدرسة وحصل على شهادتها سنة (١٣١٥ هـ = ١٨٩٧) وهو في الحادية والعشرين من عمره.
عُيِّن الشيخ مدرسًا للغة العربية بمدرسة الزراعة، وكان من سُنن وزارة الزراعة أن تُرسل من خريجي دار العلوم بعثةً سنويةً إلى إنجلترا ؛ فاختِير الشيخ للبعثة ، لكن عمله في الزراعة لم يطل فلم يذهب للبعثة ، بعدها وقع عليه الاختيار ليكون مبعوث وزارة المعارف إلى جامعة بروردو في لندن مع زميله عاطف بركات وكيل وزارة المعارف، وكان هذا الاختيار لا يقع إلا على أفضل الخريجين علما وخلقا، التحق الشيخ بالجامعة الإنجليزية ، وتلقَّى هناك علومَ التربية والطرق الحديثة في التدريس، وظل هناك ثلاث سنوات ولهذا فهو يعد واحدا من الأزهريين القلائل الذين طلبوا العلم في أوروبا. أتقن جاويش اللغة الإنجليزية التي أعانته على الاتصال بالأدب الغربي وتذوق آثاره والتعرف على مناهجه واتجاهاته، وهو ما أثرى فكره في كثير من المجالات.عاد إلى القاهرة سنة (١٣١٩هـ = ١٩٠١م) ليعمل مفتشًا في وزارة المعارف ولم يكن همه الأول إحصاء أغلاط المدرسين بل كان همه الأول إصلاح التعليم.
غير أنه لم يمكث في هذه الوظيفة سوى عام ونصف رجع بعدها إلى إنجلترا ليعمل أستاذا للغة العربية في جامعة أكسفورد، وظل هناك في وظيفته خمس سنوات أتيح له خلالها التمكن من الثقافة الإنجليزية، وفهم طبيعة الإنجليز، وتعرف طرائق حياتهم، وفي أثناء إقامته بإنجلترا اختير عضوا في مؤتمر المستشرقين الذي عُقد بالجزائر سنة (١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥م)، وفي هذا المؤتمر رد على محاولات بعض المستشرقين في الطعن في القرآن، في لغة بليغة وبرهان قوي ، وهو ما أثار إعجاب الحاضرين، ونال تقديرهم وإجلالهم له.
في عام ١٩٠٨ تولي خلافة مصطفي كامل في الحزب الوطني ورئاسة تحرير اللواء ، وكانت هذه من أزهى مراحل تألقه الصحفي ، وقد استمر في هذه المرحلة نحوخمس سنوات ، تعرض فيها إلى العديد من المحاكمات والملاحقات التي ظلت تطارده حتى رحيله .
توج جاويش مسيرته العلمية باختيار جامعة كامبردج بلندن له ليصير أستاذا للغة العربية بناء على توصية من المستشرق مرجليوث الذي تعرف عليه أثناء دراسته في لندن. ولم تقتصر محاولاته على إصلاح التعليم في مصر وحدها بل سعى لإنشاء الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ووضع أساسها عام ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م، كما أعاد إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس الشريف وتولى إدارتها.
عاش جاويش مرحلة اغتراب طويلة امتدت من ١٩١٢ إلى ١٩٢٣ قضى جزءا منها في تركيا الاتحادية وآخر في ألمانيا وثالثا في تركيا الكمالية . وقد اضطر للهجرة والاغتراب في فبراير١٩١٢ عندما بلغ التضييق عليه غايته من جانب دولة الاحتلال والسلطة المستبدة في مصر ، فقد كانت هناك محاولة ضخمة لاتهامه بأمر خطير يتيح لأعداء الوطن أن يتخلصوا منه تماما في محاكمة حاسمة . وكانت بريطانيا

تسعي إلى نفيه إلى بعض الجزر مثل مالطة ولكن حاكمها رفض استقباله اتقاء لمتاعبه .(أنور الجندي ، مصدر سابق ، ص ١١٩ وما بعدها) .
وفي أثناء إقامته بتركيا تزعم مع أنصار الحزب الوطني الذين غادروا مصر إلى تركيا حملة لجمع التبرعات، وإرسال المؤن والذخائر إلى المجاهدين في طرابلس ليبيا لمقاومة الغزو الإيطالي، وسافر كما سبقت الإشارة إلى المدينة المنورة سنة (١٣٣٢ هـ = ١٩١٤) لإنشاء الجامعة الإسلامية، والقدس لإعادة إصلاح "كلية صلاح الدين" بالقدس، وتولى إداراتها، واشترك سنة (١٣٣٤هـ = ١٩١٥م) مع الحملة العثمانية المتجهة إلى مصر لتخليصها من الاحتلال الإنجليزي.
وبعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ذهب عبد العزيز جاويش إلى المانيا شريكة العثمانيين في الحرب العالمي الأولى عام (١٣٣٧ هـ = ١٩١٨) ، وكان معه من زعماء الحزب الوطني محمد فريد وعبد الحميد سعيد، وهناك أنشأ مكتبة للدعاية للقضية المصرية، ومجلة إسلامية باللغة الألمانية رغم قسوة الظروف التي كان يحياها في ألمانيا، كما ساعد هو وزملاؤه في ثورة ١٩١٩، ووقف إلى جانب زعمائها.
وفي تركيا الكمالية قضى جاويش نحو ثلاثة عشر شهرا (أكتوبر ١٩٢٢- نوفمبر ١٩٢٣) ، خرج بعدها متخفيا ليعود إلى مصر دون أن يحصل على تصريح رسمي بالعودة . بالطبع كانت آراؤه في فترة وجوده في تركيا الكمالية لاتروق للزعيم التركي كمال أتاتورك ولا سيما ما يتعلق بضرورة بقاء الخلافة .
ويورد أنور الجندي حوارا طويلا جرى بين جاويش وأتاتورك في أزمير حول الخلافة ، انتهي إلى قول جاويش بأن العيب ليس في الخلافة بل في تطبيقها ، وفي المسلمين وليس في الإسلام ، ولكن أتاتورك كان يريد تطبيق العلمانية وموالاة النظام الغربي الخالص . فرأى جاويش أن مصر أحق بجهوده في المجال التربوي والإصلاحي، وقرر العودة إليها (راجع ، السابق ، ص ١٣٥ - ١٤٣).

- ٣ -

عاد جاويش بعد بعثته إلى مصر عام ١٣١٩هـ = ١٩٠١م وعين مفتشا بوزارة المعارف وجعل همه الأول إصلاح حرفة التعليم التي كانت تسير على طريقة التلقين وتحفيظ الدروس واستظهارها، وأصدر في هذه المرحلة كتابيه الشهيرين "غنية المؤدبين" و"مرشد المترجم". ويشير هذا التأليف المبكر إلى نضوج فكر جاويش الذي استمده من خبرته العملية في المجالين الذين أتقنهما من دراسته في لندن، فالكتاب الأول كتبه في أصول التربية الحديثة، والثاني في قواعد الترجمة إلى العربية، وهذان الفرعان كانا من أكثر الجوانب أهمية في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ مصر.
هدف جاويش من كتابه "غنية المؤدبين" إلى كتابة مرجع لمدرسي فن التربية، وبهذا الكتاب التربوي كان جاويش أسبق من عالجوا أمراض حرفة التعليم بما وضع من

أساليب حديثة تقوم على الاستنتاج بالمحاورة، فكان كتابه هذا فتحا جديدا في بابه وأغراضه، وطبع عام ١٣٢١هـ =١٩٠٣ م.
أما كتاب "مرشد المترجم" فقد ألفه لخريجي مدرستي المعلمين العليا والوسطى، وهم الذين يقصر عليهم تعليم الترجمة، وقد سد جاويش بهذا الكتاب فراغا كان ملحوظا في تدريس الترجمة.
عرض جاويش فكرته عن إصلاح التعليم في المؤتمر السنوي للحزب الوطني ١٣٢٨هـ =١٩١٠م حيث بدأ بالحديث عن البعثات العلمية ورياض الأطفال، ثم أسس مدرسة ليلية أسماها "الإعدادية الليلية" ليتعلم فيها الأزهريون اللغة الفرنسية، كما عقد هو ومعاونوه مؤتمرا كبيرا في مدينة المنصورة عام ١٣٢٩هـ =١٩١١م وألقى خطبة جامعة في إصلاح التربية والتعليم.
وبعد عودة جاويش إلى مصر من غربته الطويلة في تركيا والمانيا عام ١٩٢٣رأت الدولة أن تنتفع بخبرته في التربية والتعليم، فأسندت إليه منصب مدير التعليم الأوّلي سنة (١٣٤٤ هـ = ١٩٢٥)، وذلك وفق خطة لمحو الأمية وتوسيع دائرة التعليم، فاستكمل ما كان قد بدأه من طرق الإصلاح في التربية والتعليم، ويدعو إلى ضرورة العناية بتربية الأطفال قبل تعليمهم، وفرَّق بين مفهومي التربية والتعليم. وانكب على عمله المضني يجوب البلاد وينشئ المدارس ويضع الخطط للنهوض بالتعليم حتى وافاه أجله.
وكان جاويش بحكم ثقافته العربية الإسلامية واتصاله بمناهج التعليم الحديثة الغربية يؤمن بأن الأمم لا تنهض إلا بالتربية والتعليم، ولم يشغله عمله في جريدة اللواء والكتابة في الصحف عن الدعوة إلى إصلاح التعليم، فأنشأ المدرسة الإعدادية كنواةٍ صالحةٍ ينسج عليها التعليم الثانوي وليتخلص من سطوة اللورد كرومر على التعليم العام ، وكان جاويش يقوم بالتدريس فيها بنفسه، ويفتح أبوابها في إجازات الصيف للطلاب حتى لا تضيع أوقاتهم فيما لا يفيد. ومضى في جمع التبرعات وعمل الاكتتابات لفتح المدارس الأولية لتعليم أبناء الأمة ولإكمال النقص في عدد المدارس الحكومية التي كان الاحتلال حريصا على أن تكون بمصروفات؛ حتى لا يقبل عليها إلا أبناء الأثرياء، ودعا إلى إنشاء مدارس رياض الأطفال، وقال بأنها هي التي تبني التعليم في مصر.
وفي دعوته إلى إصلاح مناهج التعليم والعناية بالتربية أساسا للتعليم، ركز على رفع مستوى القائمين بالعملية التعليمية والأخذ بالأساليب الحديثة في التربية، وهاجم مناهج التعليم القائمة؛ لأن الاحتلال هو الذي وضعها، وأشرف على تنفيذها، كما دعا إلى التوسع في التعليم الزراعي والصناعي، وعمل على إكمال النقص في برامج المدارس بالحكومة، وحماية الطلاب من مناهج التعليم الأجنبي بإنشاء عدد من المدارس تكون تحت رعايته.
وامتدت دعوته إلى إصلاح التعليم فشملت تطوير التعليم بالأزهر، وإدخال العلوم العصرية ضمن مناهجه، وفتح أبواب المدرسة الإعدادية التي أنشأها لطلاب الأزهر، وكان من بين من تعلم فيها طه حسين.

وتطلع جاويش إلى اختيار عدد من الطلاب الأزهريين النابهين الذين يقصدون مدرسته وإرسالهم في بعثات إلى أوربا، وكانت البعثات تسافر من كل المدارس ما عدا الأزهر، ونجح جاويش في جمع التبرعات اللازمة لنفقات أول بعثة أزهرية على نفقة الأمة إلى فرنسا، وتكونت من ثلاثة طلاب سافروا إلى فرنسا في (٢٦ من صفر ١٣٢٩ هـ = ٢٦ من فبراير ١٩١١م)، وكان معهم جاويش، وكان الهدف من هذه البعثة الوقوف على أساليب التعليم الحديثة ليطبقها هؤلاء المبعوثون في الجامعة الأزهرية حتى تصبح عصرية، غير أن هذا المشروع توقف بعد سفر جاويش إلى تركيا نتيجة التضييق عليه ومحاربته.

كان جاويش حفيا بأن يذكر النقص الواضح في مناهج التعليم في مصر ، ولطالما أنحى باللائمة على أن المدارس لا تخرج من ينهضون ببلادهم ، وقال إن الصورة التي يهيئها لخريجيه هي صورة الوصوليين الذين لا يلبثون أن يكونوا عبيدا ومتملقين للحكام وأرباب الجاه وأصحاب النفوذ.

ووصل من دراسته إلى نتيجة هي أن المرض الحقيقي الذي يكاد يودي بالأمة المصرية هو خلو البلاد من التربية " الحقيقية التي هي مجمع الفضائل ومبعث الكمالات ، وقال إن هذه التربية النفسية هي التي تتوقف عليها رفعة الأمم وانحطاطها ، بل يتوقف عليها وجودها وتساءل : " ففي أي معهد من المعاهد الليلية القائمة الآن في مصر تجد الوسائل التي تحمل النابتة على الكرم والجود والأخذ بأسباب الحق ومحاربة الباطل" ثم أجاب "ألا إنه لا شيءمن ذلك ".

ووصف العلاج فقال : إن الوسيلة إلى تطهير نابتة الأمة من تلك الأمراض النفسية المتفشية فيها هو تأسيس معاهد للعلم والتربية بأقسامها الثلاثة : الحسية والعقلية والنفسية ، وهي التي لا يكاد يوجد منها شيء في المعاهد القائمة الآن .

من أجل هذه المفاهيم حمل جاويش لواء الدعوة إلى تأسيس إدارة معارف أهلية ، تبدأ بإنشاء بضع مدارس "(أنور الجندي ، مصدر سابق ، ص ١٦٨ وما بعدها).

ويلاحظ أنه في الوقت الذي كان فيه لطفي السيد يدعو إلى قصر التعليم على أبناء الأغنياء والأسر ومقاومة تعليم سواد الأمة ومعارضة الاتجاه إلى المجانية حتى يمكن المحافظة على وجود طبقة معينة تحكم البلاد ، فقد كان جاويش حريصا على العمل بكل طاقته في تشجيع تعليم أبناء مصر كلها من خلال مشروعه ، وقد كون اللجان ، وجمع التبرعات والاكتتابات ، وأنشأ في القاهرة جمعية تشجيع التعليم الحر (السابق ، ص١٦٧ وما بعدها).

- ٤ -

برز عبد العزيز جاويش واحدا من رواد مدرسة الصحافة الوطنية وحاملي لواءها، فقد تسلم رئاسة تحرير صحيفة "اللواء" خلفا للزعيم مصطفى كامل وواصل رفع لواء الحركة الوطنية من بعده، وأصدر العديد من المجلات الوطنية، وظل يصدع بالحق الذي عرضه للمحاكمات والسجن. ومع ذلك كان في هذا الوقت مربيا جليلا ومصلحا اجتماعيا وضع على عاتقه مهمة إصلاح التعليم وتطويره .

ظهرت مقالاته تتوالى دفاعا عن الأمة وصيانة لحقوقها، وهجوما على الاستعمار وأذنابه والقصر ورجاله، ولم تشغله القضية الوطنية عن قضايا العالم الإسلامي، فإذا

كان يرى حق الأمة المصرية في الحرية والجلاء والدستور، فإنه يراه أيضا حقا للعالم الإسلامي، وكان يؤمن بوحدته تحت راية الدولة العثمانية التي يرى في تمزيقها ضياعا للوطن وتمكينا للعدو؛ ولذلك هاجم أحمد لطفي السيد وشن عليه حملة عنيفة حين عارض معاونة مصر لطرابلس التي تعرضت للغزو الإيطالي.
وكانت مقالاته الصادقة وحملاته على المفسدين تؤرق الاحتلال ورجاله، ووجدوا فيها خطرا داهما على نفوذهم وتنبيها للأمة من غفلتها وإيقاظا لها من سباتها؛ فجابهوا جاويش بالمحاكمة والسجن، لكن ذلك لم يزده إلا صمودا وثباتا، فلما اشتد الخناق عليه وأحس بتعقب الاحتلال البريطاني له وتدبير نفيه أو محاكمته محاكمة ظالمة هاجر مرغما .
وبصفة عامة فقد تمتع جاويش بموهبة أدبية ومهارة صحفية منذ نعومة أظفاره، حيث بدأ يكتب في اللواء حين كان طالبا بدار العلوم، وقد ارتبط جاويش بالحركة الوطنية يوم أن قابله الزعيم محمد فريد في مؤتمر المستشرقين الذي عقد عام ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م ، وقد لفت جاويش أنظار محمد فريد حين قام بالرد على المستشرق الألماني "دلفروسي" الذي ادعى في كلمته أن القرآن الكريم كان أول كتاب عربي وضع بالعامية لعرب ما قبل الإسلام، فرد عليه الشيخ ردا قويا قائما على العلم بتاريخ اللغة وتاريخ الدين، كما بدا تمكنه من اللغات الأجنبية وغيرته على لغة قومه ودينهم، فعرض عليه محمد فريد أن يعرفه بالزعيم مصطفى كامل الذي كان في رحلة عمل بلندن فوافق جاويش وسافر على الفور وقابله، وكان هذا اللقاء فتحا جديدا في حياة عبد العزيز جاويش، وحينما توفي الزعيم مصطفى كامل لم يجد محمد فريد أكفأ من جاويش ليخلف الزعيم الراحل في رئاسة تحرير "اللواء" فبدأ بذلك مرحلة جديدة من حياته صدرها بمقال تحت عنوان "دنشواي أخرى في السودان" قدم على أثرها للمحاكمة عام ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م وحكم عليه لكنه نال البراءة في الاستئناف. أعيد للمحاكمة في العام التالي لنشره مقالا عن ذكرى دنشواي وحكم بحبسه ثلاثة أشهر، غير أن الشعب قدر له هذه الوطنية فقدم له وساما بعد الإفراج عنه.
أما المحاكمة الأكثر شهرة في التاريخ فكانت محاكمته عام ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م بسبب اشتراكه مع محمد فريد في كتابة مقدمة لديوان "وطنيتي" للشاعر علي الغاياتي، وسجن ثلاثة أشهر، وبعدها بعامين أبعد إلى تركيا فواصل رحلة الجهاد والعمل .
ويشير أنور الجندي الى مرحلة التالق في حياة عبد العزيز جاويش فيقول : " في أوائل عام ١٩٠٨ترك جاويش منصبه العلمي في وزارة المعارف وتولى رئاسة تحرير جريدة " اللواء " ، وبدأ اسمه منذ ذلك اليوم يتألق في مجال الصحافة السياسية والاصلاح الاجتماعي على نحو سريع خاطف ، وفي خلال أربع سنوات (هي كل سنوات عمله الصحفي) كان جاويش قد ملأ الدنيا وشغل الناس بآرائه الجريئة وأسلوبه العنيف وحملاته النارية على الاحتلال والاستبداد الداخلي والمستوزرين ، حتى إنه قدم للمحاكمة ثلاث مرات ، وحقق معه أربع مرات ، وسجن مرتين ، وأنذرت " اللواء " وأغلق " العلم "، ومن أجل حملاته القاسية وقلمه

المر أعيد قانون المطبوعات القديم ، وعدلت نظم محاكمات الصحفيين .."(أنور الجندي ، عبد العزيز جاويش ، من رواد التربية والصحافة والاجتماع ، ص ٥٨).
كان جاويش يشعر فعلا بانه يواجه مرحلة صعبة حين أمسك قلمه ليكتب الكلمة الأولى في جريدة اللواء وكان يحس مسئوليته تجاه أمته ، مسئوليته وهو يكشف عن نفس مؤمنة صادقة اليقين في الكفاح وقد استهدف غايات خمس هي :
خدمة الأمة المصرية – والدفاع عن الأريكة الخديوية" ما حرصت على مصلحة رعاياها"- وجهاد الإنجليز ما بقوا محتلين البلاد – والحث على الفضيلة والأخلاق الكريمة – والدعوة إلى توحيد عناصر الأمة .."(السابق ، ص ٦٧).
وجاء في مقاله الأول بجريدة اللواء :
" باسمك اللهم استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة ومطيتها الدهان والتلبيس، في أسواقها النافقة تشترى نفيسات النفوس ، بزيوف الفلوس ، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام ،وهز الرءوس ، وبيمنك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة في القول ، حياة الجهر بالرأي، حياة الإرشاد العام ، حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة ، بعد أن قضيت في سابقتها ثماني حجج ، بلغت بها ذلك المنصب الذي كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجو فيه ، أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر منبريا في ميدانها ، فإما إلى الصدر وإما إلى القبر، موقنا بما أعده الله لعباده العاملين المخلصين من الظفر والفتح المبين ، عارفا أن الحي لا يموت إلا مرة ، والموت أحلى من حياة مُرة ، وكيف لا نقدم أنفسنا قرابين بين أيدي أهرام هذا القطر ونيله . أم كيف لا نصرف كل مرتخص وغال في سبيل تحريره ، وقطع اليد الغاصبة له جزاء بما كسبت ، فلنتمسك بهذا المبدأ الشريف ما حيينا ، ولنعتصم به ما بقينا . سيسير " اللواء " على ما كان عليه خادما للأمة المصرية مدافعا عن الأريكة الخديوية ما حرصت على مصالح رعاياها مجاهدا الإنجليز ما بقوا في بلاده ، حاثا على الفضيلة والأخلاق الكريمة ، داعيا إلى توحيد عناصر الأمة على اختلاف مللها ونحلها ، وتباين مشاربها ولهجاتها ، فاللهم أسألك لسانا ناطقا بالصواب " (اللواء عدد ٣ مايو١٩٠٨) .
وكان فيما يكتب يدعو إلى الموت في سبيل الحرية والحق والقوة والكرامة والعزة ويملأ نفوس المواطنين بحب الكفاح " نحن لا نرضى أن نقيم على الضيم ، ثم لا نرضى بسلطان أجنبي علينا ، نحن لا نقبل أن نباع بيع السلع في الأسواق ، نحن لا نصبر على العسف والجور ، نحن لا نعرف للاحتلال بيننا صبغة تكسب المحتلين شيئا من النفوذ والسلطة والشرعية "(السابق ، ص ٧٤) .
ولذا كان موقفه من لطفي السيد واللورد كرومر المندوب السامي على مصر حادا وعنيفا ، وكان لطفي السيد يهاجم من هاجموا تكريم اللورد كرومر عند انتهاء مدة حكمه فقال جاويش : " أنسيت حملته الصادقة على الجريدة عندما كنت تدعو القوم إلى إقامة احتفال بلورد كرومر ؟ وتنشر في صحيفتك (الجريدة)هذه العبارة : " ومما يذكر لجناب اللورد كرومر من علو الهمة والثبات على مبدئه أن كبار الأعيان طلبوا إليه أن يقدموا له هدية تذكارا لشخصه يذكر به المصريين الذين أقام بينهم هذا الزمن الطويل موفور القسط من الرفعة الذاتية والشمم وحسن البلاء والحلم ".

وردد جاويش – في مجال تصوير الفرق بين مفاهيم الجريدة واللواء للوطنية قول مصطفى كامل " إن سياسة الجريدة تدلنا على على أنها أشدالجرائد تعلقا بالاحتلال وحسبنا قدحها فيمن استنكروا الاحتفال باللورد كرومر ، أعدى أعداء المصريين ، والطاعن على الإسلام والمسلمين ".
وأضاف جاويش قوله : " ولا عجب من أن يكون مدير الجريدة هو الآلة الخادمة لهذه السياسة "(السابق ، ص ١٠٨ وما بعدها).
غادر جاويش مصر في (١٣٣٠ هـ = ١٩١٢م) إلى تركيا، وكان يحكمها رجال حزب الاتحاد والترقي وكانت له بهم معرفة وثيقة، ولم يكن يرمي جاويش من توجهه إلى تركيا طلب الراحة والركون إلى حياة الدعة والهدوء، بل ذهب إلى هناك ليستأنف نضاله ويعاود نشاطه وكفاحه؛ فأنشأ هناك صحيفة "الهلال العثماني"، وجعل هدفها الدفاع عن حقوق مصر في الحرية والاستقلال ومناهضة الإنجليز في كل مكان، وبعدها أصدر جريدة "الحق يعلو"، وكانت تصل إلى مصر وتلقى إعجابا وتقديرا.
كما أعاد هناك إصدار مجلة الهداية التي كانت توقفت في مصر، ودفعه لذلك العديد من الأسباب من أهمها ما رآه من انصراف المسلمين عن دينهم وتقليدهم الأعمى للغرب فسعى لرد الشبهات ودحض الأكاذيب التي تروج حول الإسلام، كما سعى للدفاع عن اللغة العربية وحرص على بيان أن الإسلام دين الفطرة؛ لذا قام بتفسير القرآن الكريم في أعداد المجلة. وشاركت المجلة في الجدال الدائر حول المرأة وحجابها فشن حربا شعواء على دعاة التبرج والسفور، كما اهتمت المجلة باللغة العربية والأدب وإنشاء نادي دار العلوم للغة العربية، كما أولت اهتماما كبيرا بأحوال المسلمين فتحدثت عن مسلمي بلغاريا وروسيا والبوسنة والهرسك وغيرها من بلاد العالم، واهتمت بإحياء التراث الإسلامي. لكنها توقفت نهائيا عام ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م.
فيما بين سنتي ١٩١٥ و١٩١٨ كان ينتقل ما بين ألمانيا وتركيا والشام، وقد أنشأ بعض المجلاتٍ إحداها باللغة الألمانية باسم Die Islamische Welt" وأخرى في استانبول باسم (العالم الإسلامي) ،وثالثة في سويسرا باسم Egypte؛ وذلك للدفاع عن استقلال مصر، كما اشترك في مؤتمر الدفاع عن الدول المحتلة في استكهولم.
وفي سنة ١٩١٨ غادر الشيخ جاويش تركيا خفيةً حيث اتصل بالوفد المصري بباريس. وفي سنة ١٩٢٢ استدعاه الغازي مصطفى كمال باشا وعيَّنه رئيسًا للجنة الشئون التأليفية الإسلامية بأنقرة. وفي سنة ١٩٢٣ حدث خلاف بينه وبين الغازي أتاتورك في شأن إلغاء الخلافة، فعاد لمصر خفيةً ونَشرت جميع الصحف مقالاً تحت عنوان (تجديد العهد) بتوقيع الشيخ جاويش، وبعد فترة سمحت له الحكومة بالإقامة في مصر.

ـ ٥ـ

تأثر جاويش بأستاذه محمد عبده، إذ كان حريصا على حضور دروسه في التفسير، وسلك طريقة أستاذه في الكتابة فكتب كتابه الشهير "الإسلام دين الفطرة" عام ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م في لندن، متبعا فيه طريقة الإمام في البحث الأسلامي، واستشهد

كثيرا بآرائه. ويكشف الكتاب عن مرامي الدين الإسلامي التي يتم بها إصلاح العقيدة، وقد استخرج أهداف الإصلاح من أسرار هذا الدين. واستوحى جاويش اسم الكتاب من قول أحد طلبته الإنجليز أثناء تدريسه بلندن: "يخيل إلي يا شيخ أن هذا الدين لا ينافي الفطرة".. فسعى لتأصيل المفاهيم حول الإسلام وبيان أثر القرآن في تحرير الجنس البشري. وحين نفدت طبعة الكتاب الأولى قامت جريدة "المؤيد" بنشره كاملا في السنة نفسها ، ثم أعيد طبعه أكثر من مرة، وترجم إلى اللغة الإنجليزية.
وقد دعا جاويش في مجال الإصلاح الاجتماعي إلى ترابط رؤوس الأموال الصغيرة وإنشاء مصرف وطني، وكتب في محاربة الخمر كتابه "أذى الخمر ومضاره"، وارتفع صوته بضرورة العناية بالمرأة وتعليمها وإصلاح أحوالها ورفع شأنها، وعارض زواج المصريين من الأجنبيات.
وتحت عنوان "وجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان في تطبيق أحكام الشريعة الغراء" ألقى جاويش خطبته الجامعة بمؤتمر الإصلاح العام الذي عقدته الحكومة المصرية بمصر الجديدة، وكان يردد دائما الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، وقد شارك في إنشاء جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة وانتخب وكيلا لها.
لم يكن الشيخ عبد العزيز جاويش شخصا عاديا أو مجرد أديب أو صحفي أو حتى سياسيا يدلى بتصريح هنا أو هناك أو يشارك في هذا الحزب أو ذاك ، لقد كان أكبر من ذلك كله ، ويكفي أنه خلف مصطفي كامل الزعيم الوطني الذي أحبه الشعب المصري في رئاسة الحزب ورئاسة تحرير جريدة " اللواء " وما ذلك إلا لكونه رجلا مهما ومتفردا له مواقفه وآراؤه التي تنحاز إلى الإسلام والوطن والاستقلال والحرية والعدل ، كما كان مخلصا للحركة الوطنية في مصر ومبادئها الراسخة كالجامعة الإسلامية والجلاء ووحدة وادي النيل، والدستور والدفاع عن المستضعفين.ولذا كان من أشهر زعماء العصر الحديث في مصر تعرضا للمحاكمات ، واكثرهم استهدافا من جانبا السلطة الغشوم التي لا تحب ان يعكر صفو وجودها بحديثه عن قضايا الأمة ، فقدم للمحكمة مرات عديدة
ومع ذلك فقد كرمه الشعب المصري وقدره ورد إليه اعتباره ، ففي ٢٧ نوفمبر ١٩٠٩ قَدَّم له الشعب وسامًا في حفل خاص تقديرًا لوطنيته.
ونشير بشيء من التفصيل إلى بعض المحاكمات التي تعرض لها الشيخ جاويش ، ونتوقف عند أشهرها لنكشف مدى استهدافه الظالم من أجل إسكات قلمه وتكميم فمه ، ومنها :
١ – قُدِّم للمحاكمة أمام محكمة عابدين عام ١٩٠٨ لنشره مقالاً تحت عنوان (دنشواي أخرى في السودان)، وقد حُكم عليه ابتدائيًّا وبرِّئ استئنافيًّا. فقد حوكم في يوليو ـ أغسطس سنة ١٩٠٨ بتهمة إهانة وزارة الحربية لنشر قضية "الكاملين" التي دافع فيها الشيخ جاويش عن أهالي بلدة الكاملين بالسودان بقيادة الشيخ عبد القادر واتهم الحكومة بإحداث مذبحة مثل مذبحة دنشواي في بلدة الكاملين بالسودان وأنها أعدمت ٧٠ رجلا، وحكمت المحكمة بالسجن المؤبد على ١٣ آخرين .
٢ ـ وقُدِّم للمحاكمة سنة ١٩٠٩ بسبب نشره مقالاً في اللواء بعنوان (ذكرى دنشواي) وصدر الحكم بحبسه ثلاثة أشهر.

٣ - في سنة ١٩١٠ كانت المحاكمة الأشهر فقد قُدِّم للمحاكمة بسبب مشاركته في وضع مقدمة لديوان (وطنيتي) لعلي الغاياتي، وحُكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر.
٤ - في سنة ١٩١٣ طلبت الحكومة المصرية تسليم الشيخ جاويش لمحاكمته عن تهمة إرسال منشورات ضُبطت مع أحد الطلبة المصريين القادمين من تركيا وتم تسليمه بالفعل وأُودع سجن الحضرة ثم أفرج عنه.
٥ - في سنة ١٩١٢ أُبعد الشيخ جاويش إلى تركيا حيث تابع نشاطه الصحفي والدعوي والوطني.
المحاكمة الأشهر في التاريخ الأدبي
لا شك أن المحاكمة الأشهر في التاريخ الأدبي الحديث هي قضية ديوان وطنيتي للشاعر على الغاياتي ، وقد اكتسبت شهرتها بسبب الأطراف التي اتهمت فيها وقدمت للمحاكمة بقصد تحقيق أهداف سياسية للاحتلال الإنجيزي والاستبداد الحاكم في مصر آنئذ ، فقد كان القصدد من المحاكمة ، الانتقام من الزعيم الوطني محمد فريد ، والكاتب المجاهد عبد العزيز جاويش ، والشاعر الحر على الغاياتي ، والثلاثة يشعلون الحماسة الوطنية ضد الاحتلال والاستبداد والتخلف ، وكان الهدف في كل الأحوال كسر شوكتهم، وتكميم أفواههم ، وتخويف بقية الوطنيين ، وإرغام محمد فريد وحزبه على القبول بما يريده المحتلون الغزاة من مهادنة وترك ميدان الجهاد السلمي الذي يقودونه ويحرك الجمهور للمطالبة بالاستقلال والحرية والعدالة والمساواة ، ولذلك يسجل الحكم الصادر في قضية الشيخ عبد العزيز جاويش والزعيم محمد فريد ومصادرة ديوان " وطنيتي" حكما تاريخيا يكشف طبيعة الاستبداد والظلم الاجتماعي والعسف في مطاردة الحرية وحق التعبير ، وقد سبقت الإشارة بإيجازالى هذا الحكم عند تناولنا لسيرة الشيخ على الغاياتي ، ولكننا نشير إليه هنا ببعض التفصيل لبيان بعض الجوانب المتعلقة بالشيخ جاويش على نحو خاص.
فقدعقدت محكمة الجنايات جلستها للفصل في قضية النيابة العمومية المتخصصة بديوان وطنيتي وهي. مولفة من حضرة عزتلو ، ومحمد مجدي بك رئيسا ومن زميله علي ذو الفقار بك و المستر سودان عضوين وجلس في كرسي النيابة العمومية حضره عزتلو محمد توفيق نسيم بك أحد روساء النيابة في محكمة الاستئناف العليا بدلا من حضرة عزتلو علي توفيق بك رئيس نيابة محكمة مصر الذي ألم بصحته انحراف خفيف منعه من الموافقة في هذه الدعوي ، ورأينا قاعة الجلسة مزدحمة بالمحامين ومندوبي الصحف وجمهور غفير من المتفرجين و المتهمين الثلاثة الحاضرين قعودا في مجلسهم وهم الشيخ عبد العزيز جاويش و الشيخ محمد حسن القزويني و إلياس دياب أفندي (كان محمد فريد وعلى الغاياتي غائبين عن المحاكمة الأول لسوجوده خارج البلاد ، والآخر لهروبه) ، وكذلك رأينا خارج القاعة جمهورا غفيرا آخر من المتفرجين لم يجد له موضعا في داخلها .
وبعد فتح الجلسة أعلن الرئيس أنه لم يضع نظاما استثنائيا للمحاكمة وأبقي حضورهم عموميا مباحا مؤملا أن يحافظ الحاضرون أنفسهم علي النظام ويلزموا السكينة ثم تلا كاتب الجلسة ورقة الاتهام ، وسئل المتهمون الثلاثة عن التهم المعزوة إليهم فأنكروها وعن أسمائهم وصناعتهم إلي آخر ما هو معروف من هذا القبيل ثم قسم المحامون

دفاعهم عن المتهمين ، وبعد ذلك نهض حضرة عزتلو محمد توفيق نسيم بك رئيس النيابة العمومية في محكمة الاستئناف العليا فألقي مرافعته التالية بما اشتهر عنه من طلاقة اللسان وفصاحة البيان وهذه صورتها .

مرافعة النيابة

تطالب النيابة العمومية معاقبة المتهم الأول بالمواد ١٤٨ – ١٤٩ – ١٥١ – ١٥٤- ١٥٦ -١٥٩- ١٦٠ من قانون العقوبات بوضعه وطبعه كتاب – وطنيتي – ولما كان فعل المتهمين الآخرين يحتمل أن يوصف بفعل أصلي أو باشتراك فتطلب معاقبتهم بالمواد المذكورة و بالمادة ٣١ فقرة الثانية و ٤٠ فقرة ثالثة من قانون العقوبات مع مراعاة تطبيق المادة ١٥٤ عقوبات في حالة ما إذا اعتبر المتهم الثاني مرتكبا لجريمة تمجيد الجرائم .

و في حالة اعتبار المتهم الثاني فاعلا أو شريكا مع الأول يلاحظ أنه سبق الحكم عليه لارتكابه بواسطة طرق النشر المنصوص عليها في المادة ١٤٨ جريمة قذف وإهانة الموظفين وقد ضمنت جريمة الإهانة إلي جريمة القذف أخذا بأشدهما .

و قد أخذت النيابة العامة في شيطينة ديوان وطنيتي وتجريمه وتجريد صاحبه من العقل والحكمة واتهمته بصفات عديدة غير طيبة واستطردت في جعل الشاعر على الغاياتي صورة بشعة للإجرام وبث التعاليم الفاسدة. وقد أخذت تدلل على ذلك من خلال اجتزاء بعض الجمل والأبيات في الديوان وخاصة ما يتعاطف فيها الغاياتي مع الحزب الوطني .

ثم تنتقل النيابة الى تجريم محمد فريد والشيخ الغاياتي اللذين كتبا مقدمتين للديوان ، حيث تراهما جزءا من أجزائه وهما عنوان خاطر المتهمين وترجمة ضميرهم.

لسان الدفاع

وقد دافع حضرة محمد علي بك عن الأستاذ الشيخ جاويش فأخذ ينتقض خطة النيابة في التحقيق نقطة نقطة ، ورد على أسئلة المحكمة التي وجهت إليه من خلال دفوع قانونية مهنية . وتتابع دفاع المتهمين الآخرين لتبرئة موكليهم وهيب دوس صاحب المكتبة التي وزعت الكتاب والشيخ القزويني وإلياس دياب . ثم استأنف حضرة عزتلو محمد علي بك الكلام بعده .

وبعد ذلك انفضت الجلسة علي أن تعقد في الساعة الرابعة مساء للنطق بالحكم.

وقد كان الحكم صورة غريبة وعجيبة حيث اقتطعت المحكمة أبياتا وجملا من الكتاب وأوّلتها لتطبق عليها مواد العقوبات في القانون ، التي انتهت بعدها إلى تجريم الشيخ الغاياتي مع محمد فريد وصاحب الديوان ومن شاركوا في طبعه وتوزيعه .

ونقدم مثالا على ما فعلته المحكمة في فهمها لشعر الغاياتي وتجريمه :

يقول الحكم :" وكذلك في الظروف المذكورة أهان الشيخ علي الغاياتي سعادة ناظر الحقانية بصفته موظفا عموميا وبسبب وظيفته هذه وبصحيفة ٦٣ ،٦٤ حيث قال موجها كلامه إليه :

حكمت فلم تنصف وقلت فلم تصب	ورمت مراما دونه الله و الناس
وبحت بأسرار الوزارة معلنا	وأبديت ما لم يُبد غالي و عباس
فأغضبت في مصر القضاء وأهله	وأرضاك أن يرضي خئون ودساس

فلا تك بعد الآن للعدل موئلا   فغيرك بعد الآن للعدل حراس
وحارب بسيف الظلم من شئت بيننا   فغاية ما يغني من الظلم إفلاس

وعقوبته علي هذا الأمر تكون بمقتضي المادة ١٤٨ و١٥٩ عقوبات" .
وبعد حيثيات عديدة انتهت المحكمة إلى إصدار حكمها التالي :
حكمت المحكمة غيابيا بالنسبة للشيخ علي الغاياتي وحضوريا للشيخ عبد العزيز جاويش و الشيخ القزويني و اليأس دياب أولا – بمعاقبة الشيخ علي الغاياتي بالحبس لمده سنة مع الشغل و تبرئته من تهمة التحريض علي القتل – ثانيا – يحبس الشيخ عبد العزيز جاويش مده ٣ أشهر حبسا بسيطا . ثالثا – بمعاقبه كل من الشيخ محمد حسن القزويني و الياس أفندي دياب مده شهرين و ايقاف تنفيذ هذا الحكم الآن طبقا للماده ٥٢ ، ٥٤ عقوبات .
وكانت المحكمة قد حكمت على محمد فريد بالحبس بعد عودته من ألمانيا ، وقضى العقوبة دون أن يستجيب للمساومات التي طرحت عليه لإخلاء سبيله .

- ٦ -

كان الشيخ يحضر دروس الإمام محمد عبده فتأثر به في تفسير القرآن وفي البحث الديني وفي اتجاهاته الإصلاحية، فسلك في ذلك سبيل التأليف والخطابة، فألف كتاب (الإسلام دين الفطرة) أثناء وجوده في إنجلترا وترجَمَه للغة الإنجليزية ليسهم في بناء مفاهيم الإسلام والكشف عنها.
وقد تابع نشاطاته الدعوية بحضور المؤتمرات والندوات التي يدعو فيها الى قيم الإسلام وفضائله ، ويدافع عن الدين والقرآن الكريم بكل ما أوتي من قوة ، يساعده على ذلك وعي عميق بأصول الإسلام وغاياته .
ولعل أهم ما خلفه عبد العزيز جاويش في مجال الدفاع عن الإسلام وبيان قيمه وفضائله الإنسانية كان مجموعة من المحاضرات حققها الدكتور محمد عمارة ونشرتها مجلة الأزهر ، القاهرة ، ١٤٣٣هـ تحت عنوان " أثر القرآن في تحرير الفكر البشري " .
هذا الكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها الشيخ جاويش للرد على الدعاوى التي شاعت عقب سقوط الخلافة الإسلامية ، وظهور " الفتن الفكرية التي يباع فيها الدين بيع سماح ! "الإهالة التراب على هذا الرمز وهذا الوعاء ، وطال الهجوم التغريبي – كما يقول محمد عمارة – عددا من ثوابت الإسلام !
ومن ذلك صدور كتاب " الإسلام وأصول الحكم " المنسوب لعلي عبد الرازق لادعاء علمنة الإسلام والفصل بين الدين والدولة وتشويه الخلافة الإسلامية وتقديمها في صورة الكهانة القائمة على القهر والاستبداد .
ومنه أيضا صدور كتاب " في الشعر الجاهلي " لطه حسين ؛ الذي شكك في الصدق التاريخي لعدد من قصص القرآن الكريم وبعض العقائد الواردة فيه ، ومنها علاقة الإسلام بالحنيفية والحنفاء ، وصلته بملة إبراهيم - عليه السلام – والرحلة الحجازية لأبي الأنبياء ، وإقامته وإسماعيل – عليهما السلام – قواعد البيت الحرام .

وكان الشيخ جاويش في طليعة من شاركوا في الجهاد الفكري ضد هذه الأفكار الصادمة ، والهجوم عليها من خلال هذه المحاضرات التي ضمها هذا الكتاب الذي يقول لخصوم الإسلام : إن الذكر الحكيم هو الذي حرر الفكر البشري من القيود ، ووضع الإصر والأغلال عن الحضارة الغربية . (ص ١٤ -١٥) .
ويطرح جاويش إجابة منطقية على تساؤل متداول في المجتمعات الغربية وهو إذا كان القرآن هو دين الفطرة وإذا كان مقياس صحة الأحكام من الوجهة القرآنية هو العقل والمنطق فماذا عسى أن تكون فائدة الدين؟ ومن ثم لماذا يترك العقل يجاهد وحده في سبيل الحق والحقيقة حتى يبلغهما؟ ولقد كانت الإجابة مؤداها ضرورة انسلاخ بعض القرون في التجارب والأبحاث للوصول إلى ما تنشده النفس البشرية من وجوه الصواب والمطابقة للمصلحة، من هنا فقد جاء القرآن بدين الفطرة في كل شيء فطابقت أحكامه وأصول آدابه وشرائعه مقتضيات تلك الفطرة.
وقد حلق جاويش بفكره في محاولة لترجمة المقاصد الظاهرة والخفية في كل ما ارتبط بالإسلام عقيدة ومنهجا. ولعل في مقولاته التالية ما يضيء منهج الإسلام في الإعلاء من شأن العقل والتفكير:
"إن القرآن ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين،كلهم يجمعون على ضرورة طلب عقيدة الإيمان بوجود الله عن طريق النظر والاستدلال ".
"ونحن على ثقة أنه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية وعرفوا أسرار سنة الله في خليقته لما كثرت الملاحدة وفشت المناكير".
"إن القرآن لم يذر وسيلة موصلة إلى إنعاش العقل وتحرير الفكر إلا وتذرع بها، فهو إذا تحاكم فإلى العقل، وإذا حاج فبحكم العقل، وإذا سخط فعلى معطلي العقل، وإذا رضي فعن أولي العقل".
يعرض الشيخ جاويش لما كانت عليه الأمم الكبرى في طائفة من القرون التي سبقت ظهور الإسلام من التطورات وما تعاقب على العقول من مد وجزر وتحرير واستعباد ، وذلك في إدراك ما فعل القرآن في إنصاف العقل الإنساني وإحلاله المقام الذي خوله خالقه منذ فطره وأوجده (ص٢٥) .
ولعل القضية الأهم التي عالجها في سلسلة هذه المحاضرات هو موقف القرآن الكريم من قضية العلم والمعرفة ، كما ورد في المحاضرة الرابعة وهي بعنوان :" مقام القرآن الحكيم إزاء العلوم والمعارف الكونية " ، والمحاضرة طويلة ويشير في سياقها إلى ما يتوهمه بعض المثقفين العصريين في كتاباتهم بالصحف والمجلات حول العداوة الدائمة بين العلم والدين ، ويرى أن هؤلاء اتبعوا الظن وما تهوى الأنفس مع جهلهم بتاريخ الامم الغربية ومصدر تقلباتهم وتطوراتهم ، ويكتفون بالإشارة الى المستر فلان الانجليزي أو المسيو فلان الفرنسي أو الهر فلان الألماني دليلا وبرهانا على صحة ما يقولون ليصدقهم الناس دون مناقشة أو تمييز ، ويقودهم ذلك إلى الإرجاف بمقولة فصل الدولة عن الدين وإن حرية الفكر الإنساني تستلزم انقلابه ماديا طليقا لا يتقيد بشيء من قيود الأديان . ثم يركز على المرحلة اليهودية المسيحية وما حدث فيها من انحرافات وفواحش ، وهو ما فرض على علمائهم أن يفرضوا عليهم عقوبات قاسية زجرا لهم عن رجس الشهوات التي عكفوا على

مرضاتها وأسلموا مقاليدهم لها حتى أنستهم وهبطت بهم إلى مراتب سائر الحيوان الأعجم . وكان من العقوبة والتنكيل ما حضوا عليه من الرهبانية والترغيب في الخصاءوإفناء القوى العقلية والبدنية بالصوم المرهق والتعذيب بالتحرج عن أكثر مطالب الحياة ..

ويستطرد في حديث مسهب حول الواقع اليهودي المسيحى وما جرى فيه من بعد عن الفطرة الإنسانية وجوهر الرسالة السماوية ليشير إلى أن القرآن جاء لتحرير العقول البشرية من رق التقليد وإخراج الوجدان الإنساني من نطاق الحجر الذي ضربه من حوله رجال الدين ، كما جاء لإنهاض العقل الآدمي واستحثاثه في سبيل التفكير والنظر جاء يحفز النفس البشرية ويسوقها لتقرأ صحف الطبيعة وتتدبر آيات صنعتها البديعة . وقد بغض القرآن إلى الإنسان رذيلة التقليد ونعى عليه الجمود على ما ورثه آباؤه الأولون أو شاءه الأحبار والربانيون حتى لقد سمى القرآن هؤلاء أربابا لمقلديهم في قوله تعالى : " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله " (التوبة : ٣١).

ويقارن بين ماجاء في القرآن وما وضعه الفلاسفة الماديون منذ فجر التاريخ ، وما قامت به الكنيسة من اضطهاد ومطاردة لأصحاب العقول حول البحث والعلم والنظر ويتساءل : هل اضطهد القرآن وأهل القرآن أمثال برونو وغاليليو وأمعنوا فيهم تنكيلا وتحريقا لغير علة سوى أنهم بعد إذ اعتمدوا على الحس والمعاينة وتسلحوا بالآلات المكبرة والمقربة استنكروا عتيق الخرافات وأعلنوا الدعوة إلى المشهودات وآذنوا بالحرب والقطيعة أصحاب الظنيات ؟" (ص ١٣٣) .

ويشير إلى ما أنتجه العلماء المسلمون في ظل القرآن الكريم من موسوعات العلوم العقلية في الرياضيات والطبيعيات وما وراء الطبيعة ، فهو الذي دعا إليها ورغب في البحث عن دقائقها وأسرارها وببركته وجد بين المسلمين آلاف من أمثال الكندي ومحمد بن موسى الخوارزمي ويحيى ابن أبي منصور والعباس بن سعيد الجوهري وأحمد بن كثير الفرغاني وجعفر بن محمد البلخي ونصير الدين الطوسي ،وألوغ بك وثابت بن قرة وعمر الخيام وابن سينا وأبي نصر الفارابي وابن رشد والحسن بن الهيثم وأشباه هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والأثقال والموسيقى وغيرها .

ويناقش الشيخ جاويش موقف القرآن الكريم من العلومsciences وهل في طبيعة دراستها بالأساليب الحديثة ما يجعل بينها وبين القرآن وتعاليمه سدا لا يتعاونان معه وقتالا لا يرجوان سلاما بعده ؟! ثم يدخل في تناول دقيق لمعنى كلمة العلم في المفهوم الغربي والمفهوم الشرقي من خلال مقولات العلماء الأعلام ، وموقف الكنيسة وقفة المحارب العنيد في بدء بناء العلم مذ حكمت بالكفر على شعبة الآلهيات في جامعة توبنجن بألمانيا وعلى الفيلسوف كيلر سنة ١٥٩٦م ، وأصدرت محكمة التفتيش قرارها بأن نظرية الشمس مركز الدنيا وأنها لا تتحرك من مكانها هذيان فلسفي ونظامي وهرطقة مناقضة للكتاب المقدس .وأيضا نظرية الأرض ليست مركز الدنيا وانها غير قارة ومتحركة ومتنقلة مساوية للنظرية السابقة في هذيانها وخطئها من الناحية الدينية ، وهي عقيدة خاطئة على أقل فرض . ويستعرض الشيخ جاويش نماذج أخرى لحركةالعداء للعلم في الغرب ، ويقرر بكل توكيد أن القرآن الكريم مذ

نزل لا يفتأ يدعو العقل إلى التفكير ، والأبصار إلى الاعتبار والآذان إلى الاستماع ، ولا ينفك يستدرج الناس إلى التحسس من أسرار الكائنات ، ويحفزهم إلى الكشف عن غوامضها والتنقيب عن دقائقها ..
ويسهب الشيخ جاويش في بيان عدة نقاط حول القرآن والعلم ، فهو ليس كتاب بحث علمي يبحث في الشئون الكونية والمسائل العلمية الفنية على النحو المألوف في كتب العلم المتخصصة . بيد أن القرآن يسترعي الناس بالضرورة إلى وجه الخطأ في عقائدهم ومعلوماتهم الخاطئة بالكون ويشككهم في الباطل الذي اتبعوه ، ثم يضرب لهم الأمثال لم تفكر ؟ وفيم تفكر؟ وكيف تفكر ؟ فيمهد بذلك أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشامخة المتينة ، وقد طالب الناس بسؤال أهل الذكر فيما لا يعلمون وترك ما لايدركون إلى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ،ثم إن ثورة المسيحيين في أوربة في وجه العلم ونظام الحكم لا تشبه الشعوب الإسلامية ، فقد كانت ثورتهم الدموية نتيجة لأن رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان وحرموا على الناس استيضاح ما غمض عليهم وقرروا تكفير من يقول بغير آرائهم .
ثم يدخل الشيخ في مقارنه بين ما وصل اليه العلم الحديث وما أشار إليه القرآن الكريم من خلال أمثلة عديدة ليكشف أن القرآن الكريم يحض على العلم ويدعو إليه . ومن ذلك على سبيل المثال : تكون أصول جميع الكائنات من زوجين اثنين وبلسان العلم الحديث - ألكترون وبروتون : الآية " ومن كل شيء خلقنا زوجين " (الذاريات :٤٩).
فما من شيء في الوجود إلا منه الذكر والأنثى سواء في ذلك النبات والحيوان والجماد وغيرهن مما لا نعلم ، وجاء في بيان إجمال ذلك قوله تعالى :
" سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسكم ومما لا يعلمون "(يس :٣٦).
وفي قوله : (مما لا يعلمون) من المعاني ما يسكن إليه عقل الإنسان في كل زمان ويطابقه كما رأينا أحدث نظرية في أصول الأكوان .(ص ١٣٨ وما بعدها) .
لا يحتمل المجال استعراض بقية الأمثلة والنتائج التي ذكرها جاويش ، وتدل على عمق وعيه بالقضية التي يعالجها ، واطلاعه العميق على تفاصيلها وقراءاته الجيدة في المجال العلمي ، لقد رأى أن ما قدمه عجالات وبعض أمثال لأن استقصاء هذه المباحث يحتاج وفق تعبيره إلى ضخام المطولات ، ويسأل الله أن يوفقه إلى إكمال هذه الموضوعات وإيفائها حقها من الشرح والبيان خدمة للدين وهداية للمستهدين من المؤمنين .
لقد أثني على هذه المحاضرات وصاحبها نفر من أعلام عصره منهم عبد العزيز البشري وأحمد يوسف نجاتي أحد أساتذة البيان والأدب بمدرسة دار العلوم وكلية اللغة العربية ، الذي قال في وصف الشيخ عبد العزيز جاويش بك مراقب التعليم الأولي بوزارة المعارف : " ذاكم العلم الواضح الذي ضم إلى الثقافة الشرقية العربية الثقافة الحديثة الغربية ، فجمع بين المزيتين ، وأنال منهما الحسنيين ، وعني منهما باللباب دون القشر فميّز الرشد من الغيّ وزاد تضلعه في العلوم الحديثة وتمكنه من

اللغات الحية الراقية علما إلى علم وإيمانا إلى إيمان، وعرف من أسرار الكتاب الكريم والذكر الحكيم ما جهله الذين التبست عليهم سبل المدنية الصحيحة ، واشتبهت عليهم طرق الحضارة الحقة فأخطاوا القصد وتاهوا عن المحجة فضلوا وأضلوا...."(ص ١٦٦ وما بعدها).
ومثل هذه الشهادة ، يؤكد أن الشيخ جاويش كان عالما عاملا في سبيل الدعوة ، وأنه كان نموذجا للرائد الذي لا يكذب أهله .

- ٧ -

يمكن القول إن أهم صفة تميز عبد العزيز جاويش هي قول الحق والجهر به دون أن يخشى في الله لومة لائم . يروى أن بعض المستشرقين جاء في زيارة إلى القاهرة فاحتفلت به الدوائر الرسمية احتفالا رنّانا ، وأسهبت الجرائد في تعداد مآثره وما حقق من كتب ، وما نشر من موسوعات ، وأقيمت له حفلة استقبال ضخمه شهدها جمهور من ذوي الثقافة وفيهم من هو مفتون بالاستشراق ويسبح بحمد المستشرقين، ويفرح بما يرجفون من مفتريات ويستشهد به ويروج له . ومع بدء الاحتفال نهض وزير المعارف لتكريم المستشرق الزائر ، ويفتتح الكلام عن مزاياه وفضائله ، وكان من المتوقع أن يتوالى الأساتذة الجامعيون وأمثالهم على المنصة ليصلوا بالثناء إلى منتهاه وفوجئ الجمهور بالشيخ عبد العزيز جاويش ينهض بقامته الممتدة وعمامته العالية وعباءته الفضفاضة وعصاه الممتلئة يعتلي المنصة مقحما نفسه – بعد انتهاء الوزير من كلمته - ثم يرسل عينيه المتلألئتين فتومضان ببريق يمتد إلى ثناياه اللامعة ويدور حول لحيته السوداء ذات المشهد الوقور ، ويبتدئ الحديث بحمد الله ثم يقول ما معناه:
إن كلمة الوزير تدل على أنه لم يقرأ شيئا للمستشرق محل التكريم ، فمؤلفاته ليست إلا طعنات مسمومة للفكرة الإسلامية وقد قرأتها لدى إقامتي في إنجلترا ، وناقشت صاحبها فلم أجده يخطئ إلا عمدا ، وهو يعلم الصواب ويتجنبه ، ثم يلتمس أوهى الروايات ليبني عليها ما يروق من التدليس والافتراء !
ولو كان لدينا وعي ثقافي لكرمنا الرجل ضيفا وليس مؤلفا وعلامة وبحاثة !
ارتج الحفل ارتجاجا واضطرب الوزير وتساقط عرق الخزي على وجوه من أعدوا أنفسهم للكلام ثم اشتعل الموقف حين وقف عبد الحميد سعيد رئيس جمعيات الشبان المسلمين - وهو مسلم شهم - لينهي الاحتفال ويشير للحاضرين بالانصراف ، والشيخ جاويش يصيح : يا للمذلة!أوصل الانهيار بالمسلمين إلى حد يجعلهم يقيمون حفلات التكريم لمن يصم دينهم بالتوحش والغلظة والشهوة والاستعباد ! ثم يكون رئيس الاحتفال وزير المعارف ، ومتكلموه أساتذة الجامعة في عاصمة الإسلام ؟(محمد رجب البيومي، مرجع سابق ، ١/ ٦٩).
يقول الأستاذ تشارلز آدامس في كتابه " الإسلام والتجديد في مصر" :" وممن حضروا دروس محمد عبده الشيخ عبد العزيز جاويش، ولكنه كان في حياته السياسية أقرب إلى جمال الدين الأفغاني منه إلى الشيخ محمد عبده " (السابق ، ٧٠/١).
كان الشيخ صريحًا في كل آرائه؛ ولذلك كثرت محاكماته وكثرت سكناه السجون، كما اتسم بخفة الروح والظل لا يمله الجالس كما كان أبي النفس.

كان الشيخ في سنواته الأخيرة يرعى أسرة زميل جهاده محمد فريد الذي توفِّي في برلين سنة (١٣٣٩هـ = ١٩٢٠م)، ثم كان عليه أن يقوم على رعاية أسرة الصحفي المجاهد أمين الرافعي الذي تُوفي قبله، وفي غمرة هذا العمل المتصل وافاه الأجل المحتوم في فجر يوم الجمعة الموافق (١٣ من شعبان ١٣٤٧هـ الموافق ٢٥ من يناير ١٩٢٩م)، تاركًا ذكرى عطرةً وسيرةً طيبةً لأجيال أمته.

أصيب عام ١٩١٨ بذبحة صدرية كاذبة وهو في منفاه على أثر المجهود الضخم الذي بذله في سنوات الغربة الكئيبة المظلمة أو ما عبر عنه بـ "غصص العيش المرّ في ديار هجرتي ".

وعندما عاد الى مصر ١٩٢٣ واصل العمل ولم يتوقف مع ضعف صحته . ولم يستمع الى تحذير الأطباء من عودة المرض مرة أخرى فبذل جهدا كبيرا في التربية والتعليم والسفر في أرجاء مصر ، في الوقت الذي كان يرعى فيه أسرة الزعيم محمد فريد وأسرة أمين الرافعي الذي توفى قبله بعام واحد . وقبل أن يموت اتفق مع الأوقاف والجمعية الخيرية على دفع مرتبات ثابتة للأسرتين . وحين مات هو لم يكن في بيته مليم واحد ، وكان بيته مدينا للبقال والجزار والخضري . وكان يردد : لو مت اليوم لا أدري ماذا يأكل أولادي غدا .

لقد وهب الرجل حياته كلها لمصر والمة ولم يجعل لأسرته منها إلا أيسر اليسير ، وكان يلم بداره إلمام الراحة والضرورة .

سكن في أول عمله باللواء عام ١٩٠٨ في منشية الصدر في بيت شعبي بالبغالة . وعاش بمرتبه (أربعون جنيها) يحصل عليها من اللواء مجزأة وينفقها قسمة بين بيته وبين إعانة الأسر الفقيرة ومساعدة القادمين من هنا وهناك .

كان حفيا بالفقراء يقف معهم ويحادثهم ويعطيهم ثم لا يكتفي بذلك بل يبحث لهم عن أعمال يلحقهم بها .وكان ودودا في أسرته عطوفا حنونا ، ولكنه كان قاسيا على من يخطئ ، وكان حليما غاية الحلم ، فإذا ثار فثورة عارمة.

وقد أنشأ أولاده ورباهم على نحو كريم ، وكفاء العمل النافع والخير الذي كان يؤمن جاويش بإفاضته على الناس ، أتيح لأولاده حياة كريمة بعد وفاته دون أن يترك لهم قرشا واحدا . وكان لا يجد غضاضة في الاعتذار لمن يتصور أنه قسا عليهم من أجل مصلحتهم كما فعل مع صهره الذي قسا عليه في الغربة ليحصل على الدكتوراه ، ثم اعتذر له بعد ذلك .

لقد كانت حياته في ظاهرها أمام الناس مثل باطنها الذي يعتمل في داخله ، وهي حياة عريضة عاشها بالإيمان الصادق والمعنويات الطيبة والقيم العليا والمثل الرفيعة على النحو الذي تمثله عبارته الخالدة :

" إن لله رجالا تخلد حياتهم إذا ماتوا ، ويزيدون ظهورا إذا قبروا ، كما أن للنار أناسا يموتون وهم أحياء ، ويقبرون في ظلمات أعمالهم وهم على الأرض يعيشون .." (انور الجندي ، مصدر سابق ، ١٥٣ ـ ١٥٩).

وكان العقاد يرى فيه نموذجا للذكاء الفطري والعالم الأزهري الناضج ، والهمة التي لا تتوقف ولا تهدأ في إنجاز عملها . ويشير العقاد الى ارتباط الشيخ عبد العزيز

جاويش في ذهنه بزيه الأزهري لأنه كان أول مالفته إليه ، ولم يزل موضع التفاته بعد ذلك كلما رآه أو سمع بخبر من أخباره في بعض المناسبات .
ويشير العقاد إلى واقعة جرت في مدرسة أسوان الأميرية حيث كان أحد زملائه مشهورا بالجهل والعبث وقلة المبالاة ، وكان مدرسا للترجمة ، وذات يوم كان يلقي درسه في الترجمة ففوجئ بشيخ معمم يدخل عليه فظنه مفتشا للغة العربية فمضى في درسه مطمئنا إلى جهله وعدم مبالاته وفوجئ باعتراض المفتش المعمم فقال بغير تردد " إن هذه القطعة منقولة من كتاب مقرر ".
وسأل المفش : ما هو ؟
فقال : كتاب مرشد المترجم .
وطلب المفتش أن يريه القطعة في الكتاب ، فقلب الصفحات كأنما يبحث عن واحدة معينة ، ثم أشار إلى جملة في الصفحة .. وقال للمفتش بكل ثقة واطمئنان :
هي هذه القطعة !
وهنا المباغتة التي كان أهون منها إلى على صاحبنا أن ينفتح أمامه قمقم مغلق ويخرج منه مارد من الجن ؛ لأن الشيخ المعمم قد أخذ يقرأ القطعة الإنجليزية ويسأله عن العلاقة بينها وبين العبارة العربية .
إن المفتش المعمم هو الشيخ عبد العزيز جاويش مؤلف كتاب مرشد المترجم مع زميل من المعلمين !
وضجت المدينة ليلتها من الضحك ، ولم يزل شاهدو القصة يذكرونها ..
لاعجب إذن أن يظل زي الشيخ الذكي النشيط عالقا بذهن العقاد حتى رحيله (العقاد ، رجال عرفتهم ، ١٤٧ وما بعدها) .
ويشير العقاد إلى ثبات الرجل على مواقفه ومبادئه ، ويقول الحمد لله .. لقد تغيرت مصر كثيرا في عشر سنوات ، وإن لم يتغير الشيخ عبد العزيز جاويش ، ومن جرى على مجراه " (السابق ، ص ١٤٩).
ويرى العقاد أن هناك جامعة لا غنى عنها عنها تربط بين الشيخ رشيد رضا والشيخ جاويش ، ويذكر أنه بعد جمال الدين ومحمد عبده أصبح من كل شيء أن يصبح أستاذا إماما أو نمطا آخر من جمال الدين ومدرسته التي ضمت رشيد رضا ومصطفى المراغي وعبد الحميد الزهراوي ومحمد الخضري ومحمد المهدي والنجار وغيرهم .
كان الشيخ عبد العزيز جاويش يتشبه بجمال الدين حيث يتشبه أقرانه على الأكثر بالأستاذ الإمام ..ويرى العقاد أن فارقا آخر بين جاويش والشيخ رشيد الذي كانت به جفوة عن الفكاهة والكياسة ، أما الشيخ عبد العزيز فقد كانت فيه من أبناء البلد الظرفاء مشابهة كثيرة .(نفسه ، ص ١٤٩ وما بعدها) .
كانت سنوات حياته الأخيرة حافلة بشتى الأعمال التي لا تنسى له؛ وفي غمرة العمل المتصل وافاه الأجل المحتوم في فجر يوم الجمعة الموافق (١٣ شعبان ١٣٤٧ هـ = ٢٥ يناير ١٩٢٩)، تاركا ذكرى عطرة وسيرة طيبة لأجيال أمته.
رحمه الله .
***

على الغاياتي :
شاعر الإسلام والوطنية

- ١ –

من معالم النهضة الإسلامية المعاصرة توظيف الشعر العربي في مقاومة الغزاة والمستبدين من أتباعهم في بلاد الإسلام والشرق العربي ، وقد أبلى الشعراء العرب والمسلمون منذ مطالع النهضة في العصر الحديث بلاء حسنا في نظم القريض والتعبير عن مشاعر الشعوب العربية والإسلامية ، وكان محمود سامي البارودي وعبد الله نديم وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وأحمد محرم وأحمد الكاشف ومحمد عبد المطلب وعبد الحليم حلمي المصري وغالب الهندي ومحمد إقبال الهندي ؛ الباكستاني فيما بعد ، ومحمد عاكف التركي ، وشعراء الديوان ، وغيرهم ، من طلائع الدفاع عن الأمة ودينها وكرامتها ، واستدعاء تاريخها المضيء في شتى المناسبات الإسلامية والوطنية ، سعيا لتحرير الأمة من قبضة الغزاة والجلادين ، وصنع نهضة تليق بأمة خير المرسلين – صلى الله عليه وسلم .

كان على الغاياتي شاعر الإسلام والوطنية واحدا من هؤلاء الشعراء العظام ، فقد عبر عن رؤيته بمنتهى القوة والجرأة ، ودفع ثمن ذلك تعرضا للمحاكمة ، والحكم عليه بالسجن ، والهروب من البلاد ، والغربة عن الوطن سنوات طوال ، وارتبط اسمه في هذا الجهاد باثنين من أكبر رواد الإصلاح في مصر وهما الزعيم محمد فريد والشيخ عبد العزيز جاويش ، كما سنفصل فيما بعد إن شاء الله ، وكأن إرادة الله سبحانه أن يتغرب عن مصر الغالية ليذهب إلى بلاد أخري ؛ يتعلم لغتها ويؤسس فيها صحيفة تعرّف بالإسلام وتنشر أخبار الشرق المسلم إلى أهل الغرب والمقيمين فيه من أهل الإسلام ،ويخدم قضايا مصر والبلاد الإسلامية في المجال السياسي ن والسعي من أجل استقلالها ووجودها في السياق الدولي .

هذا الشاعر المجاهد نموذج لرجال الإصلاح والجهاد في العصر الحديث الذين عرفتهم بلادنا ، وكانوا نموذجا صلبا في الحفاظ على هوية الأمة ، ومقاومة الغزو العسكري والسياسي والثقافي الذي يشنه الغرب معتمدا على بعض أبنائنا والمنتسبين إلينا ، لقد كان هؤلاء المجاهدون نموذجا وقدوة تسير على هديها الأجيال ؛ جيلا بعد جيل ، وتستلهم تجاربها في العمل والجهاد والصبر على الابتلاء ، وفي الوقت نفسه ترفض انهيار بعض من يضعفون أمام الترغيب والترهيب ، فيستسلمون لإرادة الغزاة ، ويتحولون إلى الولاء لهم والدعوة إلى فلسفتهم واعتماد مناهجهم وهي في مجملها ضد الإسلام والمسلمين والإنسانية وإن تلفعت بمعسول الكلام ورقيق الألفاظ . يقول عنه الشاعر مختار الوكيل ، وهو من أقرب الناس إليه بحكم المصاهرة :

" ولقد شاء الله أن يكون جهاد الشيخ على الغاياتي متصلا في سبيل الوطن ، وملازما ومواكبا لجهاده في سبيل تحقيق الحياة الكريمة العزيزة للإسلام والمسلمين " .

ويضيف الوكيل : " ولكنه كان سعيدا بشقائه في جهاده ، لأنه كان صاحب رسالة ، أجل كان مؤمنا بربه ، وكانت عاطفته الإسلامية أقوى ما يكون وأنصع ما يكون ، حتى إنه لم يقبل في جريدته ، سواء في جنيف أو في مصر ، إعلانات الخمر ، أو القمار ، أو أماكن اللهو المريبة ، وكان يحاول في كل تصرفاته أن يكون مثالا ونموذجا للمسلم الذي سلم الناس من لسانه ويده .
لقد عاشرت الشاعر بحكم مصاهرتي له في أعقاب عودته على أرض الوطن ، فوجدت فيه أشد الناس حبا لربه ولوطنه ولقومه ، وكان أحرص على ما يكون على أداء الواجب في إخلاص ونزاهة وتجرد " (مختار الوكيل ، خمسة من شعراء الوطنية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م ، ص ٢٧٥ وما بعدها) .
لقد ترك الغاياتي شعرا ونثرا يستحق الوقوف عنده ، وتأمل مضمونه وصياغته ، فقد كان هذا الميراث تعبيرا عن شخصيته وفكره وسلوكه ، ولعل هذا كان من وراء الدراسات والبحوث التي تناولته أكاديميا وأدبيا وصحفيا ؛ فإلى جانب ما تناولته الصحافة في زمنه وبعده ، جاءت دراسات عديدة تؤكد على قيمة الرجل وأهميته في بناء النهضة المصرية الحديثة بقلمه ومواقفه في آن واحد .
ومن هذه الدراسات : الوطنية فى شعر على محمود الغاياتى دراسة وتحليل ، تغريد النقراشي إبراهيم على ، جامعة الأزهر (كلية الدراسات الإسلامية ؛ فرع البنات، ٢٠٠٧) - على الغاياتى حياته وشعره ، محمود جمعة أمين ، جامعة الأزهر(؟) - علي الغاياتي: سيرة وحياة ، ‘Abd al-Rashīd ‘Abd al-‘Azīz Sālim ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٨١- الشعر و الشعراء المجهولون في القرن التاسع عشر ، طه وادي ، دار المعارف ، ١٩٩٢ - على الغاياتي ، إبراهيم عبد الله ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٩- موسوعة تاريخ مصر ، أحمد حسين - علي الغاياتي من وطنيتي إلى منبر الشرق - إبراهيم عبد الله المسلمي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ م – مجموعة مؤلفين ، خمسة من شعراء الوطنية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣-١٩٨١ – علاء الدين وحيد ، شعراء اليقظة الإسلامية في بداية القرن العشرين ، دار سنابل للنشر و التوزيع ، المنصورة (مصر) ، ١٩٩٥م . " كامل الدابي ، على الغاياتى ، كتاب أعلام دمياط ، مارس ١٩٨٤ .
ويلاحظ أن الغاياتي لم يخلف كتبا كثيرة ، باستثناء كتابين ، الأول هو ديوانه " وطنيتي " الذي أقام الدنيا في زمنه ولم يقعدها بسبب مضمونه الثوري ، وكان ينوي نشر جزء ثان منه ، ولكنه لم يفعل .
الكتاب الآخر " على هامش الحج " وهو عبارة عن مقالات قصيرة نشرها في جريدته " منبر الشرق " إثر عودته من رحلة الحج ، بيّن فيها أوجه القصور في الأماكن المقدسة .
وواضح أنه كان مشغولا بالكتابة الصحفية التي لم توفر له فرصة التأليف أو الكتابة في موضوعات تستحق البحث والدرس وتحتاج إلى وقت طويل من التريث والتفكير ، بالإضافة إلى العمل السياسي الحركي وخاصة في فترة وجوده بجنيف ، وهو ما

يجعله اقرب إلى التعامل اليومي مع الناس دون التعامل مع الكتب والمراجع والدراسات .

- ٢ -

ولد على الغاياتي في مدينة دمياط سنة ١٨٨٥م، ونشأ في أسرة دينية وبيئة عريقة في شئون الدين ، ودخل الكتّاب في سن السادسة ، وحفظ القرآن الكريم في الثامنة ، ثم أرسله أبوه إلى المعهد الديني وكان مقره جامع البحر بدمياط ؛ ليتلقى علوم الدين وأصول اللغة والبلاغة . وتجمعت لديه خيوط رقيقة مما يقرا في الصحف والمجلات من آراء حديثة وصلت إلى أعماق نفسه . وقد تأثر بدعوة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده التي كانت ترى ضرورة ارتباط البلاد الإسلامية في أمة واحدة لمواجهة الفرقة والسوء والتدهور ، ومقاومة الاستعمار ، وقد أحدثت فتاوى محمد عبده التي حاولت التوفيق بين الدين الحنيف ومقتضيات العصر الحديث تأثيرا كبيرا في نفس الغاياتي الذي عكف على قراءتها ودراستها بإمعان ودافع عنها ونشرها بين الطلاب مما أوقعه في خصومة مع بعض أساتذته وزملائه الطلاب انتهت بطرده من المعهد ومنعه من تلقي الدروس في حلقاته .

خرج الغاياتي من المعهد ليشتغل بإحدى المدارس لابتدائية الخاصة ، وكان يدرّس مبادئ القراءة وبعض آيات الذكر الحكيم ومحفوظات خفيفة من الشعر منها :

أطع الإله كما أمر   واملأ فؤادك بالحذر
والدين لا تلعب به   لعب الصوالج بالأكر
حافظ عليه فإنه   نعم السعادة تدخر

رحل الغاياتي من دمياط إلى القاهرة في أبريل عام ١٩٠٧ وكان في الثانية والعشرين من العمر ، وهناك التقى بعدد من الأدباء وعلماء الأزهر الذين قدروا موهبته ، وكان من بينهم الشاعر خليل مطران (١٨٧٢-١٩٤٩م) الذي ألحقه للعمل معه بصحيفة " الجوائب " التي كان يصدرها . ونشر الغاياتي شعره في صحف "الوطن"، و"المؤيّد"، و"الدستور"، ثم في جرائد الحزب الوطني مثل"اللواء"، و"العلم" ، وبعد شهر وأكثر من عمله في الجوائب ؛ تعرض الغاياتي لمحنة بسبب وقوفه ضد الخرافات والبدع مثل التوسل بالأولياء والتمسح بالأضرحة وطلب شفاء المرضى ، وقد اشتد أثر هذه الفتنة بدخول بعض العوام ومناصرتهم لبعض المشايخ ، ومع التحريض رفع أمر الفتنة إلى الخديو ، وانتهى أمرها بمنع الرجل من التدريس وقطع راتبه وجرايته سنة كاملة يقدم شيخ علماء دمياط بعدها شهادة بحسن سيره.كما دبرت له مكيدة ليجند في الجيش ، مع أنه قد أعفي من التجنيد لطلب العلم ، وقد قضى اثني عشر يوما في معسكر العباسية ، وقد نظم فيها قصيدة عينية حارة ، منها :

راموا دخولي الجيش لما أبصروا   ضربي وطعني باليراع المشرع
فدخلته مستبسلا حينا وعدت   كما ذهبت بعزتي وترفعي
والآن لا أرجو سوى أن يعلموا   أن الهدى كانت حقيقته معي
والله يغفر ما جنوه بجهلهم   أو يقمع النفس التي لم تقمع

ويبدو أن الغاياتي استغل فترة احتجازه في المعسكر ليدعو إلى أفكاره ويهاجم معارضيه عن طريق الخطابة وإلقاء الشعر ، ووجد استجابة لدى الجنود والضباط ، فأسرعت القيادة إلى إطلاق سراحه .
كانت الصحافة هي المهنة التي تتفق مع ميوله الثورية ، والطريق الذي يتيح له نشر أفكاره وآرائه ، وقد وجد في صحيفة اللواء التي يصدرها الحزب الوطني وتعبر عن مبادئ الزعيم مصطفى كامل وفي مقدمتها تحقيق الاستقلال في ظل السيادة التركية فرصة ملائمة تناسب توجهه الفكري فكان من كتابها وشعرائها.
وقد تأثر الغاياتي بمصطفى كامل وأفكاره تأثرا كبيرا وخاصة ما يتعلق ببث روح الوطنية الصحيحة والشهامة والاحترام في الأمة من أجل الوحدة واتحاد الغايات والمقاصد لإرغام بريطانيا على الجلاء والحصول على الاستقلال .
كانت صيحات مصطفى كامل بمثابة معالم الطريق التي رسمت للغاياتي ما تناوله في شعره ونشره في صحف الحزب وصحف أخرى ، وقد انضم إلي الحزب الوطني الأعلى صوتا في تلك الفترة ضد الاحتلال والحكم . وراح ينشر قصائده الملتهبة هجوما على الغزاة وأبواقهم ، وهاجم أمير الشعراء أحمد شوقي لأنه صرح بلسان الخديوي أن إعلان الدستور غير ممكن إلا بإذن من الإنجليز ، كما هاجم رجال الإعلام والموالين للاحتلال . وأيد في شعره وكتاباته كل عمل ثائر في مصر وخارجها ، من أجل إجلاء الإنجليز ، والأخذ بالدستور ، وإصلاح الحكم، والضرب علي يد الفساد ، ونشر التعليم ، وامتدح بقصائده قادة الحركة الوطنية مثل مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، والشيخ عبد العزيز جاويش الذي منحته الحركة الوطنية وسام الشعب الذي اكتتب المصريون بثمنه وقلدوه إياه عند خروجه من السجن . وكتب قصيدة نارية وقف فيها مع إضراب طلبة الأزهر وتحقيق مطالبهم ، وحين صدر قانون المطبوعات المقيد للحريات أنشأ قصيدة جاء فيها :
لئن قيدوا مني اليراع وأوثقوا لساني   فقلبي كيفما شئت ينطق
وفي عام ١٩١٠ قام الرئيس الأمريكي السابق تيودور روزفلت بزيارة لمصر أشاد خلالها بالاحتلال البريطاني ، فهاجمه الغاياتي بعنف . وقد أخرج قصائده التي حملت مشاعره النارية الملتهبة ومشاعر البلاد بالنسبة للأحداث السياسية في تلك الفترة الصعبة في ديوانه " وطنيتي " ، وكان هذا الديوان سببا في الحكم عليه بالسجن ، وهو ما اضطره إلى الهروب إلى خارج مصر (راجع - محمد طاهر الجبلاوي ، خمسة من شعراء الوطنية ، ص ٢٧٨- ٢٨٧ ، وديوانه : وطنيتي ، دراسة وتحقيق : أحمد حسين الطماوي ، ط ٤ ، مكتبة جزيرة الورد ، القاهرة ، ٢٠١٠م) .
***
يحكي الغاياتي قصة هروبه في " منبر الشرق " تحت عنوان " ركن الذكريات " عام ١٩٥٢، ويوضح كيف ساعده ضابط تركي على الهروب إلى الآستانة (استانبول) ، وقد اضطر الغاياتي إلى التنكر في زي إفرنجي بعد أن كان يرتدى الزى الأزهري ، ووصل إلى الآستانة ظهر يوم الاثنين الثاني عشر من يوليو ١٩١٠م.
في الآستانة تولى الغاياتي تحرير مجلة " دار الخلافة " ، واستعاد فيها قوته ، وأخذ ينشر مقالاته وقصائده ومنها قصيدته (مصر ودار السعادة) ومطلعها يقول :

دار السعادة هل أتاك مخبر يشكو لديك شقاء مصر وينشر
النيل من حمر المدامع فائض والوجد في أحشائه يتسعر

ومنها :

يا أهل مصر قفوا وصيحوا صيحة دوى لها جو البلاد الأغبر
واقضوا بحد السيف حقا ناله من مصر ذاك الطامع المستعمر

عرف الغاياتي في الآستانة عددا من كبار العرب والشرقيين المقيمين بها منهم الشيخ سليمان الباروني والسيد محمد رشيد رضا والسيد عبد الحميد الزهراوي وعزيز المصري والزعيم محمد فريد الذي حكم عليه بالسجن بسبب ديوانه وطنيتي ، فقد كان الرجل في الآستانة عائدا إلى مصر من أوربة ليقدم نفسه للعدالة ، وعرض عليه الغاياتي العودة معه فلم يقبل فريد ، لأن عودته تزيد عدد المسجونين واحدا ، فخصه بقصيدة كان ينوي نشرها في مجلة (صراط مستقيم) يقول فيها :

ولست أرى سجن الكرام مهانة ولكنه للمجد والحمد جامع ..!
فإن سجنوا (عبد العزيز) فإنه له بين حبات القلوب مرابع
وراموا (فريدا)مثله وترقبوا لقاه ، وفي هذا اللقاء مصارع
إذا كنت بالتأليف أصبحت جانيا وسجني عاما فيه للحر قامع..!
فما كان تقريظ الكتاب جناية ولكن أعداء البلاد تخادع ..!

والمقصود بعبد العزيز في الأبيات الشيخ "عبد العزيز جاويش " الذي سجن بسبب كتابته المقدمة الثانية لديوان " وطنيتي " ، وفريد هو "محمد فريد " خليفة الزعيم مصطفى كامل الذي كتب المقدمة الأولى .

تعرف الغاياتي على شاب أوربي يقيم في الآستانة فأعطاه بعض الدروس في اللغة الفرنسية التي استهوته موسيقاها وإن لم يفهم معناها ، وأخذ يتمرّن عليها بقراءة اللافتات وأسماء المحال العامة المكتوبة بالفرنسية ، وكان قد عقد العزم على السفر إلى جنيف ، إذ كان يعرف أنها تأوي الأحرار والمضطهدين في ديارهم من قبل المستعمرين . وقد وصلها مساء السبت الموافق الثالث من ديسمبر ١٩١٠.

كانت حياته في جنيف صعبة في بدايتها وخاصة ما يتعلق بلقمة العيش ، ولكنه تعرف إلى بعض المصريين الوافدين للدراسة في جامعتها ، وبدا يهتم بتدريس اللغة العربية لمن يرغب بإذن من إدارة المعارف بمقاطعة جنيف . فدرّس في بعض المدارس وأعطى دروسا لبعض الطلبة المصريين والعرب مما وفر له نحو مائتي فرنك أو أكثر ، وعن طريق بعض معارفه تزوج فتاة سويسرية ، وتطلع لمواصلة تعلم الفرنسية ليواصل دراسته الجامعية ، وقد عاونته زوجه في هذا المجال وكانت طالبة بالجامعة ولكنه بعد ثلاث سنوات من الدراسة والجهد لم يتقدم للامتحان لعدم قدرته المالية على دفع المصروفات ، وذلك بسبب التزاماته الأسرية وقلة الموارد التي فرضتها الحرب العالمية الأولى وسفر كثير من الطلاب إلى بلادهم ، فضلا عن غلاء المعيشة .

وقد أدركته عناية الله فأخذ يترجم بعض الأنباء لبعض الصحف المحلية ويكتب بعض المقالات في شئون الشرق والإسلام بأجر ، بدأ بالسطر ثم بالقطعة ثم بالشهر ، واستطاع أن يكتب في صحف جنيف المعروفة . بيد أن هذه الصحف انكمشت عقب

الحرب العالمية الأولى ، واندلاع ثورة ١٩١٩م في مصر فقام الرجل بالدفاع عن بلاده ضد الغزاة الإنجليز ، وقام بتأسيس جريدته " منبر الشرق " ليقول فيها ما يشاء دفاعا عن حقوق الشرق الناهض والعالم الإسلامي في مقر عصبة الأمم ؛ الهيئة الدولية التي يجتمع فيها ساسة العالم ، وكان يطبع ثلاث صفحات منها بالفرنسية وصفحة واحدة بالعربية اضطر إلى الاستغناء عنها لصعوبة الطبع بالحرف العربي .وقد نشر في أول أعدادها قصيدة في " سعد زغلول " حينما كان اسمه في أوربة يعني اسم مصر المتحدة المجاهدة ؛ لا الحزبية ولا الأنانية ، وجاء فيها :

نظموا فيك أيها العلم　　　دررا قيل إنها كلم
وهي عندي أجل جوهرة　　　جملت تاج مصر لو علموا
بك يا سعد هام شاعرهم　　　مثلما هام النيل والهرم
أجمع الشعب في محبته　　　لك يا سعد رغم من وهموا

واستمرت الصحيفة منتظمة في الصدور منذ عام ١٩٢٢ في ظروف بالغة الصعوبة ، تدافع عن مصر والدول الشرقية حتى تم قبول مصر عضوا في عصبة الأمم عام ١٩٣٧ ، وهو العام الذي رجع فيه الغاياتي إلي مصر ، بعد أن حقق نجاحا عظيما في خدمة الإسلام والمسلمين والوطن .

كان وجود الغاياتي في العمل الصحفي بجنيف مفيدا لقضايا الأمة الإسلامية على أكثر من مستوى ، فقد قام بالدعوة الإعلامية والسياسية للمؤتمر السوري الفلسطيني الذي انعقد عام ١٩٢١ بمبني البلدية في جنيف وحضرته شخصيات مهمة منها : ميشيل لطف الله ورشيد رضا وشكيب أرسلان وإحسان الجابري ورياض الصلح وتوفيق اليازجي ..

كما أعد للمؤتمر الإسلامي الأوربي الذي انعقد بفندق فيكتوريا بجنيف في سبتمبر ١٩٣٥ وهو أول مؤتمر إسلامي يعقد في أوربة ورأسه الأمير شكيب أرسلان . كما بذل الغاياتي جهدا كبيرا في المفاوضات الخاصة بإنهاء الامتيازات في مونتروه عام ١٩٣٧ ، وهو الجهد نفسه الذي بذله لانضمام مصر إلى عصبة الأمم وتكلل بالنجاح ، مما دعا رئيس الوفد المصري مصطفى النحاس أن يطلب من الشيخ الغاياتي أن يعجل بالعودة إلى الوطن وأن يضعه في منصب من أكبر مناصب وزارة الخارجية ، وهو وعد لم يتحقق .

***

واصل الغاياتي إصدار صحيفته " منبر الشرق " بالعربية من القاهرة في ظل ظروف صعبة وإمكانات محدودة .وأخرج العدد الأول في السادس من مايو سنة ١٩٣٨ ، وجاء في افتتاحيته :

" ها نحن أولاء ننزل الميدان فرحين مستبشرين ، وها هو ذا (منبر الشرق) يظهر في القاهرة بعد جنيف ، وبالعربية بعد الفرنسية ن وكتب على رأسه أنه جريدة مصرية مستقلة ، فهو إذن سيكون بعيدا كل البعد عن الحزبية والأحزاب، وستكون مصر الخالدة وحدها هنا كما كانت هناك شغله الشاغل ، كما سيتابع العناية بشئون العرب والشرق والإسلام ".

وناشد الغاياتي زعماء مصر آنئذ أن يتقوا الله في شعبها المسكين ، وأن يعملوا بجد وإخلاص على إنقاذه من الفواجع والآلام قبل أن يحاسبهم حسابا عسيرا ولا يجدون وليا ولا نصيرا :

وما الشعب إلا صارم جاد صقله   وكل سيجني ما هو صانع
فلا بقيت في جانب النيل أمة   إذا بقيت في النيل تلك الفواجع

ويلاحظ أنه كان حريصا على استقلال جريدته ، وعدم تأثرها بأية مؤثرات تطعن في صدقها ونزاهتها ، وقد أكد في حديث مع " فؤاد سراج الدين " وزير الداخلية مساء ١٨ من مايو ١٩٤٤ ضرورة قطع إعانة وزارة الداخلية عن الجريدة ؛ لأنه يرغب رغبة أكيدة في أن تكون منبر الشرق صحيفة للرأي الحر مائة في المائة مهما كانت الظروف . وقد كان سعيه للاستقلال سببا في تعرضه للتضييق والعنف من جانب الحكومات الحزبية ، ولكنه كان يواجه ذلك بكثير من الصبر والصدر الرحب والإيمان القوي ، وبصفة عامة فقد آثر الجانب الوطني مع القليل من الرزق أسوة بالرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – حين قال : رب أحيني مسكينا ، وأمتني مسكينا ، واحشرني في زمرة المساكين ! (راجع : مختار الوكيل ، خمسة من شعراء الوطنية ، ص ٣٠١ – ٣٢٧) .

- ٣ -

كان ديوان " وطنيتي " لعلى الغاياتي مصدر شهرته واهتمام الرأي العام في مصر به ، وقد صدر في ظروف كان فيها قانون المطبوعات يمثل أداة قمع لا تعرف الرحمة ضد الصحف والشعراء والكتاب والخطباء الذين يتناولون دولة الاحتلال أو حكومة الاستبداد المصرية التابعة لها ، وقد صدر أول قانون للمطبوعات في مصر في ٢٦ نوفمبر ١٨٨١م، في عهد الخديو" توفيق"، لكن هذا القانون لم يتم العمل به حتى اشتد ساعد الحركة الوطنية بعد حادثة دنشواي وحالة الغضب المكتوم التي اجتاحت الرأي العام المصري علي هذه البشاعة التي تمت بها محاكمة دنشواي، لذا طلب الإنجليز من حكومة "بطرس غالي" (١٨٤٦ـ١٩١٠م) ، ضرورة عودة قانون المطبوعات مرة أخري، فأصدر مجلس الوزراء في ٢٥ مارس ١٩٠٩م قرارا بإعادة العمل بقانون المطبوعات الصادر في عهد الخديو "توفيق"، وكان الهدف منه مراقبة الصحف، ومصادرتها، وإغلاقها إذا اقتضي الأمر، وكان هذا القانون لوضع القيود علي الأقلام ، ويلاحظ أن وزارة بطرس غالي باشا نيروز قدمت تنازلات كبيرة للاحتلال ، وفرطت في كرامة المصريين ، ووضعت أول لبنه في تقسيم السودان ، وهو ما دفع شابا وطنيا إلى اغتياله .

وقد حاول الشعراء والكتاب الالتفاف على قانون المطبوعات القديم والجديد ؛ ليمرروا أفكارهم وتصوراتهم إلى الناس دفاعا عن حرية مصر ، وسعيا لاستقلالها عن المحتل الإنجليزي . من ذلك مثلا ما فعله الشاعر " حافظ إبراهيم "عندما كتب قصيدته الشهيرة "عمر بن الخطاب " التي اشتهرت باسم العمرية ، وهي قصيدة طويلة ألقاها الشاعر بمدرج كلية الآداب في الجامعة المصرية بدرب الجماميز ، وعبر فيها عن الدعوة إلى الحرية والعدل والمساواة والكرامة والحكم الرشيد من

خلال شخصية الخليفة عمر التي بهرت العالم في زمانه ،ومواقفه العديدة منذ جاهليته حتى وفاته خليفة للمسلمين ، وإن كان حافظ يبدأ القصيد بمصرع عمر الذي أثار حزن الأمة كلها ، ويعتذر عن عدم قدرته على توفيه الفاروق حقه ، ويدعو على قاتله الذي طعنه في خاصرته منتقما من الحنيفية فأصبحت دولة الإسلام في خطر تشكو الوجيعة بعد فقدان الطبيب وهو الفاروق :

مضى و خلّفها كالطود راسخة و زان بالعدل و التقوى مغانيها
تنبو المعاول عنها و هي قائمة و الهادمون كثير في نواحيها
حتى إذا ما تولاها مهدمها صاح الزوال بها فاندك عاليها

وبعد أوصاف لدولة الإسلام في عهد عمر يعود إلى إسلام عمر ، وكيف كان إسلامه داعما فقرت بصحبته الحنيفة وحققت أمانيها ، ويركز حافظ في القصيدة على فكرة الشورى وتأثيرها في الدولة وأهميتها للمسلمين ، وكأنه يشير إلى دولة الاستبداد القائمة في مصر ، فيخاطب عمر :

يا رافعا راية الشورى و حارسها جزاك ربك خيرا عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها و للمنـيـة آلام تعـانيـها

تسهب القصيدة في تقديم مواقف عمر وأخلاقه وصفاته وعلاقاته مع الصحابة وغيرهم ، ورجوعه إلى الحق ، وإنفاذه للعدل ولو كان على ابنه ، حتى يصل إلى الخاتمة :

هذي مناقبه في عهد دولته للشاهدين و للأعقـاب أحكيـها
في كل واحدة منهن نابلة من الطبائع تغذو نفس واعـيها
لعل في أمة الإسلام نابتة تجلو لحاضرها مـرآة ماضيـها
حتى ترى بعض ما شادت أوائلها من الصروح و ما عاناه بانيها
وحسبها أن ترى ما كان من عمر حتى ينبه منها عين غافـيها

بهذه الطريقة استطاع حافظ إبراهيم أن يتجاوز قانون المطبوعات ، ويلتف عليه ويقول ما في نفسه ، ويخاطب الشعب بما يريد دون أن يقع تحت طائلة هذا القانون وذراعه الباطشة بالعسف والجور والأذى ويتناقل الناس القصيدة مشافهة أو عبر كتابتها في أوراق من خلال الذاكرة .

بيد أن الغاياتي لم يفعل ما فعله حافظ وغيره ، وفضل أن يواجه الاحتلال والاستبداد مباشرة ، فكتب ديوانه " وطنيتي " الذي يضم قصائده الثائرة ، ويصدره بمقدمتين الأولي للزعيم محمد فريد(١٨٦٨-١٩١٩م) ، والثانية للشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٦-١٩٢٩م) .

كتب محمد فريد في مقدمته لديوان وطنيتي يقول :

" الشعر من أفضل المؤثرات في إيقاظ الأمم من سباتها وبث روح الحياة فيها ، كما أنه من المشجعات على القتال وبث حب الإقدام والمخاطرة بالنفس في الحروب ولذلك تجد الأشعار الحماسية في قديم الزمان شائعة لدى العرب وغيرهم من الأمم المجيدة كالرومان واليونان وغيرهما " .

ويشير فريد إلى أنشودة المارسيلييز الفرنسية التي كانت من أقوى أسباب انتصار فرنسا على ملوك أوربة الذين تألبوا لإخماد روح الحرية فيها ، ويتطرق إلى أهمية

الأناشيد والأغاني الوطنية في تربية الأطفال والشعوب ، ثم يحمل على الأغاني السخيفة وقصائد المدح الفارغ للحكام والأمراء والوزراء ، وابتعاد الشعراء عن كل ما يربي النفوس ويغرس فيها حب الحرية والاستقلال ، ويعزو ذلك إلى الاستبداد ، وهو ما جعل خطب الجمعة تخلو من موضوعات الحياة وتكتفي بالتزهيد في الدنيا والحض على الكسل وانتظار الرزق بلا سعي ولا عمل .
ويشيد محمد فريد بالنهضة المباركة التي عرفتها مصر وجعلت الشعراء يتركون نظم قصائد المديح للأمراء والحكام وينصرفون إلى وضع الأشعار الوطنية ووصف الشئون السياسية التي تشغل الرأي العام " وقد لاحت وطنيتي في طليعة هذه النهضة الميمونة الرشيدة " .
ويضيف فريد إلى ذلك التعبير عن سروره لأن شعراء الأرياف وضعوا عدة أغان وأناشيد في مسألة دنشواي وما نشأ عنها ، وفي مصطفى كامل رحمه الله ومجهوداته الوطنية ، وفي موضوع قناة السويس ورفض الجمعية العمومية لمشروعاتها .. ويدعو في ختام مقدمته إلى استعمال المواهب الربانية العالية في خدمة الأمة وتربيتها " بدل أن يصرفوها في خدمة الأغنياء وتملق الأمراء والتقرب من الوزراء ، فالحكام زائلون والأمة باقية " ٠ وطنيتي : تحقيق الطماوي ، ص ٥٥ – ٥٦) .
وواضح أن محمد فريد مع انشغاله بالسياسة ومشكلاتها إلا أنه كان واعيا بأهمية فن الشعر في إنهاض الأمة وتحريكها إلى اليقظة والتطور ، ولذا كانت نظرته إلى قيمة المارسيلييز ، وتأثيره على الفرنسيين نظرة واعية ثاقبة ، وسنرى الشيخ الغاياتي يترجم الأنشودة كاملة في مقدمة ديوانه في طبعاته التالية إيمانا منه أن قيمة هذا النشيد مرادفة لقيمة الحرية .
ولا ريب أن نظرة محمد فريد لطبيعة دور الشعر تؤكد على نظرة نقدية متقدمة في زمنه ، مع أنه غير متخصص في نقد الشعر ، وهي النظرة التي حكمت مقدمة عبد العزيز جاويش بصورة ما ، فقد تحدث عن طبيعة الشعر الذي يتجاوز الأوزان والتفاعيل والعجمة المتفشية والذوق السقيم إلى امتلاك القلب ورؤية آثار الانفعالات النفسية بنفس واضعه ، ويستشهد بإجابة لأرطأة بن سهل حين سأله عبد الملك بن مروان : كيف أنت الآن في شعرك ؟
فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أطرب ولا أغضب ولا أرغب ولا أرهب ، وما يكون الشعر إلا من نتائج هذه الأربعة .
ويختم جاويش تقريظه لديوان الغاياتي بالقول :
" ومن شاء أن يرى نموذجا من الشعر جمع بين رقة الألفاظ وجزالة المعاني بين إحكام التأليف وصدق العبارة فليقرأ شيئا من " وطنيتي " ، ومن شاء فليسأل عن آثارها تلك الهمم الناهضة والنفوس المتوقدة والعزائم الصادقة فإنها من غراسها وجميل ثمارها ؟ " (وطنيتي ، ص٥٧ – ٥٩) .
بالطبع لم يتطرق أي من الرجلين محمد فريد وعبد العزيز جاويش إلى النواحي الفنية التطبيقية في شعر الغاياتي ، واكتفيا بالكلام المجمل حول طبيعة الشعر الجيد أو المطبوع وتأثيره في المجتمع ، مع الثناء على الغاياتي وشعره بصفة عامة ، لأنه يحقق أهداف الأمة في الحرية والنهضة ومقاومة الاستعمار والاستبداد ، وهو ما

أفادت منه الحكومة المستبدة الموالية للاستعمار في تقديم الرجلين مع الشاعر والشيخ"محمد حسن القز ويني" المحرر بجريدة"العلم"، و"إلياس" أفندي صاحب المطبعة إلى القضاء للنيل منهم ، وخاصة فريد وجاويش ، وهما من هما في الحركة الوطنية المقاومة للاحتلال والاستبداد ، فمحمد فريد هو خليفة الزعيم الوطني الشهير مصفى كامل الذي استطاع أن ينقل القضية المصرية إلى المحافل الدولية ، ويفيد من قضية دنشواي إلى أبعد مدى ، وهو الذي لا يكف الليل والنهار عن مطالبة الإنجليز بالجلاء والحصول على الاستقلال . أما جاويش فهو من كبار الخطباء في الحزب الوطني ، ومن أعلام الصحافة الذين يوجهون مدفعيتهم الثقيلة (الكلمة) إلى حصون الاحتلال والحكم المستبد ، فألهب المشاعر الوطنية عندما تولي تحرير"اللواء"، و"العلم"، وقد سبق حبسه ثلاثة أشهر بسبب مقال في "ذكري دنشواي" في العام ١٩٠٩م.

وبعد صدور الديوان ونشره على الناس ، قامت الحكومة المصرية بمصادرة الديوان عام ١٩١٠، وتقديم الشاعر وكاتبي المقدمتين إلى المحكمة التي حكمت علي الغاياتي بالسجن لمدة سنة، وعلي الزعيم محمد فريد بستة أشهر، وعلي عبد العزيز جاويش بثلاثة أشهر، وقد نفذ الحكم في فريد وجاويش بينما استطاع الغاياتي أن يهرب إلي الخارج ليقيم في تركيا ثم في سويسرا حتى عام ١٩٣٧ .

كان صدور الديوان فرصة ذهبية للاحتلال والحكومة المصرية للانتقام من محمد فريد وعبد العزيز جاويش اللذين يمثلان الحزب الوطني وسياسة الزعيم مصطفى كامل الذي أقض مضاجع الاحتلال والحكومة المستبدة ، وكان سجن فريد وجاويش فرصة لعرقلة الحركة الوطنية وإيقاف تقدمها بالإيقاع باثنين من أهم زعمائها وإدخالهما السجن .

لقد أعدت عرائض الدعوي وجهزت التهم ،واستعدت المحكمة التي تكونت برئاسة محمد مجدي بك وعضوية علي ذو الفقار بك ومسيو سودان، ورأس النيابة توفيق نسيم، أما هيئة الدفاع عن المتهمين فتكونت من كل من أحمد بك لطفي ومحمد بك أبو شادي وعبد السلام ذهني.

كانت تهمة الغاياتي القذف في حق الوزراء والمحاكم والحض علي كراهية الحكومة، وتهمة فريد وجاويش تحريض الغاياتي علي الكتابة في تلك الموضوعات.

***

- ٤ -

بدأت قصة محاكمة الديوان المثير حين قدم الشيخ على الغاياتي نسخة هدية منه إلي الشيخ "علي يوسف"(١٨٦٣-١٩١٣م) رئيس حزب " الإصلاح علي المبادئ الدستورية" ، وكان بينه وبين الحزب الوطني بزعامة " محمد فريد " خلافات سياسية، وكان الشيخ "يوسف" علي ولائه للخديو، أما "محمد فريد" فقد نبذ الخديو، ونحاه ، فوجد" على يوسف" في ديوان "الغاياتي" فرصة ذهبية للانتقام من الحزب الوطني ومحمد فريد وعلى يوسف ، فكتب مقالا مطولا في "المؤيد" بتاريخ ١٩١٠/٧/٤م ، هاجم فيه ديوان "وطنيتي"، كان بمثابة عريضة اتهام يقدمها للنائب

العام ضد الشاعر الوطني لا مقالا أدبيا يعرض الفن الشعري أو يقرظ الديوان ، ومما جاء في هذا المقال / العريضة ما ذكره على يوسف من قول الشاعر :

يا ليت شعري هل رأيت كما أرى   أن (المؤيد) معهد الهفوات
فنشرت فيه ما نشرت وإنما   هي زلة من أكبر الزلات

" فاستوقفني هذا السباب الموجه إلى المؤيد هنيهة ، وقلت لعل حضرة الشيخ أراد أن يوجه لي هذا الكلام مشافهة بتقديم الكتاب كما فعل شاعر آخر له وطنيات لا تقل عن وطنية هذا الشيخ " ثم يستعيذ على يوسف من قانون المطبوعات والقوانين ويقتبس بعضا من شعره الذي ينال من الخديو عباس والاحتلال والحكومة ، وكأن استعاذته من قانون المطبوعات والقوانين الجديدة المقيدة للحريات تذكير لمن بيدهم الأمر أن يطبقوها على الشاعر الغاياتي .

ومن الأبيات التي ذكرها على يوسف للتحريض وفيها ذكر للخديو وغورست :

أعباس هذا آخر العهد بيننا   فلا تخش منا بعد ذاك عتاب

.....

رويدك يا عباس لا تبلغ المدى   ولا تستمع للظالمين خطابا
فما يبتغي (غورست) إلا مكيدة   تحول أقلام السلام حرابا ..
وها قد رمى حرية القول رمية   بسهمك تجني للبلاد خرابا

ومنها :

ألا أمطر الله الوزارة نقمة   ولا بلغت مما تروم مراما
تحاول أن تقضي علينا بإثمها   ولكن ستلقى دون ذاك آثاما
وزارة خداه أقامته بيننا   يد الحاكمين الآثمين فقاما

وقد استجابت سلطات الاحتلال الانجليزية والخديو والحكومة للتحريض السافر ، وبدأت المحاكمة (راجع : مختار الوكيل ، خمسة من شعراء الوطنية ، ص ٣٠٢ – ٣٠٤ ، وأنور الجندي ، عبد العزيز جاويش ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، سلسلة أعلام العرب ٤٤، القاهرة ، ١٩٦٥، ص٩٨ وما بعدها) .

وبعد وقت قصير تمت مصادرة جميع نسخ الديوان، وكان قد طبع منه ألفي نسخة، بيع منهم ستمائة وألف ، وكان ثمن النسخة قرشين، فارتفع إلي جنيه، وبتاريخ ١٩١٠/٧/١٠م، وقام القائم مقام (عقيد) "عطوفة محمد سعيد باشا" بنشر صورة الشيخ "علي الغاياتي" علي رجال البوليس السرّي لتساعدهم في البحث عنه وضبطه. وعلم "الغاياتي" بالأمر بالقبض عليه، فقصد أناسا استدان منهم مالاً للسفر، وقال لأهل المنزل: "قولوا للحكومة إذا سألت عني إنني قصدت دمياط"، بينما ركب القطار إلي الإسكندرية، وهرب على النحو الذي سبقت الإشارة إليه إلى الآستانة ومن ثم إلى جنيف .

لقد صدر الحكم يوم ١٩١٠/٨/٦م بمعاقبة الشيخ"الغاياتي" غيابياً بالحبس لمدة سنة مع الشغل، وبراءته من تهمة التحريض علي القتل، ومعاقبة الشيخ"جاويش" بالحبس لمدة ثلاثة أشهر حبساً بسيطاً، والباقين بالحبس لمدة شهرين مع إيقاف التنفيذ .

ثم تم استدعاء "محمد فريد" بعد عودته من أوروبا في الرابع من يناير١٩١١م ، وحقق معه "توفيق نسيم" (١٨٧١-١٩٢٩م) رئيس وزراء مصر فيما بعد، وقال

"فريد" للمحكمة :إنه كتب المقالة التي وضعت في كتاب "وطنيتي" وسافر بعدها إلي أوربا في ١٩١٠/٥/٥م ، وحكمت المحكمة بحبسه ستة أشهر مع النفاذ، وقد أرسل إليه الخديو في سجنه يعرض عليه الإفراج مقابل تعهده بعدم مهاجمة الإنجليز فأبي، حيث أدرك وقتها أن القضية ليست قضية شعر ديوان "وطنيتي"، أو تقدمته له ، وإنما الغرض تدمير الحزب الوطني وإسكاته عن مقاومة الانجليز.

سقط الحكم بالحبس الصادر ضد "الغاياتي" بمضي المدة ، فحضر إلى مصر في عام ١٩١٥م ليتابع أخبار الحرب العالمية في منطقة السويس ، لكن رئيس الوزراء "حسين رشدي " (١٨٦٣ـ١٩٢٨م) ارتاب في تصرفاته، واعتقل "الغاياتي" في سجن محرم بك، لعدة أيام ، وفور الإفراج عنه ركب السفينة وتوجه عائداً إلي جنيف، ليستقر هناك وينشئ جريدته " منبر الشرق " .

***

كانت الطبعة الأولى من ديوان " وطنيتي " عام ١٩١٠ وجاءت الطبعة الثانية عام ١٩٣٨ عقب عودة الغاياتي إلى مصر من جنيف ، والطبعة الثالثة كانت عام ١٩٤٧ . أما الطبعة الرابعة التي بين أيدينا فكانت عام ٢٠١٠م . وقام بنشرها أحمد حسين الطماوي ، وصدرها بدراسة حول الديوان وظروف نشره ومحاكمة صاحبه وموقفه من الحزب الوطني وقيمة شعره ، كما أشار إلى القصائد التي كتبها الغاياتي بعد " وطنيتي " ، وكان ينوي نشرها عقب عودته من جنيف في ديوان جديد تحت عنوان " هجرتي " ، وألحق الطماوي عددا منها مرتبا حسب تاريخ النشر . كما يتعرض لتحولات الغاياتي بالنسبة للقضية الوطنية ؛ فيراه قد بدأ في «وطنيتي» متحمسا للقضية الوطنية وشجاعا في الدفاع عنها نظرا لامتلاكه عاطفة جياشة ممتلئة يحب الوطن لكنه بعد هروبه إلى الخارج وجد نفسه في مكان غير المكان ، و تراكمت عليه الهموم والأحزان مما أثر علي شخصيته فبدأ يغير من مبادئه من أجل الحصول علي لقمة العيش ، وقد أحس في نفسه أن قادة الحزب الوطني قد غرروا به فراح يكيل لهم الهجاء، وفي المقابل راح يمدح الخديو عباس في قصيدة نشرها عام ١٩١٢ تحمل عنوان «عيد الكنانة» يقول في مطلعها :

مولاي عيدك للكنانة عيد   يحلو به للصادح التغريد
الله حسبك أيها المولي الذي   تعتز مصر بملكه وتسود
أعيادك الفيحاء غر مواسم   تتجدد الآمال حين تعود

وكان «الغاياتي» في قد نشر في ديوانه «وطنيتي» قصيدة ملتهبة يهجو سياسات الخديو عباس ، يقول فيها:

أعباس هذا آخر العهد بيننا   فلا تخش منا بعد ذاك عتابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة   ننال إذا رمنا الحياة عقابا
ونيأس من آمالنا فيك كلما   قضيت علينا أن نكون غضابا

كما نظم قصيدة يهجو فيها قادة الحزب الوطني الذين كان يمدحهم ويرى فيهم رسل التحرير والاستقلال ، فيصفهم بالقرود ، وينفي عنهم الوطنية والانتماء على مصر :

أبصرت بعد فراقهم – أن البلاد   تكاد مما يجرمون تميد
إن الحوادث أنبأتني أنكم   وإن اعتزيتم للرجال قرود

ترجون تحرير البلاد وأنتمو   حرب علي الإصلاح وهو وليد
لستم بني مصر ولكن عصبة   وجودكم أيام مصر سود

ويذهب الطماوي» إلى أن «مواقف الغاياتي تجاه الحزب الوطني وزعمائه تبدلت في هجرته، واختلفت معاييره، فبعد أن كان يجافي الحكام ، صار يتقرب منهم ويهفو إليهم طلبا للعفو والبر، راجيا أن يقبلوا اعتذاره، ولم يلتفت إليه أحد، فكأنه تنازل عن مواقفه السابقة دون مقابل» ،ولهذا فقد « أدرك الشيخ الغاياتي مدي الضرر الذي لحق به، جراء نشر هذه القصيدة، فلم يأت علي ذكرها ولو لمحا وهو يسرد ذكرياته عام ١٩٥٢ وحمد الله علي نسيان الناس لها، إذ كان قد مضي علي نشرها حوالي أربعين عاما» ، ولكن الطماوي أعاد نشر القصيدة كاملة في طبعته الرابعة لديوان " وطنيتي " ؛ بعد أن نشرها الغاياتي أول مرة عام ١٩١٢.

ومهما يكن من أمر ، فعلينا أن نضع في الحسبان أن الغاياتي شاعر مرهف الحس والشعور ، وكان يتصور وهو في غربته واضطرابه ؛ أن يتركز الاهتمام به من جانب الحزب الوطني الذي منحه شبابه وضحى من أجله ، ولكن أحوال البلاد شغلت الحزب والأصدقاء ، وكان الخديو في كل الظروف هو حاكم البلاد الذي يختلف الناس حوله ، فيرضون عنه أحيانا ويختلفون معه في أحيان أخرى ، وكانت هناك مصالحات ومخاصمات تنبئ عن تحولات دائمة ،ولكنها مألوفة ، ويبقى أن الغاياتي كان في بداياته وخواتيمه وطنيا مخلصا ، وإن اجتهد أحيانا في مواقفه بالخطأ أو الصواب ، فشعره يدل على إخلاصه وحماسته وحبه لدينه ووطنه وشعبه ، وهو ما نرى ملامحه من خلال أبياته التي كان فيها صدى لحركة الشعب المصري ومرآة لهمومه وآماله .

إن الشعر عند الغاياتي – كما يقول مختار الوكيل – قد جعل همه الأول وهدفه الأصيل إحياء الهمم وإشعال النفوس وإيقاظ العزائم ، فهو شعر (هادف) بأقوى وأصدق ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى (خمسة من شعراء الوطنية ، ص ٣٣٠) .

لقد تأسي الغاياتي في قصائده بالضابط الفرنسي (روجيه دي ليل) الذي هز ضمير الأمة الفرنسية بنشيده الشهير المارسيلييز ، الذي خصه باهتمام كبير تعريفا وترجمة في مقدمة ديوانه " وطنيتي " ، وقد اشتهر دي ليل أكثر من عباقرة شعراء فرنسا على قلة ما نظمه من الشعر !

يشير الغاياتي في مقدمة الديوان إلى أن رئيس الحزب الوطني أشار إلى المارسيلييز في كلمته ، ولذا رأى أن يتبعه بذكر أنشودتين جميلتين ومنظومتين وطنيتين ، أولاهما تلقن للأطفال بفرنسا والأخرى تهيج الشجون وتجري الشئون وتحبب إلى النفوس الجهاد حتى الممات في سبيل الوطن المفدى وهي لرجل فرنسا وشاعرها الكبير " فيكتور هوجو " ليكون ذلك نموذجا يراه شعراؤنا فينسجون على منواله ويربون الأمة من أطفالها إلى كهولها على حب الوطن وتمجيد الوطنيين بجميل أشعارهم وبديع أناشيدهم .

وقبل أن يورد ترجمة للمارسيلييز يقدم كلمة مسهبة عن الصراع الذي دار في فرنسا وعليها في أواخر القرن الثامن عشر على عهد لويس السادس عشر، ثم يقدم الترجمة

عقب إيراد النص الفرنسي ، وفي ختام النشيد تعبير واضح عن حب الوطن والحرية وضرورة النصر على الأعداء :
" أي – يا حب الوطن المقدس اشدد أزرنا وقوّ سواعدنا المنتقمة .
أيتها الحرية ، أيتها الحرية العزيزة ، حاربي مع المدافعين عنك .
وليسارع النصر تحت أعلامنا إلى إجابة ندائك العالي وصوتك القوي .
ولينظر أعداؤنا المندحرون انتصارك ومجدنا العظيم " .
ويشير مختار الوكيل إلى نقطة مهمة تتعلق بالغاياتي ، وهي أنه كان في عنفوان الشباب ، ينظم القصيد من حبات قلبه فيصدر صادقا صريحا ، معربا أصدق إعراب عن صراحته واستواء خلقه وطباعه ، وكان الشعر حينذاك يلقى في المحافل العامة ، والشاعر المجيد هو ذلك الذي يستطيع التأثير بإلقائه الفصيح وصوته القوي الجهوري وسمته وبزته وشخصيته جميعا (السابق ، ص٣٢٩) .
***

- ٥ -

وشعر الغاياتي منغمس في السياسة والوطنية من منظور إسلامي يربط الدين بالوطن ، ولذا يراه أحمد حسين الطماوي - محقق الديوان – من الشعر المتخصص ،بل يعده رائدا في مجال الشعر المتخصص، حيث شاعت في زمنه الدواوين المليئة بشعر الغزل والمدح والرثاء وغيرها من الأغراض الشعرية القديمة إلا أن «وطنيتي» جاء خاصا بشعر الوطنيات أو تغلب الوطنيات عليه حتى لو اشتمل على المديح والرثاء ، فمديح محمد فريد ورثاء مصطفى كامل من الشعر الوطني الذي يعبر في ديوانه بمستوياته الفنية المتفاوتة عن شاعر آثر الانخراط في مشكلات عصره، ولم ينعزل عنها، ليحلق بأحلامه الغامضة في الآفاق المترامية، ولم يجعل الشاعر فنه لا يراوح الفن ، وإنما رغب في أن يتحرك ويتواصل مع الناس.(راجع : دراسة المحقق ، ص ٣٨ ، ٤٣) .
وبصفة عامة فالديوان مع أنه ديوان سياسي فهو يعد صورة لعصره وانعكاساً لأحداثه لأنه يصور المشاهد الحية في الواقع السياسي ويدون تقلباته، وأصداء ذلك في النفوس، فالغاياتي بحديثه عن تطلع المصريين إلى الدستور ، ومصرع بطرس غالي ، وعزل السلطان عبد الحميد ، وإعدام الورداني ، ودنجرا ، وهتافه لنواب الشعب وهم يرفضون مشروع مد امتياز قناة السويس ، وهجاء روزفلت الذي خيب آمال المصريين ومهاجمة قانون المطبوعات المقيد لحرية الصحافة ، ورحلات محمد فريد إلى أوربة ودعايته لمصر ، وغير ذلك ؛ يسجل أحداث عصره ، ويدون معطيات السياسة التي عاشتها مصر أيامئذ (السابق ، ص٣٦) .
العاطفة الدينية لدى الغاياتي تبقى محركه الأساس في شعره السياسي والوطني ، بصفة عامة . بيد أنه خصص بعض شعره للتعبير عن هذه العاطفة من خلال بعض المناسبات الإسلامية ، ففي رحلته إلى الحج عام ١٩٤٧م ، كتب قصيدة بعنوان : " في رحاب النبي " يقول فيها :
أنا عاشق لمحمد ولآله وصحبه
وأحب ما في العيش عنـــــــــدي ساعة في قربه

سر الوجود هو الحبيــــــــــــب وقلبه من قلبه
نور على نور تجلى   من سماء محبه
فاخشع أمام بهائه   فبهاؤه من ربه
لبيته لما دعا   وإذا دعاك فلبه
فهو البشير لقومه   وهو الشفيع لحزبه
البر من آياته   وهدى الورى من دأبه
هو رحمة للكون طرا   شرقه أو غربه .....

وهذا الحب للنبي – صلى الله عليه وسلم – ينطلق من إيمان عميق بالله ورسوله ، وثقة في أن الله سبحانه هو الذي يملك كشف الغمة وإزالة العسر ، وهو أمر يتضح في شعر الغاياتي منذ بداياته أو شبابه ، حيث نراه يتوجه بأبيات يناجي فيها ربه من أجل وطنه رغبة في أن يتداركها بلطفه حتى لا تجري فيها الدماء :

رب إن البلاد أرهقها الظلـــــــــــــــــــم وحاقت بأهلها البأساء
رب إن الصدور أحرجها الوجــــــــــــــــــد وأودت بحملها الأرزاء
فتدارك لطفك النيل حتى   لا تجاري حياة مصر دماء

وإذا كان الشاعر يستغيث بربه من أجل وطنه فهو يشكو إليه ما يشعر به من ضيق ومن تقصير ، ويرى أنه هو الذي يملك الأرزاق ، ويقدر على العفو ، وهو في كل الأحوال يشكو منه إليه . يقول في قصيدة عنوانها : " إلى الله – حرية الشكوى بين العبد وربه " ، فيوجه خطابه إلى ربه قائلا :

خلقت العباد وأرزاقهم   فمنهم سعيد ومنهم شقي
وقد ساء حالي بين الورى   كأني يا رب لم اخلق
فإن أك عبدا فمن رازقي   وها أنا للآن لم أرزق

ويطرح الغاياتي شكواه في إطار جدلي ويطمع في عفو ربه وكرمه ويختم قصيدته بقوله :

وشكواي منك إليك وما   لعبدك غيرك من معتق

والطريف أنه يوقع القصيدة باسم عبد الله الشاكي (ع . غ) ، معبرا عن حاله البائسة اليائسة عندما كان في دمياط وطلب للقرعة العسكرية .

بيد أن الغاياتي عندما يتصدى للقضايا الوطنية ينسى أحواله الخاصة ويُنشد بمنتهى القوة معبرا عن وطنية تعتمد على الإيمان واليقين بانتصار وطنه ، ولذا نراه يواجه أعداء الوطن بمشاعره مباشرة كما نرى في بيتيه اللذين كتبهما ضد اللورد كرومر الذي ألف كتابا بعنوان " مصر الحديثة " عقب خروجه من مصر وقد حشاه طعنا وقذفا في مصر والمصريين والإسلام والمسلمين ، يتحدث على لسان كرومر قائلا:

خرجت من مصر مقهورا ومرذولا   وصح أني تركت القصر معزولا
فقمت غيظا وألفت " الكتاب " وفي   قلبي لهيب إذا ما أذكر النيلا

وتتجلى عاطفته الوطنية وهو يتناول زعماء الحزب الوطني بالمديح أو الرثاء ، ففي مدحة لمصطفي كامل يسبغ على الزعيم الوطني صفات القيادة والقوة واقتحام الصعاب وسلامة المنطق ، يقول في مطلعها :

اصدع بقولك إن أردت مقالا   فالقوم جندك إن دعوت رجالا

لم تدر مصر سوى حماك تؤمه فترى به آلامها آمالا
أقبل على الوطن العزيز بصارم لا تدرك الأعداء منه كلالا
وانشر به فوق الطروس حمية تحكي حمية صنوه إن صالا .....

يوم رثى الغاياتي مصطفى كامل ، كانت عاطفته متدفقة بحبه ، ومازجة بينه وبين مصر والنيل والشرق ، وفي ختام المرثية الطويلة يجعله فتى الشرق وخير أبناء البلاد وروح مصر الذي يفتديه بنفسه :

إنني أرثيك يا خير فتى عبس الشرق له وابتسما
وبودي لو فدتك النفس يا خير أبناء البلاد الأكرما
لك نفس لو يشاء الموت أن يدع الغنم ويرضى المغرما
حكم الله ولا حول ولا وله ما يرتضي أن يحكما
فنم الآن هنيئا بعدما عشت يقظان وعشنا نُوَّمَا
رحم الله صباك الغض يا روح مصر وحباك النعما

و عندما يتعلق الأمر بالاحتلال ومقاومة الإنجليز ، فإن نبرة الشاعر تشتد ، ويوجه وعيده إلى المحتلين الغزاة كما نرى في قصيدة " نحن والاحتلال " التي يصور فيها ما فعله الانجليز الغزاة بمصر ، ويتناول فيها أخلاق المحتلين ونقضهم هم للإيمان ، وبعثهم للجهل . يقول في مطلع القصيدة :

كفكفي يا مصرُ دمعَ الوَجَلِ وارتقبْ يا نيلُ نَيْلَ الأملِ
جاوزَ الصبرُ المدى، والصدرُ لم يُبقِ فيه الوجدُ من مُحْتَمَلِ
كم شقاء ! كم بلاء كم أذى ! أي حال بعد ذا لم يحل ؟
كل يوم حادث مستقبل ليت شعري ما حديث المقبل ؟

وبعد أن يستعرض الغاياتي حال مصر تحت الاحتلال ولؤم الإنجليز ، يوجه خطابه إلى الشعب المصري ليثير حميته داعيا المصريين إلى النهوض واليقظة لمواجهة الشر ودفعه بعيدا :

أيها الشعب أفق ولى الظلا م ولاح النور للمستبصر
فدع النوم وقف مستخبرا هل لمصر في الورى من خبر ؟
سائل التاريخ عنها إنه صادق الأخبار جم العبر

......

.....

فانهض اليوم ولا ترقب غدا وادفع الشر بسيف الحذر
إنما الآلام آمال وفي قدرة الشعب مدار القدر

والقصيدة من القصائد القليلة التي تنوعت فيها القافية .

ويلاحظ أن النيل يتردد كثيرا في ثنايا شعر الغاياتي بوصفه مرادفا لمصر والوطن وكثيرا ما يكون النيل تشخيصا للشعب المصري في سلمه وحربه وسعده وشقائه ، لدرجة أنه يقارن بين النيل في مصر والسين في فرنسا ، جاعلا من النهرين رمزين لوطنين الأول وهو النيل ينتحب والآخر وهو السين يضطرب . كان السين قد فاض عام ١٩١٠م فأغرق باريس وألحق بها الحزن والأسف العام ، أما النيل فكان يتعرض لاحتلال ظالم ونوائب لا حصر لها بسبب هذا الاحتلال ، وفي القصيدة إشادة

بباريس وما تمثله من حضارة وثقافة ، ولكنه في كل الأحوال لا ينسى وطنه الذي دهته النوائب ، وتأتي المقارنة بين النهرين منذ مطلع القصيدة :

ما لقلب السين يضطرب وأخوه النيل ينتحب ؟
بلغت باريس غايتها فتولى نهرها الطرب
ودهت مصر نوائبها فأصابت نيلها النوب
إن يغض فالوجد مستعر أو يفض فالدمع منسكب ...

***

إن شعر الغاياتي في مجموعه هو ابن عصره من الناحية الفنية ، فهو شعر الإنشاد ومواجهة الجمهور والتأثير فيه ، لذا لا نجد فيه صنعة دقيقة ، أو تعقيدا جماليا ، ولكنه شعر سهل سلس مباشر يعبر عن عاطفة صادقة ، يخاطب الناس بلغة بسيطة تتناول الأحداث التي تشغلهم والقضايا التي تهمهم في ذلك الحين .

لا نجد في شعر الغاياتي اهتماما بالصورة الفنية أو المحسنات البديعية اللهم إلآ بعض الصور التقليدية المألوفة ، واللعب على وتر المقابلات أو الطباقات ، مع ميل إلى موسيقى البحور المجزوءة ، وهناك بعض التنويع في القوافي كما سبقت الإشارة ..

هناك من يرى أن مشكلة الغاياتي أنه لم يحسب بين الشعراء ، لأنه لم يكن شاعرا عظيما ، ولا بين أعلام الصحافة ، أو النقد ، لكنه يحسب كروح عابرة ثائرة مرت على أحلام مصر وحلقت بها قليلا لأعلى . وهذا حكم قاس على الرجل ، فشعر الرجل يشبه من وجوه عديدة شعر كثير من معاصريه إن لم يتفوق عليهم ، أما العظمة أو الضعة فهي مسالة تقديرية بين النقاد وفقا لميولهم ورؤاهم ، وهي ليست معيارا لقيمة الشعر بصفة عامة ، فالقيمة للقصيدة ومدى ما تحمله من معطيات فنية وجمالية . ويكفي الرجل فخرا أن حكومة بأكملها مع إدارة الاحتلال ، كانا من وراء تقديمه إلي محاكمة تاريخية بسبب شعره هذا الذي ينفي عنه بعضهم العظمة ويقلل من قدره وقيمته .

***

وفاته :

عندما عاد الغاياتي إلي القاهرة كانت تصحبه زوجه السويسرية، وبناته الخمس وابنه، فأقام بعمارة في ميدان التحرير، وفي ٦/٥/١٩٣٨م ، أعاد إصدار"منبر الشرق" أسبوعياً باللغة العربية ، ورأى بلاده تنهض ويتحقق الجلاء عام ١٩٥٤ ، ويرحل الاحتلال الذي قاومه منذ صباه ،ثم تؤمم قناة السويس عام ١٩٥٦ وتعود ملكيتها خالصة إلى مصر .

كانت أمنيته أن يحج إلى بيت الله الحرام فأدى الفريضة عام ١٩٤٦ ، ثم أداها مرة أخرى عام ١٩٤٨ ، وعاش في الوطن عيشة لا بأس بها ، ويقول مختار الوكيل : إنه جعل من شرفة مسكنه حديقة مزهرة يفوح منها عبير الياسمين ، وكان يتعهدها بنفسه شخصيا ، كما كان يهوي الحمام الزاجل ، وجمع لفيفا من أجود أنواعه في شرفة

منزله ، وكان يعنى بإطلاقه وإعادته ، ويجد في هذا اللهو البريء لذة ومتعة ما بعدهما لذة ومتعة !
وتزوجت بناته من أسر طيبة وسعد بهن ، أما ابنه الوحيد فقد سبقه إلى دار الخلود وهو في ريعان الشباب . وقد توقفت منبر الشرق في منتصف أغسطس ١٩٥٦م ، وبعد أيام قليلة انتقل إلي رحمة مولاه في ١٩٥٦/٨/٢٧م بالقاهرة ودفن بها.
رحمه الله .
***

محمد فريد وجدي :
فريد عصره غير مدافع!

- ١ -

في مطالع القرن العشرين ، بدأ التفاعل مع الثقافة الغربية يأخذ مسارا واضحا لدي النخب الثقافية المصرية ، وصل ببعضهم إلى رفض الثقافة الإسلامية رفضا تاما ، وأغرق بعضهم في رفضة إلى درجة الخروج من الملة ، وكان إسماعيل أحمد أدهم (١٣٢٩ - ١٣٥٩ هـ = ١٩١١ - ١٩٤٠ م) الذي مات منتحرا نموذجا للمثقف المصري الذي فقد الدنيا والآخرة . لقد ألف كتابا بعنوان (لماذا أنا ملحد ؟) ونشره على الناس وقد حشاه بما يزعمه الطبيعيون من لغط حول المادة ، وبطلان السبب الأول ، والصدفة والاحتمال الفرضي ونحو ذلك ، وظن أنه قد ألزم مخالفيه الحجة وجاء بأنصع الدليل ، وقد تصدى له العلامة محمد فريد وجدي وكتب : لماذا أنا مسلم ؟ وهو بحث علمي مركز نشره بالمجلد الثامن من مجلة الأزهر فند فيه المقولات التي طرحها أدهم تفنيدا علميا موضوعيا هادئا ، ونسف كل ما أتي به من ادعاءات .
وينقل محمد رجب البيومي عن الأستاذ صديق شيبوب – رحمه الله – وكان صديقا لأدهم ، أنه ذكر له أن الدكتور أدهم جاءه ذات يوم ومعه مجلة الأزهر وهو يقول : " لقد أدهشني الأستاذ وجدي بمسلكه النقدي وأدبه الحواري ، حتى أوقعني في حيرة بيني وبين نفسي!"، لقد التمس لي العذر حين بحث عن أسباب الإلحاد في تربيتي العائلية ، بين أم مسيحية وأختين تكذبان الإنجيل ثم كرّ على أدلتي بأسلحة لا تعرف المهاترة ! فأنا حائر ما ذا أقول فيه ؟
(انظر : محمد رجب البيومي ، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ، دار القلم ، دمشق – الدار الشامية ، بيروت ، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م ، ١/ ١٠٥ وما بعدها) .
هذا الكلام يبين أن قوة الحجة لدى محمد فريد وجدي كانت حاسمة في الرد على أدهم وأمثاله من الماديين الذين تفرغ الرجل في كثير من كتاباته للرد عليهم ونسف ادعاءاتهم بالحكمة والأسلوب العف ، والحوار الهادئ .
ولا أدري ماذا كان سيفعل الرجل لوعاش في زماننا ورأى أن هؤلاء الماديين صارت لهم أحزاب وتجمعات ، ويجاهرون بعداوتهم للإسلام ، ولايتيحون لأحد فرصة الرد عليهم بعد أن ملكوا معظم المنابر ، بل إنهم لايتركون لعلماء الإسلام ودعاته والمشتغلين بالفكر الإسلامي حق مناقشتهم وتفنيد ادعاءاتهم ، فهم يلاحقونهم باتهام سخيف وهو التكفير مع أنهم هم الذين يسلبون علماء الدين ومفكريه حق الإيمان ويصفونهم بالمتأسلمين ؟
ترى هل كان منهج محمد فريد وجدي سيتغير ؟ لا أعلم ، ولكن المؤكد أنه كان سيرد بقوة الحجة العلمية والبرهان والدليل ، وفي أي منبر ولو كان هامشيا أو محدود التاثير ، فقد وهب الرجل حياته للدفاع عن الإسلام انطلاقا من إيمانه أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، وقد أهله لذلك تربيته ونشأته وتكوينه العلمي والثقافي .

***

ولد محمد فريد وجدي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر على اختلاف في تعيين سنة مولده ما بين ١٢٩٢هـ أو ١٢٩٥هـ = ١٨٧٥م أو ١٨٧٨م، وإلى التاريخ الأول ذهب الزركلي في كتابه "الأعلام" بينما يرجح الدكتور طه الحاجري التاريخ الآخر، ويذكر أنور الجندي أنه تلقى خطابا خاصا من المهندس محمد توفيق أحمد صاحب " البريد الإسلامي " أنه سمع منه شخصيا أنه ولد عام ١٨٦٩م (أنور الجندي ، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، هامش ص ٨٤).

وكان مولده بالإسكندرية لأسرة من أصل تركي اتسمت بالمحافظة وكان والده الذي وصل إلى وظيفة وكيل محافظة ؛ مهتما بالعلم ولديه مكتبة ضخمة في داره تضم العديد من الكتب في سائر مجالات المعرفة.

تلقى وجدي تعليمه بالمرحلة الابتدائية بالإسكندرية حيث تنقل بين ثلاث مدارس خاصة هي "مدرسة إسماعيل حقي" و"مدرسة حمزة قبطان" و"مدرسة مسيو فاليو"، وحينما انتقل والده للعمل بالقاهرة عام ١٣٠٩هـ = ١٨٩٢م، تابع وجدي دراسته حتى وصل إلى ما يعادل المرحلة الثانوية بالمدرسة التوفيقية بالقاهرة لكنه - لاختلاف طبيعة الدراسة فيها عما درسه بالإسكندرية - طلب من والده أن يترك المدرسة وأن ينصرف لتحصيل الدراسة بنفسه فوافق والده ، خاصة بعد أن انتقل إلى دمياط وكيلا للمحافظة ، وأحضر له بعض المدرسين ليأخذ حصصا في اللغة الإنجليزية ، وهنا انقطعت صلة وجدي بالدراسة النظامية مفضلا القراءة والاطلاع بعد أن قطع شوطا لا بأس به في دراسة اللغة الفرنسية. وقد دهش والده لما يسمعه منه ، ولكن عطفه عليه حمله على أن يصغي لوجهة نظره ، فقال الابن: إنه الآن يجيد الفرنسية على نحو يسمح له بقراءة كتبها المختلفة ، كما أنه يتقن دروس اللغة العربية بحيث تنشر الجرائد ما يرسله إليها ، واهمة أنه أستاذ كبير لجودة ما يكتب ! ورسالته في الحياة هي خدمة دينه ، والدفاع عن هذا الهجوم الكاسح الذي يقرأ أهواله في الكتب الفرنسية التي يطالعها ، وقد أخذ للأمر عدته ، فهو يقرأ صباح مساء دون عائق، وتتفتح أمامه أبواب من القول يجد نشاطا في نفسه لولوجها .

ترك الأب واسع الأفق ابنه على هواه ولم يقم الدنيا ويقعدها بسبب رغبة الابن الغريبة ، فقد أنس في ولده كفاءة تدل على نبوغ مرتقب ، وقدرة على المناقشة والفهم ، وكان يستشعر حرجا من هذه القدرة حين كان يأتي علماء المعهد الديني بدمياط الى ندوة أبيه الاسبوعية لطرح القضايا والموضوعات التي كان الابن يتدخل للمشاركة في مناقشتها ، مما كان يسبب حرجا للوالد ، فأمره أن يحضر مستمعا فقط .

كان الشاب محمد فريد وجدي ذا شكوك في بعض المسائل الدينية وكان يحاول أن يجد إجابة في مجلس أبيه الذي يحضره العلماء والأساتذة ، ولكن أباه صدّه ، فاعتمد على الله وقرأ وقرأ وقرأ حتى اهتدى إلى اليقين بعون الله . يقول :

".. أهم حادث وقع لي منذ كنت ناشئا ، وكان له أكبر الأثر فيما اتجهت إليه ، هو حادث الشك في العقيدة الذي أدي بي إلى الشك في كل شيء من العلوم الدينية وغيرها .

فقد كنت في سن السادسة عشرة طالبا في المدرسة التجهيزية ، وكان أبي مصطفى بك موظفا في الحكومة المصرية ،وحدث وقتئذ أن اختير وكيلا لمحافظة دمياط ، فكان لا بد من انتقالي مع عائلتي إلى هذه المدينة التي اشتهر أهلها بدماثة الأخلاق والتفقه في الدين .
وما زلنا مع أبي في هذه البلدة ، حت أخذ كبار أهلها وعلماؤها يفدون عليه للترحيب به ، فكان يجتمع في دارنا عدد كبير منهم ، وكانت تدور أثناء المجلس عدة مناقشات دينية ، وجدت فيها مجالا للبحث والتفكير ، غير أني كنت إذا ناقشت أحد العلماء في مسألة تتعلق بالكون أو الخالق أسرع إلى قفل باب المناقشة ، وأمرني ألا اخوض في المسائل الدينية ، أو أبدي فيها رأيا ، فكنت أمتعض من ذلك ، وأرى فيه حجرا على العقل بلا مسوغ ، وأخذت أبحث عن السبب الذي أدى بهم إلى هذا الجمود، وقلت في نفسي : لا بد أن يكون ما يدرسونه من الكتب عقيما ، ومن هنا تزلزلت عقيدتي ، وشرع الشك يتسرب إلى نفسي ، حتى صرت لا أرتاح إلى رأي واحد يتضمنه كتاب ، ولا أقتصر على فكرة معينة يجتهد بعض العلماء في إثباتها بما أوتي من قوة الحجة ، وسطوع البرهان ، وجعلت أتناول بالقراءة والدرس جميع الكتب الدينية والكونية والاجتماعية ، وسائر ما يتعلق منها بعلم النفس ،وأكببت على ذلك عدة سنين ، فاكتسبت علما غزيرا ، واتسع أمامي نطاق الحقيقة ، وجال نظري في الكائنات جولات أفادتني فيما أتناوله من البحث والدرس ، حتى صرت لا أقنع بفكرة دون أن أعنى بتمحيصها ودرسها ، معتمدا في ذلك على تجاربي الذهنية التي مرت بي طول السنين " .
ويرتب وجدي على ذلك القول :
" وقد أفادني هذا الشك استقلالا في الفكر ، واعتمادا على النفس ، ورغبة في استيعاب ما يقع بيدي من الكتب – على اختلاف أنواعها – بصبر وجلد ، حتى زال الشك عني ، وارتاحت نفسي إلى عقيدة من قراءاتي .
كما أفادني ذلك دقة في البحث ، وعناية بما أتناوله بالتمحيص دون أن أجد في ذلك مللا" (مجلة الهلال ، نوفمبر ١٩٢٩م).
كان لهذا الحادث أكبر الأثر في فكره حيث ، قذف به إلى مجال التأليف دفاعا عن الإسلام والتعريف به ، وبيان قيمه وفضائله وتشريعاته . لقد أصدر المؤلف تلو الآخر مبتدئا بكتاب ألفه وهو لم يتعد السادسة عشرة وأسماه "الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان" قدمه لكل من يمر بمثل تجربته التي تعرض لها مستدلا من القرآن والسنة وبأقوال علماء الطبيعة والكيمياء على وجود الله وعجائب صنعه. وقد راج الكتاب ونفدت نسخه في وقت قريب.
واصل بعدها وجدي نتاجه الفكري مرتئيا أن الغرب يروج لحملات الهجوم والتشويه على الإسلام فحاول مخاطبة الغرب وتوضيح ما وقعوا فيه من أخطاء خاصة بحقيقة الإسلام فكتب بالفرنسية كتاب "الإسلام والمدنية".
ولم يطل مقام وجدي بدمياط؛ إذ ما لبث أن انتقل إلى السويس بعد أن انتقل والده لوظيفة وكيل المحافظة بها وأقام بها ست سنوات عاد بعدها للقاهرة.

وتتسم هذه المرحلة بوضوح الفكرة ، وعذوبة الأسلوب ،والقدرة على الأداء في مجال الدراسات الروحية والدينية والإسلامية على نحو عصري ، يختلف اختلافا واضحا عما كان عليه أسلوب الكتاب في اللغة العربية في هذه المجالات . ولقد أفاد من طريقة الشيخ محمد عبده ومنهجه في فهم الإسلام ، وزاد أنه استطاع أن يستشهد بما يقف عليه من كتابات الغربيين لما يذهب إليه من وجود الخالق ، وفضل العرب والمسلمين على الحضارة الحديثة . وفي نهاية هذه المرحلة أخذ نفسه بعملين موسوعيين كانا علامة على طريقه فيما بعد ؛ ذلك هو كتابه " كنز العلوم واللغة " الذي أصدره عام ١٩٠٥وحشد فيه فنونا من عصارات الآداب والعلوم والفنون والفلسفات التي تضمنتها الموسوعات ، وأفاد من إعداده الموسوعات العربية القديمة ودائرة معارف " لاروس " ، ثم كتابه "صفوة العرفان في تفسير القرآن " ، وهو تفسير مختصر للقرآن يشرح على كل صفحة منه كلماته ومعانيه في إيجاز ويسر (انظر : أنور الجندي ، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين ، ص ٥).

لقد ظل محمد فريد وجدي طوال ستين عاما يؤلف الكتب الكثيرة والمقالات المنهمرة كالسيل ؛ تنطق بأنه كان يعيش في مجتمعه بعين بصيرة ، وعقل متيقظ ، فما جدت مسألة من شئون الدين والعلم والاجتماع في عصره إلا تطلعت الأنظار إلى قلم وجدي ، كي ترى منطقه المؤيد بالبرهان ، ومخالفه أشد حرصا على قراءته من موافقه ، لأنه يتيح له من الآراء مالم يكن حاضرا لديه ، أو ما يراه موضع خلاف ومن ثم كثر مناقشو الأستاذ في عصره من علماء الدين ، ورجال السياسة ، ورءوس علم الاجتماع ، فكيف تكون الكتابة الإسلامية حاجزا دون الامتداد إلى أوسع الآفاق ، وهذه مؤلفاته شاهدة بهذا المدى الفسيح ؟!(انظر : محمد رجب البيومي ، محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م ، ص ٢٣- ٢٩).

لم يتوقف لم محمد فريد وجدي ولم يفتر من أجل رسالة الوعي واليقظة ، وبناء الفكر العربي الإسلامي المعاصر ، على أساس العلم والعقل ، ومقاومة الجمود من ناحية ، ومقاومة المادية من ناحية أخرى ، ورد هذا الفكر إلى مقوماته الأساسية التي تمتزج فيها الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

وكما نرى فالرجل منح حياته للعلم والمعرفة والكتابة والتأليف ، لذا لم يستمر في وظيفة ذات راتب ثابت ، لأن الوظيفة تقتطع منه وقتا هو في حاجة إلى استثماره علميا ، وقد قيل إنه قضى عامين في وظيفتين غير مناسبتين لطموحه ، فآثر الاستقالة ، لا للأجر الزهيد ، ولكن حرصا على وقته وعلمه ، خاصة بعد أن بدأت الصحف الكبرى مثل المؤيد والأهرام تنشر مقالاته ، وصار له اسم علمي وهو شاب في مطلع الشباب .

لقد كان التأليف والصحافة هما مجال عمله وعلمه ، أو الوظيفة غير الرسمية التي عين نفسه فيها إشباعا لرغبته في البحث والمعرفة والدفاع عن الدين الحنيف ، لذا اتجه إلى إنشاء الصحف وتحريرها مع تواضع عائدها ، وتعرضها أحيانا لخسائر كبيرة لأسباب سياسية وغيرها ، ولكنها كانت مجاله الحيوي حيث يكتب وينشر ويعبر عن نفسه وطموحه ، ولعل فترة رئاسته لتحرير مجلة الأزهر التي اختتم بها

حياته واستمرت قرابة عشرين عاما كانت أكثر استقرارا من الناحية المادية ، وإن كان الرجل في كل الأحوال من الزاهدين . وقد اهتم بآثاره عدد من الكتاب الأجانب منهم الكونت دي طرازي في كتابه " تاريخ الصحافة العربية " وتشارلز آدمز في كتابه " الاسلام والتجديد في مصر " ...

ومن الكتب والدراسات التي تناولته :

١. صباح إبراهيم بيومي سليمان، محمد فريد وجدي مفكرا إسلاميا، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية بآداب الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

٢. محمد طه الحاجري، محمد فريد وجدي حياته وآثاره، محاضرات ألقيت على طلبة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، ١٩٧٠م.

٣. محمد رجب البيومي، محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي، ط ١ ، دار القلم، دمشق ، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

٤. عباس محمود العقاد، رجال عرفتهم ، ط٣ ، نهضة مصر ، القاهرة ، ٢٠١٠ .

٥. خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦م.

٦. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ، دار إحياء التراث العربى، بيروت، بدون تاريخ.

٧. الصيد أبو ديب ، الكاتب الإسلامي الكبير محمد فريد وجدي (١٨٧٨- ١٩٥٤م) وآثاره الفكرية، المدنية والإسلام نموذجا، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد ٢١ ، ٢٠٠٤م.

٨ – أنور الجندي ، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،١٩٧٤م.

- ٢ -

كان محمد فريد وجدي نمطا متميزا في مجال الكتابة ، فهو كاتب مسترسل ، يملك القدرة على تطويع الكلمة وصياغة العبارة ، ويتابع الأحداث ويفسر مجرياتها ويعلل نتائجها ، فقد كان غزير الاطلاع حسن التصوير كما يقول تلميذه محمد رجب البيومي ، دافق الأسلوب على نهج أدبي لا يغفل عمق المعنى وسلامة المنطق ، كما أن له رسالة في الحياة عرفها منذ نشأته الأولى ، وظلت تلازمه حتى مختتم حياته ، وهي في كل يوم تزيد سطوعا وترسخ ثباتا وهي : أن الإسلام صالح لقيادة الإنسانية وعلى الكاتب أن يسعى إلى تحقيق ذلك بما ينشر من مؤلفات ، ويلقي من محاضرات ، ويكتب من مقالات !

وقد رأى وجدي أن الصحافة أكثر حضورا بين الجمهور من الكتاب والمحاضرة ، فاتجه إليها كاتبا وأديبا ، ويمكن القول إن علاقة محمد فريد وجدي بالصحافة كانت ذات شقين . الأول : علاقة الكاتب الحر الذي يكتب في الصحيفة التي تنشر آراءه وأفكاره ، والآخر امتهان الصحافة وتحرير الصحف التي يملكها أو يديرها ليتمكن من نشر كل ما يكتبه ، فقد كانت الصحف التي ينشر فيها كتاباته ترى عدم نشر بعض ما يكتبه من مالات أو دراسا ت علمية مطولة ، ومن ثم رأى ان تكون لديه

صحيفة يملكها وينشر فيها ما يريد ، وفي الحالين فقد أنتج تراثا ضخما من الكتابات التي جمع بعضها في كتب في أثناء حياته أو بعدرحيله .
من ناحية الكتابة الحرة فقد كتب في مجلة المجلات العربية ١٩٠٦ ، والمقتطف ١٩١٩ ، والأهرام من ١٩٣٠ إلى ١٩٤٦ ، والهلال ١٩٢٩ على ١٩٤١ وكل شيء ١٩٣٠ إلى ١٩٣٥ والمعرفة ١٩٣١ إلى ١٩٣٢ والأخبار ١٩٢٤ والرابطة العربية ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨ والبلاغ ١٩٣١ والرسالة ١٩٤٥ والبريد الإسلامي ١٩٤١ - ١٩٥١.
ويلاحظ أنه كان يستمر في الكتابة في بعض هذه الصحف والمجلات في معظم أعدادها ، وبعضها الآخر كان ينشر له موضوعا واحدا أو اثنين لا أكثر .
أما الصحف التي أنشأها أوحررها ، فقد شملت :
أولا : الحياة ، وقد صدرت عام ١٨٩٩ إلى ١٩٠٠ثم توقفت وعادت للصدور من ١٩٠٦ إلى ١٩٠٧ وتوقفت مرة أخرى وعادت للصدور من ١٩١٤ إلى ١٩١٥. وكان غرضه من إصدارها تثبيت أصول الدين في عقول أبنائه بنتائج العلم العصري وإقامة الأدلة العمرانية والفلسفية على أن هذا الدين هو منتهى ما يصل إليه الإنسان من حقيقة الدين وما تدفعه إليه الفطرة.
ثانيا : الدستور ، وقد صدرت في ١٦ نوفمبر ١٩٠٧ عقب توقف الحياة في إصدراها الثاني واستمرت حتى ١٩١٠، وقد أعيدت مرة أخرى مجلة أسبوعية عام ١٩٢٢، واستمرت مجلة حتى عام ١٩٣٣. وكان يحرر صفحات الأدب والفكر والاجتماع بالإضافة لكتابته بحوثا خاصة بالفكر الإسلامي.
ولم يتخل وجدي عن المنهج العلمي الدقيق في مقالاته؛ لذا كان يصدر أبحاثه في حلقات، كما كان يجهر بالنقد للأحزاب ولم يستثن الحزب الوطني الذي ينتمي إليه من النقد كلما حاد في مواقفه عن أهدافه، ما جعل الوطنيين يضربون عن شراء الدستور ويحاربون توزيعها، فاضطر لإيقاف إصدارها ورفض كل محاولات المعونات المغرضة التي انهالت عليه لتمويل الجريدة مقابل أن يتكلم بلسان من لا يرتاح لهم
ثالثا : الوجديات ، وقد صدرت لفترة قصيرة من عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٢٢. وظهر فيها نبوغه الأدبي ، واعتمد في تحريرها أسلوب المقامة في أغراض فلسفية، وهي عبارة عن مقالات خيالية لتصوير مثل عليا للحياة الفاضلة من منظور اجتماعي ينظر في أدواء الأمم ويعالجها. وتعد هذه الوجديات طليعة القصة الفلسفية.
رابعا : مجلة نور الإسلام (الأزهر فيما بعد) ،وقد تولى رئاسة تحريرها لفترة طويلة بدأت من١٣٥٢هـ = ١١من سبتمبر ١٩٣٣ حتى فبراير ١٩٥٢ وهي مدة تقرب من عشرين عاما حافلة بكتاباته العميقة التي ظهرت في كل الأعداد التي تولاها عدا عدد واحد هو شهر ربيع الأول = ديسمبر ١٩٥١.وقد عهد إليه الإمام المراغي شيخ الأزهر آنذاك برئاسة تحريرها لما لمسه فيه من غزارة العلم والتعمق في فهم الدين، وقد تم تغيير اسمها من "نور الإسلام" إلى "الأزهر" بعد عام ونصف من العمل فيها. وشهدت الأزهر نقلة كبيرة وبعد أن كان دورها مقصورا على التفسير والحديث وإحياء السنة والدعوة إلى الفضائل ؛ خاضت في قضايا أوسع وردت على الشبهات العلمية والفلسفية المزعزعة للعقائد ، وما يثار في الكتب الأجنبية حول الاسلام

والمسلمين، ويقول فريد وجدي " باشرت مهمتي فيها فأنست من الرأي العام والصحافة ارتياحا نشطني على المضي قدما فيما عهد إلي واطردت زيادة المجلة حتى بلغت ١٤ الفا". وقد تعددت أبواب المجلة تحت رئاسته ، وكان يقوم بتحرير أربع مقالات في العدد الواحد بنفسه، وفي عهده انتقلت الأزهر نقلة هائلة فأخذت تزاحم المجلات الأخرى مثل : المقتطف والهلال والرسالة لدى كبار المثقفين الذين كانوا يعدونها فيما مضى خاصة بطائفة المعممين، فاختصها أساتذة الجامعات بدراساتهم المنهجية مع لفيف من رجال القضاء والطب والتربية والاجتماع.

ولكنها مع ذلك لم تسلم من نقد الفئة التي لا تعرف الانفتاح العلمي، فكان وجدي يرحب بنشر هذه الانتقادات في المجلة ويقوم بالرد عليها ردا علميا.

وظهرت بعض الملامح الإنسانية لدى وجدي إبان فترة رئاسته لتحرير الأزهر، فقد كان يقوم بتشجيع الطلاب الناشئين ونشر قصصهم وأشعارهم كما كان يقف على الجديد من الكتب ويعرض له - مهما كان كاتبها مغمورا - فيقدمه للقراء وكأنه من كبار الكتاب. وظل وجدي يؤدي مهمته في "الأزهر" حتى قبل وفاته بعامين. وقد أعفى نفسه من العمل بمحض إرادته بسبب حاجته إلى الراحة .

(راجع تفصيلا اكثر : محمد رجب البيومي ، محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي ،دار القلم ، دمشق ، ١٤٢٤هـ =٢٠٠٣ م ، ص ٤٥- ٩٣ ، وأنور الجندي ، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين ، ص ٨٤- ٨٨).

- ٣ -

مع تعدد مؤلفات محمد فريد وجدي وإنتاجه الفكري في عدة مجالات فإن أعظم إنجاز قدمه للفكر قد تمثل في تأليفه دائرة معارف القرن العشرين.

فقد كان لإجادته الفرنسية واطلاعه على معارف وعلوم العصر من دوائر المعارف العالمية مادة كبرى لتحصيله المعرفي، فكتب "كنز العلوم واللغة" عام ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م وكان نواة لمصنفه الضخم فيما بعد، ثم خرجت دائرة المعارف في عشر مجلدات وتحوي تسعة آلاف صفحة قضى في كتابتها ما بين عامي ١٣٣٦/١٣٢٨هـ = ١٩١٠ /١٩١٨م، وهي دائرة معارف عامة تحتوي على فصيح اللغة وخلاصات العلوم العقلية والنقلية والطبيعية والتاريخية والعمرانية إضافة لتراجم مشاهير العلماء وكثير من الفوائد الطبية والعلاجية والوسائل الحيوية التي يحتاج إليها الإنسان في سائر أحواله المعيشية.

لقد جاء عمله في هذه الموسوعة نتيجة لتعطيل الدستور ، فقد انصرف إلى أفقه الأصيل في قوة وهو التأليف ، وأتيحت له فرصة توسيع المجال في البحث والدرس .

وما يكاد الدستور يتوقف حتى بدأ إعلاناته في الصحف ، وهذا هو نص الإعلان الذي ظهر في المؤيد واللواء في أغسطس ١٩١٠م عن دائرة المعارف " المقتبسة من سبع دوائر معارف أفرنكية ، ومن مجموعة ثمينة من كتب عربية وفرنسية ، تصدر على هيئة أجزاء شهرية ، الجزء في ثمانين صفحة ، والاشتراك ٦٠ قرشا عن كل مجلد سنوي ، ويقبل الثمن مقسطا على اثني عشر شهرا ، كل شهر خمسة قروش طوابع بوستة ".

لقد اشترى لها خصيصا مطبعة سماها باسمها " مطبعة دائرة المعارف " وبلغ عدد صفحاتها ٨٤١٦ صفحة في عشرة مجلدات .وقدم لها واصفا إياها:
" قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم النلية والكونية بجميع أصولها وفروعها والنحو والصرف والبلاغة والمسائل الدينية وتاريخ الفرق والمذاهب والتفسير الحديث والأصول والتاريخ العام والخاص ، وتراجم مشهوري الشرق والغرب والجغرافيا الطبيعية والسياسية والكيميا والفلك والفلسفة والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والروحية والطب والعلاج وقانون الصحية والفوائد المنزلية وخصائص العاقير والإحصاءات وسائر ما يهم الإنسان في جميع المطالب ".
وقد انفرد وحده بتأليف هذه الموسوعة التي لا يستطيع أن يقوم بها العشرات بمثل هذه الدقة، ودفعه لذلك أن وجد الميدان خاليا فاقتحمه بمفرده، وتلقف الجمهور الموسوعة بإقبال نادر حيث نفدت طبعتها الأولى سريعا وأعيدت الطبعة الثانية.
ولم يكن وجدي جامعا للمعارف فحسب بل كان يقدم رأيه الخاص في كثير من المسائل، فهو ناقد وموجه وشارح، ومع ما بذله وجدي من جهود جبارة في إنجاز هذه الموسوعة فلم يجد صدى لعمله العظيم في الدوائرالعلمية والثقافية الرسمية ، مما دفع داود بركات رئيس تحرير الأهرام آنئذ أن يكتب في افتتاحية الجريدة يوم ٣من إبريل عن دائرة المعارف وصاحبها ويهاجم المسئولين للغبن الذي لحق بصاحب هذا العمل الضخم الذي عمل وحده منفردا وعمل جادا وعمل ساهرا ، عمل لا ليتلألأعلى صدره نيشان ؛ ولا تدفع له رتبة ، ولا ليقام له حفل تكريم ، وأشار بركات إلى أن هذا العمل يمثل تضحية في وقت كسدت فيه سوق الأدب والعلم . وقارن بينه وبين طوائف لا تستحق الاهتمام بل هي طوائف فاسدة ينصب عليها المال والاهتمام بينما اهل العلم والأدب لا ينالون شيئا ، ودعا بركات الى إنصاف وجدي وتسجيل عمله ، مشيرا إلى أن الأهرام يسجل عل صدره جلال العمل الذي أتمه ، ونفع هذا العمل وفائدته الكبرى وقال : لقد عمل لنفسه ولأمته عملا لاشك بأنه كبير وجليل .
وفي كل الأحوال فإن محمد فريد وجدي لم يكن طامعا في تقدير جيله ، ولم يكن متطلعا إلى الجزاء المادي أو الأدبي الذي يتوقع لهذا العمل ؛ إنما كان يرجو به " بناء أمة وإنشاء جيل " (أنور الجندي ، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين ، ص ٦١-٦٦).
ويشير أنور الجندي إلى أن بطرس البستاني عجز عن إتمام دائرة معارفه مع المساعدة السخية التي قدمتها له الحكومة المصرية بشراء ألف نسخة من الدائرة ، وعجز خلفاؤه كذلك فلم يتم هو أكثر من ستة أجزاء ، وأعد خلفاؤه ثلاثة أجزاء أخر حتى عام ١٩٠٠ ووقفوا عند حرف " عين " (السابق ، ص ٦٧).
وقد ذكر توفيق حبيب (الصحفي العجوز) أن مصر تفخر بهمة فريد وجدي الذي عمل بمفرده في وضع دائرة معارف القرن العشرين ، وأنها تمتاز على دائرة البستاني بتوخيها شرح بعض المسائل الدينية ، فكلمة " الله " مثلا مبسوطة في نحو عشرين صفحة ، وكلمة " بيع " مشروحة شرحا فقهيا إسلاميا مسهبا ، وكلمة مكتبة دوّن فيها الكاتب خلاصة طيبة عن المكتبات العامة في مصر .. إلخ (السابق ، ص ٦٧ وما بعدها) .

***

وتعد محاولة تفسير القرآن من بين أبرز إنجازات فريد وجدي حيث أراد من خلالها أن يعطي الألفاظ العربية حقها من البيان مع بيان أسباب النزول وجعله في شكل المصاحف العادية، فاستكتبه باليد على ورق نباتي وطبعه تحت اسم "صفوة العرفان في تفسير القرآن"، وجعل تفسير كل صفحة في ذيلها ليسهل الرجوع إلى معنى أي لفظ. وهذا الأسلوب الذي ابتكره وجدي صار سنّة لكتب التفسير التي طبعت من بعد كالجلالين والبيضاوي وما ألفه المحدثون من بعده.

ولم تقتصر عناية وجدي بالتفسير على المصحف المفسر بل كتب مجموعة من المقالات التفسيرية ألحقها بمقدمة تفسيره، كما اهتم بتفسير الآيات التي استشهد بها في جميع مؤلفاته وذلك لاستناده عليها في مناقشة قضايا الإسلام المختلفة.

يقول فريد وجدي في مقدمته موضحا سبب تأليفه: "فإني حوالي سنة ١٣٢٣هـ حاولت أن أقرأ القرآن قراءة تدبير وفهم كما أمر به صلى الله عليه وسلم سبحانه وتعالى، فأعوزني أن أجد من التفاسير ما تبغي أمنيتي من أقرب الطرق وأسهلها، فإن المطولات لا يتسع لتلاوتها وقت أمثالي من المشتغلين بفروع كثيرة من العلم، والمختصرات قصد بها حلول المسائل الفنية من التفسير، وكان مرادي تفسير يعطي الألفاظ العربية حقها من البيان ويعرض للمعنى بعبارة خالية من المسائل الفنية، مع بيان أسباب نزول الآيات ليتجلى للقارئ المعنى بكل جلاله.

فأخذت أضع تفسيره لنفسي وشرعت أكتبه على هامش مصحف لأتخذه عمدة في تلاواتي للكلام الكريم.

وقبل أن أتمه أدركت أن هذا العمل طلبة كل تال للقرآن العظيم، فرأيت أن أتم ذلك التفسير وأطبعه ليعم انتشاره، ففعلت، وهو هذا الكتاب الذي أقدمه للقراء راجيا أن أكون بهذا العمل سببا في نشر معنى كتاب الله بين ناس لم يكونوا يبلغونه في حياتهم، إما لأن أعمالهم لا تمكنهم من الاطلاع على التفاسير، وإما لأن مادتهم العلمية لا تسمح لهم بإدراك أغراض المؤلفات السابقة.

ثم إني رأيت- تتميما للفائدة- أن أجعله على شكل المصاحف العادية، فجعلت تفسير كل صفحة في هامشها، ليسهل الرجوع إلى معنى أي لفظ أو آية في حال التلاوة، والحمد لله أولا وآخرة.

وإني لأرجو من وراء هذا أن يعم انتشاره، فيشيع بهذه الوسيلة العلم بمعاني الكتاب العزيز، وتتحرك في النفوس عوامل الرغبة في العمل بها، لاسترداد مجد هذه الأمة المضاع، بمثولنا وسط الأمم الراقية، نعمل كما تعمل لرفع منار الإنسانية، وتشييد صروح العمران والمدنية".

ومع اهتمام الأستاذ وجدي باللغة والمفردات وشرحها شرحا وافيا دون أن يتعرض للنحو ومسائله الدقيقة ؛ فإنه قد استخلص هذا التفسير من الآراء المجمع عليها لدى أئمة المفسرين، وأقطاب أهل السنة، فلم يخرج به عن سننهم قيد شعرة ليوافق مذهبا من المذاهب أو يؤيد رأياً من الآراء الفردية، ولو اضطره الكلام في بعض الآيات أن يورد رأياً لأحد من غير أهل السنة، فإنه ينبه إليه وإلى ظروف قائله حتى يكون القارئ على بينة من أمره.

ويلاحظ أنه قلل كثيرا من ذكر الأحاديث النبوية في تفسيره لمعاني الآيات، وغالب ما يذكره من الروايات هو من أسباب النزول، ولا يعزوها إلى مصادرها. وهو يوجز في تفسيره لآيات الأحكام ، ويكتفي بذكر معنى الآية في عبارة ميسرة، ويبتعد عن خلاف الفقهاء ومذاهب العلماء في الآية، مكتفيا بالآراء المتفق عليها .
كما يلاحظ أنه لم يشر إلى القراءات حرصا على الإيجاز وتوفير الوقت على المشتغلين بفروع العلم العصرية، وأيضا لم يذكر الإسرائيليات بصفة عامة ، وإن أشار إلى بعضها باختصار.
وللأسف فقد اندفع بعض العلماء لمهاجمة هذا التفسير لأنه يشرح قضايا العلم الحديث وتفسيرها في ضوء ما يعرف من حقائق الإسلام ، فالشيخ محمد الجهني- رحمه الله - وهو تقي ورع كما يصفه محمد رجب البيومي شن حملة على الأستاذ وجدي في كتابه (العمل المبرور في ردع أهل الغرور) ، ولكن الشيخ الجهنى مع أنه مخلص غيور كما يقول البيومي ؛ فإن أفقه العلمي لا يتسع لقراءة ما يسطره الكاتب الكبير محمد فريد وجدي ، فمضى يرميه بما لم يكن منه ، ولعل الذين يصفون تفسيره بالقصور ، يعرفون أن الرجل قد فسر بعض الآيات بإسهاب حين اقتضت الحال تفسيرها في (دائرة المعارف) فأتي بما يشرح الصدر تعمقا واستقصاء (انظر : محمد رجب البيومي ، محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي ، ص ١٣٤).
وقد لقي هذا التفسير عناية كبيرة في فترة الستينيات من القرن العشرين فقد طبع عشرات الطبعات ، وقامت دار الشعب بطبعه في أجزاء متوالية عدة مرات حتى بلغ المطبوع منه ما يقرب من مائة الف نسخة .
كما أن عددا من فضلاء العلماء قاموا بمحاكاة المصحف المفسر ، فكتبوا التفسير الموجز ، ومنهم الشيخ حسنين محمد مخلوف والشيخ عبد الجليل عيسى وابن الخطيب وغيرهم ، وكان الأستاذ وجدي رائدا لهم في هذا الميدان (السابق ، ص١٤٠) .
***
قضى وجدي قرابة نصف عمره منافحا للمادية والماديين فكان يسارع بشراء ما يصدر باللغة الفرنسية من الكتب التي تروج للنظرية الداروينية ليقوم بتفنيدها والرد عليها، فكتب "على أطلال المذهب المادي" في أربعة أجزاء محاولا هدم كل ما قاله "المطورون" كاشفا حقيقة الصلة بين العلم والدين وموضحا المرامي الباعثة على نهوض البحوث الروحية في وجوه الشكوك المتلاحقة وباذلا جهده في إثبات العالم الروحي ليس فقط ليعتقد الناس ببقاء الروح بل ليدعوهم لصلاح أمرهم في الدنيا.
لقد تناول الأستاذ وجدى النظريات المادية التي أفرزها الفكر الغربي الحديث وناقشها مناقشة علمية موضوعية تدحضها وتكشف قصورها وعدم تناسبها مع الفطرة الإنسانية ، ولعلنا لو توقفنا قليلا عند رؤيته للشيوعية مثلا وهي في أوج ازدهارها وانتصارها وتمددها في أرجاء العالم على أطلال الاستعمار الغربي ، ثم توقعه في الوقت نفسه هزيمتها وانكسارها ، لاكتشفنا عمق فكره ،وسلامة منهجه ، وصواب رؤيته ، وهو ما يوجزه في عبارة دالة وردت في بحث له بمجلة الأزهر يقول فيها :

" هذا التورط الشنيع الذي تتكلفه الشيوعية ، وتحتفظ به في سيل عارم من دماء البشر في سبيل اجتثاث الدين من قلوبهم لا يعقل أن يدوم ".
ويشير الأستاذ وجدى في بحثه إلى أن حياة الشعوب تقوم على سنة ثابتة من التطور التدريجي ، ولم تغن النظم الخيالية والمدن الفاضلة مثل جمهورية أفلاطون أو سياسة أرسطو شيئا ، والمذهب الشيوعي يقوم على ثلاثة أصول : محو الملكية الفردية والحقوق الوراثية ومشاعية الأرض، وإلغاء رءوس الأموال الفردية لحساب الحكومة ، واستئصال شافة الدين من المجتمع بوصفه الد أعداء الشيوعية . ويتوقف عند كل أصل في تفصيل مسهب ، ويتألق عند الأصل الثالث الخاص بالدين ، فيتهكم بمن يقولون : إن كل مجتمع طبقي يتولد فيه الدين تحت تأثير النير الاقتصادي ، إذ إن الدين غريزة توجد في النفوس قبل أن يعرف أهلها نظام الطبقات ، فكيف يتولد من هذا النظام ؟! والدين لا يستمد سلطانه من جوع الجماعات ، ولا من وقوعهم تحت براثن القادة الظالمين ، بل يستمده من أشرف عواطف النفس ، وأكرم غرائز العقل ، وقد ثبت بالمشاهدة أن الإنسان إذا كانت قواه مستوعَبة في طلب القوت ، ضعف سلطان الدين عليه ، ولم يجد وقتا للنظر في نفسه ومصيرها ، ولا للفكر وآدابه ، وكثيرا ما أداه شظف العيش إلى الكفر الصريح ، وما ارتكبت الجرائم إلا حين خفت صوت الدين في النفوس.
ويدفع الأستاذ وجدي الافتراء على الدين ونسبة العادات البالية إليه وإحيائه النزعات الرجعية ، ويشير إلى دور الإسلام في إنقاذ العرب والعالم من الجهالة وظلماتها لأنه باعث ارتقاء لاهبوط ، وينبه إلى نقطة مهمة وهي وجود بعض العامة الجهلاء الذين يدينون بالخرافات العتيقة ، ويحافظون على ضلالات الأولين ، وهو ما يعمل المصلحون على علاجه بوسائل تلائم الطبيعة البشرية من طريق ترقية المدارك ، ورفع مستوى العقليات ، مع عدم العدوان على العاطفة الدينية (مجلة الأزهر ، المجلد الحادي عشر ، ١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م ، ص ١٨ وما بعدها).
وينبه الدكتور محمد رجب البيومي إلى أن الأستاذ وجدى تصدى لما كتبه الأستاذ خالد محمد خالد في كتابه الشهير (من هنا نبدأ) بسلسلة من المقالات الهادفة نشرها تباعا في مجلة الأزهر تحت عنوان (ليس من هنا نبدأ) فند فيها أراجيف الكتاب بسيف لا يكل وبخاصة فيما ادعاه من التسلط الديني على النفوس المسلمة ، وما ذكره عن الاشتراكية المتطرفة أو الشيوعية بوصفها حلا لمشكلات الحياة . وكان لمناقشة الأستاذ وجدي لكتاب خالد أثرها في إزال الغشاوة عن عينيه ، واعترافه الجريء فيما بعد بخطئه حيث أصدر كتابا بعنوان (الإسلام دين ودولة) سلم فيه بكل ما قال ناقدوه ، لأنه كان ينشد الحق وقد أخطأ سبيله ، ثم هداه الله إليه ، فكان من الفائزين برحمة الله (انظر : مجلة الأزهر ، مجلد ٢٢، شعبان ١٣٧٠ هـ ، محمد فريد وجدى الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي ، ص ٢٦٦- ٢٦٧).

- ٤ -

منذ إنشاء جريدة الحياة عام ١٨٩٩م ، أخذ محمد فريد وجدي يتناول السيرة النبوية على نحو علمي في فصول متعددة جمعها في كتاب " الاسلام في عصر العلم " ، وفي سنواته الأخيرة عاود البحث في مجلة الأزهر حيث أمضى أعواما في دراسة

السيرة النبوية على ضوء العلم والفلسفة ، وفي مختلف المناسبات : الهجرة ، المولد النبوي وغيرهما .
لقد كانت شخصية النبي محمد- صلى الله عليه وسلم – أعظم شخصية إنسانية ظهرت في العالم ، دلت آثارها الخالدة عليها ، ويتساءل : أي صنف من الناس كان محمد بن عبد الله : حكيما ، مصلحا ، موحدا لأمة ، بانيا لدولة ، مؤسسا لدين ، واضعا لدستور ، أو كل هؤلاء كان في شخص واحد ؟
ويحاول أن يحلل عظمته ، فيقول :
" رجل يدعي انه نبي ويعجز العلم والعقل عن تعليل بعض ما قام به من عظائم بزّ بها الحكماء والمصلحين ، وفاق القادة والمشترعين ، وصغر شأن الفلاسفة الأولين والآخرين ، رجل يأتي بكل هذا لا يمكن أن يتصوره العقل مصلحا كبقية المصلحين ، لأن ما قام به من الأعمال لا يأتيه إنسان موكول إلى قواه الذاتية مهما حلق في سماء الحكمة لا يستطيع أن يخرق نظام الكون في سنوات معدودة "(أنور الجندي ،محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين ، ص١١٩ وما بعدها) .
لقد نشر محمد فريد وجدي السيرة النبوية بأسلوبه ومنهجه تحت عنوان " السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة " ؛ على هيئة فصول متتابعة استغرق نشرها سبع سنوات في افتتاحية مجلة الأزهر ،ابتداء من المجلد العاشر ١٣٥٨ هـ حتى المجلد السابع عشر ١٣٦٥هـ ، وقد جمعها الدكتور محمد رجب البيومي في كتابين صدرا عن إحدى دور النشر لحمايتها من السرقة بعد أن قام بعضهم بالسطو عليها دون أن يشير إليها .
ويشير محمد فريد وجدي في مطلع حديثه عن السيرة المحمدية أن مثقفي اليوم لم يعودوا يقنعون بسرد الأحداث التاريخية دون تحليل ، كما لم يعودوا يكتفون بالتسليم بوجود النبوة دون أن يبحثوا ماهيتها ودوافعها . وقد لاحظ العلامة فريد وجدي أن كثيرا ممن تحدثوا عن السيرة النبوية من المسلمين الذين اعتمدوا على البيان والخطابة دون اهتمام بمخاطبة العقول المجبولة على التشكك وتحتاج إلى الاطمئنان المتثبت . كما أن بعضهم قد اندفع إلى تسجيل إسرائيليات مزعومة ما كان لها أن تكتب، ومع ذلك لم يبخس من كتبوا من زملائه فأشاد بعملهم الجيد (انظر محمد فريد وجدي الكاتب الاسلامي والمفكر الموسوعي ، ص ١٧١ وما بعدها).
وقد بدأ كتابته بموضوع النبوة والأدلة العلمية على حدوث الوحي السيرة ، ثم تناول نفسية الرسول – صلى الله عليه وسلم – قبل النبوة وبعدها ليرد على من يذهبون إلى أنه ادعاها ادعاء دون وحي منزل ! ثم ينتقل إلى الكتابة عن الدعوة يفند فيه شبهات المنكرين " سنريهم آياتنا في الآفا ق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " (فصلت : ٥٣) ..
ويتابع أحداث السيرة من خلال عرض جديد وأسلوب لا يغفل ما يثيره أعداء الدعوة ، وما يفرضه الواقع المعاصر في مجالات العلم والفلسفة والاجتماع ، حتى وصل بحديثه إلى التحاق الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالرفيق الأعلى ، وترك أصحابه على المحجة البيضاء .

وقد ألحق الأستاذ وجدي بالسيرة النبوية بضعة وعشرين فصلا في تقرير مبادئ الاسلام وتعاليمه وإيضاح أثره العالمي في إصلاح الكون وهدايته ، وحماية الإنسانية من الانهيار ، ولكنها لاتتصل اتصالا عضويا بسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم .

***

في سياق مؤلفات محمد فريد وجدي التي تكشف كنوز الإسلام وعطاءاته للإنسانية مثل المدنية والإسلام ، ودائرة معارف القرن الرابع عشرالهجري والعشرين الميلادي والمرأة المسلمة والمستقبل للإسلام وعلى أطلال المذهب المادي ...؛ يأتي كتاب " مهمة الإسلام في العالم " بوصفه محاولة متقدمة يعرض من خلالها الإسلام لأبنائه كما نزَل من مَعِينه الصافي، وتصفيته من شُبَهِ الأعداء والحاقدين، وتقديمه بصورة جيِّدة يَقْبلها العقل الحرُّ اليقظ، ومُحاربة الإلحاد وإبرازه على أنه آفَةٌ في العقل.

وأصل هذا الكتاب مجموعة مقالات، كتبها وجدي في مجلة الأزهر ونشرها على مدى ستَّةٍ وعشرين شهرًا، وقد نشرَتْها "مجلة الأزهر" بمعرفة تلميذه محمد رجب البيومي في كتاب مُلْحَقٍ بعددِها الصادرِ في شوَّال من عام ١٤٢٢ هـ.

ويشير في بداية الكتاب إلى طرف من تاريخ الإنسانيَّة في صورتها الأولى التي لا تعرف نظام الدولة أو المجتمع الموحد ، وكان الناس فيه مجرد مجموعات متفرقة متخالفة بلا قوانين ولا مبادئ ، ثم تطورت طرق العيش وأسباب التواصل بين المجتمعات الشُّعوب، من أجل التكامل والتعاون والتبادل ، ونشأت التِّجارة العالميَّة، لتكون وسيلةً للتفاهم، وطريقا إلى السلام والوحدة داخل المجتمعات ،حتى بُعث محمد رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - برسالة الإسلام، وأمر الله - عزَّ وجلَّ - بإشاعته في جميع أنحاء الأرض ليجَمع الناسَ على مبدأ واحد.

وينتقل إلى الحديث عن وحدة الأصل في البشرية ومهمة الإسلام في توحيد الإنسانية وتجاوز ماكان عليه الناس في الجاهلية وقبل نزول الوحي من فرقة واضطرابات وفِتَن، إلى أنْ أوحى الله - عزَّ وجلَّ - إلى محمَّد - صلَّى الله عليه وسلَّم - أن يرفع علَم الألفة العالميَّة العامة، في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات: ١٣]. وهو ما يعدّ من أدلِّ الأدلة على أن الإسلام صادِرٌ من ربِّ العالَمين؛ لأنَّ عقل الحكيم مهما حلَّق في جوِّ المبادئ الصالحة، فلا يستطيع أن يعدُوَ طَوْرَه، فيفكِّرَ في وضعِ أصلٍ عالَمي كهذا الأصل.

ثم إن الحرب دفاعا عن النفس وقطع الطريق على من يفكرون في العدوان على المسلمين تصبح ضرورة وقد جعل الإسلام للحرب قانونًا عادلاً، ونظامًا مُحْكَمًا، وأمر بعدَمِ الاعتداء فيها، ولم يشرعها لغرضٍ مادِّي، وإنما لنشر كلمة الله بين الأمم.

ويتطرق إلى "المثَلِ الأعلى في بناء الأمم"، حيث جاء الإسلام بالعدل والمُساواة والإخاء بين جميع المسلمين، وأنَّه لا فرق بينهم، ولا فضل لأحدهم على الآخَرِ إلاَّ بالتقوى، وسيرة النبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - وتاريخ أصحابِه مِن بعده، فيهما كثير من النماذج والأمثلة . وقد اعترف الإسلام بوجود الطَّبقات الاجتماعيَّة في الأمة؛ لِيَقوم صَرْحُ الاجتماع على أمْتَنِ القواعد، فلا تتسرَّب إليه الفوضى من ناحيةٍ من

نواحيه، وكلُّ ما شرطه في تأليف الطَّبقات أن تكونَ بحسب المؤهِّلات العِلميَّة، والمَزايا الأدَبية، قيامًا على سُنَّة إسنادِ كلِّ أمر إلى أهله، فهو دينٌ نظاميٌّ من كلِّ وجه.
ويشير إلى "دعوة الإسلام إلى العلم" وأهمِّيته في دفع الجهل، سواء كان في العقائد الدينيَّة، أو في الشُّؤون المادِّية، والتاريخ المُشْرِق للإسلام والمسلمين مليء بالأمثلة الحية على العلم وأهله.
إن "نَشْر الإسلام للمبادئ الإنسانيَّة"؛ كالعَدْل والمُساواة والسَّماحة في التعامل مع غير المسلمين، ودعوتهم بالحِكْمة والموعظة الحسَنة، بل والتَّعايش معهم، دونما إكراهٍ أو مُشاحنة، ركيزة أساسية من ركائز الإسلام ، وقد طالبَ الإسلامُ أهْلَه بمراعاة مبادئ الإنسانيَّة، حتى في مواطن الحرب وتَجْريد العمل لله، لا للأغراض المادِّية"؛ فالأمَّة التي تجرِّد أعمالها لوجه الله، يترابط آحادُها ترابطًا لا تُفْصَم عُراه، فيتنَزَّهون عن دنيئات الأخلاق، وساقطات الخِلال، ويكون انسِياحهم في الأرض، واختلاطُهم بالأُمم خيرًا وبرَكة عليهم؛ لأنَّهم لا يقصدون إلاَّ إقامة دولة الحقِّ، وتشييدَ صرْحِ العدل، ورَفْعَ منار الفضائل، وتطهيرَ الأرض من الرذائل.
ويتناول الكاتبُ "دعوة الإسلام إلى تطهير القلوب"، والعناية بتربيتها وتربية العقول، فالعقْلَ سُلطانَه في التَّمييز بين الحقِّ والباطل والقلب سلطانه قيادة الإنسانَ إلى العواطف النبيلة، والتخلي عن الصفات الحيوانيَّة، والتطهُّرَ من الأدران البهيمية، فبِطهارة قلوب المسلمين؛ أصبحوا ليوثًا في ظواهرهم، نُسَّاكًا في بواطنهم، وأجسادهم تصول وتجول، وقلوبهم تأسو وتعول، لم يدَعوا صرحًا أُقيم للباطل إلاَّ هدموه، ولا مَعْلمًا للحقِّ إلاَّ أقاموه، ثم ما هي إلاَّ سنون معدودة حتَّى أصبحوا خلفاء الله في أرضه، وحفظَته على وحيه.

ويفصل الاستاذ وجدي مهمَّة خطيرة من مهامِّ الإسلام في العالَم، وهي "دعوته إلى النَّظر والتفكير"، والقرآن الكريم فيه آيات كثيرة تُرْشِد إلى النَّظر في النَّفْس والكائنات، وتتبع آيات الله في مخلوقاته، وتنور إبداعه في مصنوعاته، وليس ذلك للاستفادة المادِّية فحَسْب، ولكن للفائدة الرُّوحية أيضًا؛ حيث إنَّ هذه الدعوة أشد تأثيرًا في النُّفوس من دعوة رجال العلم والتربية؛ لذلك اندفع المسلمون لتناول العلوم من جميع مَظانِّها، وبلَغوا منها بعد مائتَيْ سنة ما لَم يبلغه غيرُهم في مدى القرون الطويلة، فأصبحوا أصحابَ الزعامة فيها، ولم يُرْوَ في تاريخ البشر أنَّ أمة تنهض في قرنَيْن من الأميَّة الصِّرفة إلى مكانة الإمامة في المعارف البشريَّة، في مثل هذه المدَّة الوجيزة.
و يبين الأستاذ وجدي أن الإسلام دعا إلى أن يقترن العلم بالعمل، وأنه يحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، وأنه يوفق بين مَطالب الرُّوح ومطالب العقل ، ويدعو النَّاسَ إلى الصِّراط المستقيم ؛ حتَّى لا تتخطَّفَهم السُّبلُ المضلِّلة، فترمي بهم إلى مكانٍ سحيق.
يقارن الأستاذ وجدي بين "الأغراض الاجتماعيَّة للإسلام"، والرَّوابط الاجتماعيَّة للجماعات والدُّول السابقة، كالدولة الرُّومانية والدولة الفارسيَّة، والبَوْنَ الشاسع بين

سُلوك المسلمين، وسلوك تلك الدُّول في الحروب، ويوضح أنَّ المبادئ التي تقوم عليها الرَّوابط الاجتماعيَّة في الإسلام تتمثَّل في:
١- المساواة بين جميع الخلق؛ لأنَّ كلَّهم لآدم، وآدَمُ من تراب.
٢- أن التَّفاضل بينهم لا يَنْبَني على الفوارق من جنسٍ ولون ولُغة، ولكن على الكمالات النفسيَّة؛ (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات: ١٣].
٣- أنَّ القبائل والشُّعوب خُلقت لتتعارف على التعاون والقيام بأعباء الحياة، لا لتتناكر وتتناحر؛ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات: ١٣].
٤- تَسْويد الحقِّ في جميع المواقف على القوَّة؛ (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) [يونس: ٣٢].
٥- العمل على إعلاء كلمة الله في الأرض، وهي العدل المُطْلَق، لا المصلحة المادِّية.
إن "مُراعاة الشريعة الإسلاميَّة لحقوق الآخَرين"، أساس من أسس الإسلام ، وقد سَبق الإسلام العالَمِ أجمع في كفالة الحقوق والحُرِّيات لكافَّة البشر، على اختلاف دياناتهم وألوانهم . وقد احترم الحرِّية الشخصيَّة، كما احترمَ الحقوق الإنسانيَّة المستَنِدة على الأوضاع الطبيعيَّة، ولم يَحترم منها ما أوجده الْهَوى، ولا ما ولَّدتْه الشُّهرة، وقد رمى من هذا إلى تأليف مُجتمع سليم في نفسيَّته، سليمٍ في عقليته، سليم في بِنْيته، يَجْري إلى غاياته البعيدة كأنَّه جزءٌ من الطبيعة، لا خارجٌ عليها، ولا مدبِّرٌ لها.
لقد حافظ الإسلام على السموِّ الرُّوحاني للمجتمع في جميع محاولاته الدنيويَّة، لأنه قام على أصولٍ عامَّة من الأخلاق والمبادئ، تاركًا في سبيل هذه المبادئ الفوارقَ القوميَّة والجنسيَّة واللُّغوية، كما أنَّ الإسلام قد حرص على أن يُحافظ أهله على السُّمو الروحاني، حتَّى في المَواطن التي يتعمَّد فيها القادَةُ إثارةَ القوة الوحشيَّة في نفوس جنودهم، وحثِّهم على تمزيق أعدائهم كلَّ مُمزَّق، وأن يجعلوهم عبرةً لغيرهم؛ تَجِد الإسلام يأمر أتباعه بالإحسان، وينهاهم عن قَتْل النِّساء والصِّبيان وكبار السِّن.
ويبين وجدي "دعوة الإسلام إلى العمل على إقامة العمران في الأرض"، ويستشهد بسلوك المسلمين عند فَتْح البلاد، وكيف أنَّهم لم يتركوا عِلمًا ولا فنًّا ولا صناعة إلاَّ أخَذوا بها، وزادوها بِجُهودهم رُقيًّا، بل إنَّهم لم يكونوا مجرَّد فاتحين، ولكنهم كانوا معلِّمين ومُصْلِحين أيضًا، بل إنَّهم أسَّسوا العديد من العلوم، كالكيمياء والرِّياضيات والْجَبر، ونَقَلت عنهم أوروبا تلك العلومَ، وقامت بترجمة كتب "ابن رشد"، و "ابن زُهْر" و"ابن سينا"، وغيرهم إلى لغاتهم؛ ليتعلَّموا منها.
إنَّ المدنيَّة التي يعدُّها الناس اليومَ أزهى المدَنيَّات وهي المدَنِية الأوروبيَّة، لم تَضْمن لأهلها راحة البال، وهناء النَّفْس، ولكنَّها اندفعت بهم إلى صراعات داميةٍ، وحروب مُبيدة، حتَّى أصبحَتْ في أمسِّ الحاجة إلى التقويم والتَّصحيح ، وأصحاب هذه المدَنِيَّة لا يُنكرون نُقْصانها وحاجتَها إلى الإضافات الكثيرة، وأنَّهم يتطلَّبون مثلاً أعلى يقيهم من هذا الانحلال والنُّقصان، ولا شكَّ أن هذا المثل الأعلى يُوجَد في الدِّين الذي يُعلِّم أصحابه الرحمة والإيثار، والبَذْل والعطاء، إلاَّ أن أصحاب هذه المدنية يدَّعون أنَّ الأديان تبثُّ في مُقابل هذه المزايا عقائدَ تنافي أوليَّات العقل، وبداهات النَّظر، وتُعادي

العلم، وتقيّد الحريات، وقد تأثَّروا من هذه المَشاهد التاريخيَّة، حتى أصبحوا يظنُّون أنه لا يوجد دينٌ على وجه الأرض يخلو من هذه العقبات؛ فإذا ما أمكن إقامة الدَّليل على أنَّ واحدًا من الأديان تنطبق أصوله على مميزات المثَلِ الأعلى للمدنيَّة، فلا يوجد ما يَمْنع من إعلان اتِّفاق الدِّين الحقّ والمدنية.

ونَحْن معشرَ المسلمين – كما يقول وجدي - نعلم أنَّ الإسلام ينطبق على المثل الأعلى للمدنيَّة، ويزيد عليه سُموًّا، فعلينا وحْدَنا التدليل على ذلك، والقيام بِنَشره في الآفاق. ويتساءل : ما الذي أوجد هذه الهوَّة السحيقة بين الدِّين والمدنيَّة في نظر بعض الآخِذين بمبادئ الحياة العصرية اليوم؟

ويجيب : أوجدها خطأٌ جلَل، تسرَّب إلى عقولهم، ولم يَفْطنوا إليه، وهو أنَّهم خلَطوا بين المدنيَّة بمعناها الصحيح، وبين ما أوجده أهل الإباحة من التَّعديات المُنوَّعة على العلم والأخلاق، تحت ظلِّ الحرية الشخصيَّة، وألصقوه بالمدنيَّة، ومصدر هذا الخطأ هو ما يَراه الناس بأعينهم من اهتمام الأمم قاطبةً بالمُتَع النَّفسية دون التقيُّد بالآداب التي يحرِّمها العلم الصحيح، ولا شكَّ أنَّ العلم يتَّفِق مع الدين في تحريم الخَمْر، والميسر، والزِّنا، والرِّبا، والمخدِّرات، ولكنَّهم للأسف الشديد لا يقيمون للعلم وزنًا حين يحرِّم هذه المضارَّ.

ويخصص الأستاذ وجدي ختام كتابه للحديث عن "دعوة الإسلام إلى القيام بخلافة الله في الأرض"، فالأمة الإسلاميَّة أمَّةٌ منتدبةٌ لخلافة الله في الأرض؛ قال تعالى: " وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ " (الأنعام: ١٦٥).

وإذا قام المسلمون بالدعوة إلى دِينهم، دعوة مؤسَّسة على التَّنويه بالأصول الأوليَّة في الإسلام؛ فإنَّها تؤثِّر في العقول والقلوب بِحكم أنه دين من ناحية وأنَّه إصلاحٌ عالَمي عام من ناحية أخرى ، فالإسلام بوصفه دينا لا يَحتاج إلى أكثرَ من أن يُعرَّف التعريفَ الجدير به. فالناس يحبون أن تعلو كلمة الله في الأرض، وأن يسود الحقُّ سيادةً يسقط معها كلُّ باطل، ويَضْمحلُّ كلُّ زور، وتزول جميع الفروق بين الناس .

فلْنَعمل مجتَمِعين على بيان هذه الحقائق بكلِّ وسيلة يصل إليها إمكانُنا.

***

لقد اهتم وجدي بالكثير من القضايا الإسلامي التي أثيرت في زمانه، فوضع عنها كتبا أو تناولها في مقالاته ، وخاصة في مجلة الأزهر إبان توليه رئاسة تحريرها ، فقد أولى قضية المرأة في الإسلام عناية خاصة وألف كتابه "المرأة المسلمة" ردا على كتاب "المرأة الجديدة" لقاسم أمين، مستخدما أسلوبا علميا وردا موضوعيا . وقد بدأ وجدي برفض خروج المرأة من البيت في هذا الكتاب لكن فكرته هذه تطورت بعد خمسة وأربعين عاما في بعض مقالاته منتهيا إلى إباحة إعطاء المرأة حق التصويت في الانتخابات وعضوية المجالس النيابية والخروج للعمل مستمدا آراءه من القرآن والسنة والتاريخ الإسلامي.

كما اهتم بكتابة تراجم لمشاهير الفكر والأدب، وتناول بالنقد العلمي والأدبي موضوعات أدبية وفكرية مثل نقده كتاب "الشعر الجاهلي" لطه حسين ، وجواز ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية ، وزعم بعضهم ارتباط التعليم

بالكفر بالإسلام ، واتهام المسلمين بالتعصب ، فضلا عن مناقشة كتاب أجانب ومنصرين فيما كتبوه حول الاسلام مثل : جوستاف لوبون ، فرانك ف. فوستر ، هـ . ج . ويلز ، وهنري برين ، وأندريه هرفين وغيرهم .
ومن الجوانب الأدبية لدى محمد فريد وجدي اهتمامه بنظم الشعر إلى جانب بعض القصص أو الصور الخيالية التي تعالج بعض القضايا الفكرية والإنسانية . وشعره على كل حال قليل ، وقف منه تلميذه العقاد موقفا سلبيا مثلما فعل مع شوقي وحافظ ، وهو موقف فيه مغالاة ، فشعر وجدي يفيض إنسانية وتلقائية ، وإن كانت تغلب عليه في بعض الأحيان فكرة النظم والموسيقى الخارجية ، ومن شعره هذا النموذج الذي يتفاعل مع الطبيعة بالتأملات والرؤى الإنسانية .

صاح حي الجمال بالأفراح واغنم الأنس من ثغور الأقاح
وأهدي هي الزهور منك سلاما ذا أريج كعرفها الفياح
وأدر خمرة التأمل حتى تفقد الحس بين روح وراح
واستجش من كنوز معناك نورا واجعل القشر حصة الأشباح
عالم مدهش وكون كبير أنت فيه كذرة في البراح
أين ترمي بناظريك تلاقي عالما معجزا بعيد النواحي
رائد الفكر دونه في كلال وقوى الذهن دونه في طلاح
أيهذا الفضاء أين مكاني منك في هذه الفيافي الفساح
ما يمين وما يسار وما فوق وما تحت بين هذه المناحي
ثم ما هذه المرائي وما تلك المجالي بحسنها الوضاح
ثم ما هذه الزهور وما تلك القصور العاليات الجناح
عالم الحس دون هذا بلا شك ولكن لدى القلوب الصحاح
عالم الحس من لوازمه القيد وذا عالم طليق السراح
لذة كله وروح وراح وسرور يكال بالأقداح
***

- ٥ -

تبدو حياة فريد وجدي معركة كبرى في مواجهة النظرية المادية للفكر الإنساني ، فهذه النظرية تقاوم الدين والعلم معا . ويرى فريد وجدي أن المذهب المادي ليس هو العلم وإنما هو فرع من فروع الفلسفة التي تعتمد على العقل ، قد يصدق أو يخطئ أما العلم فهو الحقائق التي يمكن الوصول إليها بالتجربة والعقل معا . وقد أثبت العلم أن العالم ليس مادة فقط ولكنه مشحون بالقوى المختلفة ، ووجود علم ما وراء المادة أمر له تدبيره ووزنه في حل معضلات الكون (انظر : أنور الجندي ، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين ، ص ١٤٢).
كانت بداية مساجلات وجدي ومعاركه مع أقطاب الفلسفة المادية ومن ترجموا لهم أمثال دارون وبختر وشبلي شميل وفؤاد صروف .. ثم انتقل إلى المعارك التي تتصل بالانتقاص من الإسلام والفكر العربي والحضارة الإسلامية ودور العرب والمسلمين في الحضارة الحديثة .

ومن ثم كانت معاركه الباكرة في الرد على هانوتو ورينان وكرومر .. ثم كانت معركته مع قاسم أمين بشأن المرأة وحريتها ، ومعاركه السياسية مع لطفي السيد وعلى يوسف وطه حسين بعد إصداره " الشعر الجاهلي "، كما واجه الحركة التركية الكمالية وأنصارها في مصر ، وواصل ردوده على كتاب " مسائل في العلم " الذي كانت تدرّسه الجامعة الأميركية ، ومسألة العبقرية التي تحدث بها أمير بقطر ، وخصص فترة عمله طوال عشرين عاما في مجلة الأزهر لدحض شبهات حول الإسلام .
وكانت أمانته العلمية تجعله يلخص وجهة نظر الخصوم تلخيصا وافيا ، ثم يعرض لكل جزئية فيدحضها ، حتى يصل إلى الفكرة الأساسية فيقضي عليها تماما ، وكل ذلك في إطار الذوق والعلم والبعد عن الأمور الشخصية .
ولنأخذ مثالا من هذه المعارك ويتمثل في الرد على اللورد كرومر الذي هاجم الإسلام في عدد من الأمور منها إباحة الاسترقاق ، ومسألة المرأة ، واجتماع الأصول المدنية والقانونية فيه ، ونسبة تخلف المسلمين إلى الإسلام نفسه .
كان كرومر قد نشر تقريره عام ١٩٠٦،ثم كتابه مصر الحديثة ١٩٠٨ ، وقام الأستاذ وجدي بنشر أول رد في صحيفتي " إجيبشان ستاندرد ولتندار اجيبسيان " باللغة الإنجليزية حتى يتمكن كرومر وغيره من قراءة الرد باللغة نفسها التي يجيدها كرومر . وقد استهل رده بقوله : " إن وظيفتي في الهيئة الاجتماعية تحتم على ألا أهمل أمثال هذه الأحكام على المبادئ الإسلامية التي دفعت قلمي للدفاع عنها ، لا سيما إذا صدرت من رجل كبير يتخذ قومه رأيه منهاجا ".
ويشير إلى أنه مما لا خلاف فيه أن الإسلام وحده كان سبب يقظة الأمة العربية وباسم الإسلام وتأثير تعاليمه ، استطاع العرب منازعة الرومان والعجم حق السيادة الأرضية . وباسمه امتد ملك الإسلام إلى حدود الصين شرقا وإلى فرنسا غربا ، وحفظت كنوز العلم اليوناني من الدثور ، وتأسست باسمه مملكة الأندلس الباهرة ، التي كانت سببا في إيصال نور المدنية إلى أوربا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر . هل يمكن وصف المبادئ التي كونت هذه الدول ، وكانت باعثة لكل هذه المدنيات القاهرة في مدى قرون متتابعة – بأنها مبادئ تميت الشعوب التي تسود عليها ؟".
ثم يستدرك قائلا :" نعم طرأ على المسلمين فساد اجتماعي بعد قرون من ظهور الإسلام ، فهل يليق بباحث أن يلقي تبعة ذلك الفساد الطارئ على الإسلام نفسه ؟ أم الأولى أن يقال إن ذلك الفساد سببه حلول مبادئ مناقضة لمبادئ الإسلام الحقة ، وأنها ساقت الأمة إلى لوازمها ومقتضياتها " .
وينتقل الأستاذ وجدي إلى تفنيد بقية الاتهامات التي ادعاها اللورد كرومر في قضايا الرق والمرأة وجمع الإسلام بين الأصول المدنية والقانونية والدينية ، ويرد على ما أراده كرومر ولم يصرح به في القضية الأخيرة حيث يقول :" ولعل اللورد كرومر يريد مبدأ جمع الإسلام بين " الدين والسياسة " وهو المبدأ الذي حاربته أوربا من لدن القرن الثامن عشر ولم تزل تحارب بقاياه إلى اليوم لتبرز سياستها متحدة بلا دين من كل وجه ، وهو على رأي السياسيين مطلوب الروح العصرية الحاضرة " .ويبين

الفارق بين نظرة الإسلام والوضع في أوربا تجاه هذه المسألة ، فكتُب الديانة النصرانية رأت أن الأمة مكونة من طائفتين متميزتين : رجال الكهنوت وطائفة الشعب ، ووهبت للأولين من الامتيازات ما علا بهم عن مستوى العامة والخاصة معا ، ومدت في سلطتهم على الأشباح والأرواح حتى جعلتهم فوق الملوك نفوذا، فحدث من ذلك من التغاير بينهم وبين الملوك ما جر إلى أقسى الحروب وأفظعها قرونا مستطيلة . كانت أوربا في أثنائها كجذوة نارملتهبة ، واستمر النزاع حتى توصلت فرنسا لوضع حد لتلك السلطة الدينية الخطرة ، أما الإسلام فالأمر على خلاف ذلك ،لأن الاسلام بحكم مبادئه الحرة لم يعترف بوجود طائفة ممتازة تدعى طائفة رجال الدين ، فلم توجد فيهم الامتيازات الكهنوتية ، ولم تقم فيه طائفة قوية تنازع الحكومة سلطتها الزمنية ، اما علماء الإسلام في نظر الكتاب فليسوا إلا أفرادا انقطعوا لدراسة الدين بمحض اختيارهم وليس لهم أمام القانون الاسلامي أدنى امتياز مدني أو ديني ،وليس بشكل الألبسة أو أوامر دينية تجبرهم عليه ، وليس لدى المسلمين مسألة يقال إنها مسألة فصل الديانة عن السياسة ، بل لا يتصور حدوث ذلك في يوم من الأيام ، وذلك لعدم اعتراف " كتابنا" بأي امتياز لأي طائفة من الطوائف ، وإنما اجتمعت هذه عندنا في كتابنا لتكون سياستنا ذات دين لا يفارقها العطف ولا الرحمة ، ولا يزايلها اللين ولا المروءة . فعلاقة الدين بالسياسة عندنا علاقة خلقية روحانية لا علاقة ضغط وجبرية ، وليس لأحد أن يعيرنا بامتزاج سياستنا بالدين ما دام التاريخ يشهد لهذا النوع السامي من المدنية بالسبق إلى باحات الكمال البشري ".

وقد خصص وجدي مجالا متسعا للرد على كتاب مصر الحديثة للورد كرومر في جريدة الدستور ، ثم جمع ما كتبه في كتابه " اللورد كرومر والإسلام " ، أشار فيه إلى أن اللورد كرومر صغر في عينيه بسبب ضحالة معارفه التاريخية والاجتماعية والدينية ،ورأى أن السياسة قد قطعته عن العلم فلم يدرس في فلسفة الأديان كتابا واحدا ، وأشار أن أدب الاسلام يمنعه عن تناول النصرانية بمثل ما تناول به الإسلام ، ولكنه يذكره بقول العلامة " درابر":

"إن المسيحية لبثت في أوربا ألف سنة فلم تنجب عالما واحدا ، ولم يلبث الإسلام غير سنين معدودة حتى نبغ فيه ألوف من أراكين العلم والفلسفة ".

إن ذنب الإسلام في نظر أهل السياسة من أوربا – كما يقول وجدي – أنه دين يحمل الآخذ به على الإباء والشمم ، ويحميه من أن يكون مضغة للمستعمرين من الأمم ، ومعه دين لا يجافي العقل ولا يحجر عليه ، ويفتح باب الحرية المعقولة في وجه كل ميل من أميال جسده ، ويدعو للعزة الدنيوية كما يدعو للمنزلة الأخروية .

(راجع تفصيلا أكثرلمعارك وجدي : أنور الجندي ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ – ١٥١) .

- ٦ -

تبدو شخصية الأستاذ محمد فريد وجدي إنسانية إلى أبعد مدى ، فهو يحمل سمات التواضع والمثالية والصبر والاحتساب والمروءة والأدب الرفيع ، وهو من الشخصيات العصامية كما يصفه تلميذه محمد رجب البيومي ؛ في تحصيل معارف كثيرة تيسرت له دون تلقين أو توجيه حتى أصبح علما بارزا في دنيا الأدب والثقافة ،

وكان صاحب رسالة مهمة يكرس في سبيلها جهده ، ويبذل في تبليغها قوته وماله ؛ فلم يكن يتخذ من الكتابة الأدبية مجالا للتزيد والمباهاة ، ولكنه وضع أمامه هدفا مرموقا يجهد في الوصول إليه وهو الدفاع عن الإسلام ورد سهام أعدائه ومفترياتهم (النهضة الاسلامية في سير أعلامها المعاصرين ، ٩١/١) .

كان محمد فريد وجدي لا يأكل اللحم (نباتيا) بعد أن بلغ الخامسة والعشرين ، ولا يرد موارد النعيم من مصيف وملهى ورحلة ، ولو شاء لكان ذلك طوع بنانه ، وهو يحارب البدع والمنكرات مرات متتالية متعرضا لعدوات كبيرة ، يضر أصحابها وينفعون ، ويقف في وجه الحاكم إذا رأى داعيا إلى ذلك !

ثم هو متواضع تواضعا شديد في ملبسه ومأكله ، متواضع في في سلوكه مع العظيم والصغير حتى مع خادمه فإنه يتواضع معه ، وهو تواضع طبيعي غير متكلف .

يمرض أحيانا ويشتد مرضه ، فيقرأ وهو على فراش المرض مقالا متعسفا يهاجم الإسلام فيطلب أن يحمل إليه مكتبه الصغير مع القلم والورق ليرد على المقال فور قراءته وهو في مجلسه على سرير المرض ويقول لزوجه التي تشفق عليه مبتسما : تلك رسالة وأنا لا أزال حيا لم أمت ، فلا بد من القيام بها (محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي ، ص ٣٠٩ وما بعدها) .

ولعل رسم العقاد لشخصية محمد فريد وجدي يقدم لنا لوحة دقيقة بحكم قربه منه ومساعدته في تحرير صحيفة الدستور . يقول العقاد :

" هو فريد عصره غير مدافع !

وتلك كلمة مألوفة طالت ألفتها حتى رثّت وبليت وأصبحت حروفا بغير معنى .... إلا أننا نقولها اليوم عن محمد فريد وجدي لنعيد إليها معناها الذي يصدق على الصفة حرفا حرفا ، ولا ينحرف عنها كثيرا حتى في لغة المجاز " (عباس محمود العقاد ، رجال عرفتهم ، ط٣ ، نهضة مصر ، القاهرة ، ٢٠١٠ ، ص)١٢٩.

ويضيف العقاد : " تفرد في حياته الخاصة والعامة ، وفي خلقه أوتفكيره ، وفي معيشته اليومية أو معيشته الروحية وأوجز ما يقال عنه في هذه الحالات جميعا أنه لم يخلق في عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود في سيرته كما يتقاربان في سيرة هذا الرجل الفريد ...

كان نباتيا واجتنب الولائم التي لا يدعي فيها الى طعام غير طعامه

أخذ نفسه بسمت الأولين من عباد " الله "الصالحين ، فتورع عن كل بدعة من بدع الضلالة والجهالة ينكرها الدين وجهر باستنكاره لهذه البدع حين صمت الصياحون من الناطقين ، ثم إنه يعيش بالبراءة الطيبة كبراءة الطفولة (السابق ، ص ١٢٩، ١٣٦).

ويشير العقاد إلى بعض المواقف الحياتية التي عايشها مع الأستاذ وجدي ، ومنها :

عرضت عليه معونات من جهات كثيرة ليغير " الدستور " من سياسته ولكنه رفضها جميعا مع أنه كان في أمسّ الحاجة إليها بسبب قلة الموارد منها ماعرضته جماعة " تركيا الفتاة " مقابل رفع جملة " لسان حال الجامعة الاسلامية " من صدر الجريدة ... (السابق ، ص ١٣١).

ويرى العقاد أنه :

لايوجد بين كتاب عصره من توفر وحده على تأليف دائرة معارف كاملة ولا التأليف في تفسير القرآن وفي معجمات اللغة والعلم ، ولا على الجمع بين الدراسات الدينية والقصص الخيالية ، ولا على الاستقلال وحده بإصدار صحيفة يومية ولم يكن معه من المحررين غير العقاد ، ولا على الاستقلال برأيه الذي لا يمنعه من معرفة حقوق الآخرين.. .. . وكان العقاد ينشر رأيه في سعد زغلول بالدستور الذي يخالف رأي وجدي دون أن يعترضه أو يمنعه (السابق أيضا ، ص ١٣١- ١٣٢) .

ويروي العقاد قصة التحاقه بالدستور محررا ومنها نستشف أن وجدي كان ذكيا في التعرف على طاقات الآخرين من خلال بعض ممارساتهم كما كان حريصا على المواعيد ودقتها ..(السابق ، ص ١٣٥).

ومما يرويه العقاد حكاية خاصة مع فريد وجدي ، فيقول إنه ذهب إليه ومعه كتاب من كتب الفلسفة الاجتماعية ، فقال له وقد لمح على وجهه علامات المرض : وفي مثل هذا الكتاب تقرأ وأنت ترتاض للاستشفاء ؟

حدثه العقاد عن يأسه من الشفاء واعتقاده بقصر العمر .فابتسم ابتسامته الأبوية وفتح الصفحة الأولى من الكتاب وقال للعقاد : اكتب هنا .. ثم أملى عليه كلاما مضمونه أنه أي العقاد سيعود إليه وهو شيخ كبير ليعرف أنه كان على خطأ كبير حين قدرلنفسه نهاية العمر القصير.

رحم الله ذلك القلب الطهور ، وذلك الروح الكريم ، وذلك الحق الفريد ... (رجال عرفتهم ، ص ١٣٧).

ويدين العقاد إهمال المؤرخين والكتاب له في زماننا بقوله : " فما هو بالخمول ، ولا هو بالقصور عن الخلود ، ولكنه يعيش في عزلة من دنيا التاريخ كما عاش أيامه في عزلة من دنيا الحياة " (نفسه ، ص ١٣٧).

ومن خصائص شخصية فريد وجدي سلوكه اللين مع المخالفين مهما جمح بهم الأسلوب أو السلوك ، فهو ينحي جانبا الانفعالات الخاصة التي يثيرها استفزاز الطرف الآخر وعنفه اللفظي ، وينصرف إلى الحقائق العلمية ، والأفكار الموضوعية ، وكانت له في هذا المجال مواقف عديدة .

ومن ذلك موقفه من الشيخ محمد رشيد رضا الذي تحامل عليه في أكثر من مناسبة ، فقد تجاهل تحامله واستفزازه العنيف أكثر من مرة لدرجة وصفه بالجهل ، وآثر أن يناقشه كما يناقش الصديق صديقه ؛ ولما سئل في ذلك قال:

(إن كلينا يحارب في جبهة واحدة...هي الجبهة الإسلامية، وإذا كنا نحاول الرفق مع خصوم الإسلام لنستدرجهم إلى سماع ما نقول، فان الرفق بأصحاب الاتجاه الواحد أدعى وألزم) والحق إنها وجهة نظر عاقلة قلما يسلكها الناس . وحين توفي رشيد رضا رثاه وجدي رثاء مؤثرا يؤكد على دوره العظيم في خدمة الإسلام والمسلمين متناسيا ما وجهه إليه الراحل من اتهامات أو قصور، وقد فصل ذلك محمد رجب البيومي في كتابه : محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي (ص ٣١٤ – ٣٢٣) .

ومن مواقفه النادر أن عامل بريد نصرانى راسل الأستاذ وجدى (وقد كان رئيسا لتحرير مجلة الأزهر الشريف) بعشر رسائل مسهبة تزيد الرسالة الواحدة عن ست

صفحات طوال فأرسل إليه الأستاذ وجدى ردا خاصا على بريده ، وقد طلب بعضهم أن يجمع الأستاذ فريد تلك الردود والمقالات معا في كتاب مستقل فكان رده:
" لقد أرسل إلى هذا الرجل ردا مليئا بالأفكار الخاطئة وذلك بعد أن كتبت مقالا عن الإسلام والمسيحية في مجلة الأزهر وخفت أن أنشره معقبا بدحضه فيحدث النشر بلبلة لدى إخواننا المسحيين، لا أرتضيها، ثم خشيت أن أهمله فيظن حديثه صحيحا...فرأيت أن أفند آراءه في كتاب مستقل بعثت به إليه ولكنه أسهب وانتقل من موضوع إلى موضوع فدفعنى ضميري إلى الرد عليه وكرر التعقيب فكررت الرد آملا أن ينتهى النقاش عند حد حتى إذا نفد صبرى اعتذرت بعد عشر رسائل . ثم قال بتواضع وأدب: (إن الفكر أمانة وصاحب القلم ليس مخيرا دائما فيما يكتب ولكنه يُفاجَأ أحيانا بما لا سبيل إلى السكوت عنه فيحمل يراعه كما يحمل المجاهد في حومة القتال سلاحه، والله عليم بذات الصدور" (السابق ، ص ٣٢٤ وما بعدها)
لقد كان رحمه الله نموذجا فريدا في عصره غير مدافع ، فأخلص للعقيدة ودافع عن الإسلام بكل ما أوتي من جهد وطاقة ، لم ينتظر جزاء ولا شكورا من الناس ، بل كان عمله في وجهته الخالصة لرب العالمين ، وكان في سلوكه العملي مثالا للمسلم الحق الذي يبغي وجه ربه دون رياء أو استعلاء ، فترك للأمة آثارا عظيمة ما زالت تفيد الباحثين والدارسين والمسلمين في كل مكان ، وفيما يلي ، مؤلفاته التي تركها في كتب ، عدا المقالات والردود التي لم تجمع بعد ، ونأمل أن يقوم على جمعها بعض الباحثين المخلصين ، وبعض المؤسسات العلمية التي يهمها أمر الإسلام وخاصة الأزهر الشريف .
وكتبه كما أحصى معظمها أنور الجندي رحمه الله هي :
- الفلسفة الحقة : بدائع الأكوان ، مطبعة عبد الرازق (١٣١٣هـ= ١٨٩٦م).
- تطبيق الديانة الإسلامية على النواميس المدنية ، المطبعة العثمانية(١٣١٦ هـ = ١٨٩٩م) .
- الحديقة الفكرية في إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية ، مطبعة الترقي (١٣١٨هـ = ١٩٠١م) .
- المرأة المسلمة ، مطبعة الترقي (١٣١٩هـ = ١٩٠٢م) ، الطبعة الثانية ١٩٠٥م ، الطبعة الثالثة ، مطبعة هندية ،١٩٢٠م .
- الإسلام في عصر العلم ج١ ، مطبعة الترقي (١٣٢٠هـ = ١٩٠٣م) ، ج٢ ، مطبعة الشعب ١٩٠٥م .
- كنز العلوم واللغة ، ١٣٢٢هـ = ١٩٠٥م ، الطبعة الثانية ، مطبعة الواعظ ، ١٩١٦م.
- دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري والعشرين الميلادي (عشرة أجزاء) ، طبعة أولى ١٩١٨م ،طبعة ثانية ١٩٢٣م .
- المدنية والإسلام (وهو كتاب تطبيق الديانة الإسلامية وقد ألفه بالفرنسية وهو ابن عشرين عاما ثم ترجم للعربية وغيرها) ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م ، الطبعة الثانية ، مطبعة هندية ، ١٩١٢م .

- صفوة العرفان في تفسير القرآن ومقدمة ، طبع حجر مصر(١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م ، وقد طبع باسم " المصحف المفسر "، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين ، ١٩٢٥م ، ثم طبع بمطابع الشعب ١٣٧٧هـ .
- الوجديات : مقالات خيالية في سبيل الدين واللغة والوطنية ، مطبعة الواعظ ، (١٣٢٨هـ = ١٩١١م) ، طبعة ثانية ١٩٢٨م.
- مجموعة الرسائل الفلسفية – الرسالة الأولى – في معترك الفلسفتين المادية والروحية (١٣٣٣هـ = ١٩١٦م).
- كتاب المعلمين – منهج الدراسة لوزارة المعارف ، مطبعة دار المعارف ، ١٣٣٥هـ = ١٩١٨م .
-على أطلال المذهب المادي – ثلاثة أجزاء – مطبعة دائرة المعارف – ١٩٢١م .
دستور التغذي ١٩٢١م .
- نقد الشعر الجاهلي ، مطبعة دائرة المعارف ، ١٩٢٦م.
- الإسلام دين عام خالد ، مطبعة دائرة المعارف ١٩٣٢م ، وأعادت طبعه دار الهلال تحت اسم الإسلام دين الهداية والإصلاح ١٩٦٢م .
- الأدلة العلمية في جواز ترجمة القرآن ، مطبعة الرغائب ، ١٩٣٦م.
- سفير الإسلام إلى سائر الأقوام ، رسالة نشرت ١٣٢٣هـ = ١٩٠٧م ، ولاتوجد بدار الكتب ، وكانت توجد لدى المهندس محمد توفيق أحمد صاحب البريد الإسلامي رحمه الله .
- اللورد كرومر والإسلام ، ١٩٠٧م، ولا توجد نسخة منه في دار الكتب .
- مهمة الإسلام في العالم (يحتوى على ٢٤ مبحث) ونشره مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢ م .
- من معالم الإسلام ، مجموعة مقالات كتبت بمجلة الأزهر ثم جمعت في كتاب.
- السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة (يحتوى على ٤٠ فصلا) ونشر منها محمد رجب البيومي كتابين .
- ليس من هنا نبدأ..؟
- المستقبل للإسلام..؟
- أوقات الفراغ..؟
- في الرد على الماديين ، تقديم وتذييل محمد عمارة ، مجلة الأزهر ، جمادى الأولى ١٤٣٤هـ = مايو ٢٠١٣ م ، وهو دراسة نقدية لكتاب حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون .
***

وفاته

كما عاش فريد وجدي في هدوء ودون صخب ، توفي في صمت بالقاهرة فى جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ = ٥من فبراير ١٩٥٤م، عن عمر يناهز ستة وسبعين عاما قضاها في إثراء الفكر الإسلامي بمؤلفاته الموسوعية التي ما زالت تجذب الباحثين والطلاب لتقديم أطروحاتهم الجامعية عنها.
***

خالد محمد خالد :
مفكر مسلم شجاع

- ١ -

في منتصف التسعينيات من القرن الماضي التقيت به لأول مرة . كان يحضر مهرجان الجنادرية في الرياض بالسعودية ، وجاءت جلستنا قدرا متجاورين ، عرفته بنفسي ، فتذكر على الفور مجلة الاعتصام – رد الله غربتها – التي كنت أشارك في تحريرها ، وعلت وجهه الابتسامة التي تحولت إلى ضحكة عالية صافية ، استمرت وهو يراجع ذكرياته في الاعتصام كاتبا ومحررا ، مع الحاج حسن عاشور مدير تحريرها - رحمه الله . قضينا وقتا غير قصير والرجل تحكمه السماحة والرضا ورقة التعبير وفكاهته ، وكان يرافقه فيما أذكر أحد أبنائه ، وتمنيت أن ألقاه في وقت لاحق ، ولكن لم تتح لي الفرصة ، فقد كنت مرتبطا في الرياض ببعض الالتزامات التي جعلتني لم أتمكن من تكرار اللقاء .. وبعد شهور قليلة ، صحوت ذات يوم على خبر رحيله عن دنيانا ، فكتبت مقالا قصيرا نشرته في جريدة الوفد ، وأشرت فيه إلى هذا اللقاء ، وأثنيت على شجاعته في تراجعه عن بعض أفكاره التي أثارت الرأي العام في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي ، واعترافه أن ما قاله كان نتيجة لظروف ما ؛ سوف أشير إليها بشيء من التفصيل فيما بعد .

كان خالد محمد خالد (١٩٢٠ – ١٩٩٦م) من الكتاب المخلصين الذي أنجبهم الأزهر الشريف ، وكان حبه للإسلام والوطن دافعا له كي يشارك بالكلمة في المطالبة بالحرية وصناعة مستقبل أفضل لهذا الوطن وذلك الدين في ظل احتلال شرس ، وحكومة ظالمة مستبدة ، وفساد كبير يصنعه التفاوت الطبقي والمحسوبية والقهر والقمع ، وكان هذا الحب للوطن جارفا جعله أحيانا يجنح إلى بعض الآراء والأفكار التي خالفت التصور الإسلامي الصحيح ، فتحمل مسئوليتها ومضاعفاتها ، ولكنه في أوج شهرته ؛ لم يجد حرجا أن يفيء إلى الصواب ، ولم يستنكف أن يعلن تراجعه عن الخطأ ، وعودته إلى الحق وإعلانه بكل شجاعة ووضوح وبيان مستقيم أن الإسلام دين ودولة ، دنيا وآخرة ، علم وعمل ..

لقد كان خالد محمد خالد شجاعا حين واجه النظام العسكري لانقلاب يوليو ١٩٥٢ بدعوته إلى الديمقراطية ، وإصداره كتابه " الديمقراطية أبدا " من أجل أن يحصل الشعب على حريته وكرامته وحقه في المشاركة في تقرير مصيره ومستقبله .

كانت هذه الدعوة امتدادا لمواجهته النظام الملكي الفاسد الذي قضى عليه ضباط يوليو ، ورفضه للاستبداد والفساد والاستكانة للغزاة المستعمرين الذين حكموا مصر بالحديد والنار .

وكان خالد محمد خالد شجاعا في موقفه من الإخوان المسلمين الذين كان قد عارضهم قبل الانقلاب ، ولكنه بعده، وبعد أن نكل بهم الانقلابيون ومزقوهم كل ممزق، طُلِب

منه مهاجمتهم ونقدهم فأبى ، ولم يخضع للإغراء أو التهديد قائلاً: "لقد ناقشت الإخوان ونقدت فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذيبهم !! ويوم كانوا من القوة بمكان... أما اليوم وهم في المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب، فقد أوصانا سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم "ألا نجهز علي جريح" (قصتي مع الحياة ، أخبار اليوم ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٤١٧) .
وكان خالد محمد خالد شجاعا حين واجه جمال عبد الناصر بمطلب الحرية نفسه في المؤتمر القومي ، عام ١٩٦١ ، ولم ينافق من كان يحكم الوطن بالحديد والنار والمخابرات ..
مواقف الشجاعة التي بذلها خالد محمد خالد – وسوف أشير إلى بعضها تفصيلا فيما بعد - لم تلفت نظر بعض المفلسين فكريا في أيامنا ، ولكن الذي لفت نظرهم هو موقفه القديم الخاطئ الذي دعا فيه إلى فصل الدين عن الدولة ، وانبهاره بالتجربة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ، ولم يذكروا أنه تراجع عن ذلك واعترف بالخطأ في شجاعة مفكر أصيل ، غير مفلس !
لقد بدا لبعض الناس في أيامنا أن يقدموا " خالد محمد خالد " للشباب والأجيال في صورة الرجل الذي توقف عند مقولاته الأولي التي دفعت إليها حماسة الشباب واندفاعاته ورغبته في الإصلاح ، دون أن يذكروا تحولاته وتصويباته وشجاعته في التراجع ، وصوروه وهو المفكر المسلم ؛ أنه يشاطرهم مقولاتهم المنحرفة لتنحية الإسلام وإقصائه والتعتيم عليه بل استئصاله ، وهذا تدليس وتضليل نبرئ الرجل منه .
لقد كابر هؤلاء المفلسون كما سماهم " خالد محمد خالد " في تراجع الرجل عن أفكاره ، بل حاولوا إدانة من يتحدث عن هذا التراجع ، وأوسعونا دروسا فارغة في أمراض الثقافة المعاصرة ، وزعموا أننا نكاد لا نعرف الأفكار إلا من خلال أصحابها، ولا نميز القول إلا بقائليه! وأننا نعاني صعوبة موروثة في التعامل مع الأفكار الفلسفية المجردة بعيدا عن أسماء من نادوا بها أو روّجوا لها! وهكذا – كما يزعمون - تظل الفكرة لدينا شخصانية الطابع، فنحن نقبلها ونتحمس لها، ونحن نسألهم : هل التشريعات الإسلامية الربانية أفكار فلسفية ؟ وهل تراجع خالد عن مقولاته التي خالفت التشريع وأسسه بناء على فهم ووعي ونضج فكري أو لا ؟
لم يكتف هؤلاء المفلسون بذلك بل أدانوا علماء الإسلام لأنهم يقومون بشخصنة الأفكار ؛ كما يزعمون ، فضلا عن اتهامهم لهم بحفظ الثقافة الموروثة دون أن يفكروا فيها ، حيث لا مجال وفقا لتصورات المفلسين لإعمال العقل نقدا وتحليلا!
إنهم يزعمون أن علماء الإسلام يفتقدون النظرة النقدية العقلانية إلي التراث، كما تمثلت - من وجهة نظرهم - في كتابات علي عبد الرازق وطه حسين ومن حمل راية هذا النهج بعدهما مثل خالد محمد خالد ؛ دون ذكر الفارق بين الأخير والأولين في الفكر والسلوك !
ثم يزعمون أن الحديث عن تحولات خالد خروج من (تاريخ الأفكار) التي لا عهد للمتحدثين بها ، إلي سير الرجال التي يألفونها، كما يتجاهلون الظروف السياسية القاهرة التي أدت بجيل من اليساريين، خاصة بعد هزيمة١٩٦٧، ثم زيارة السادات

للكيان الصهيوني ، ثم الغزو السوفييتي لأفغانستان، وغيرها من النكبات التي حاقت بالعالم العربي والإسلامي؛ إلي الإحباط واليأس، فتخلوا عن طريق الخلاص العلمي والعقلاني، ليرتموا في أحضان الخلاص الديني كما يسمونه ! وكأن الخلاص العلمي والعقلاني ضد الخلاص الإسلامي أو العكس!

إن المفلسين يتحدثون عن واقع فكري موهوم في أذهانهم ، ويرمون علماء الإسلام وكتابه بالقصور ، ويتصورون أن تاريخ الأفكار مسألة غريبة وبعيدة عن الكتابات الإسلامية ، مع أن العرب المسلمين من أوائل من تناول تطور الأفكار عبر صيغ متنوعة لغوية ودلالية وفكرية في كتب موسوعية عديدة تشير إلى تقليب الأفكار والتصورات والدلالات سبقت ما قاله الغربيون بأزمان ..

إن تاريخ الأفكار هو أحد الفروع العلمية المعاصرة الذي يبحث في تاريخ الأفكار البشرية وتطورها وتغيرها أو الثبات فيها عبر الزمن. كما يمكن اعتباره تخصصا شقيقا للتاريخ الثقافي intellectual history، أو مقاربة من مقارباته. والعمل في مجال تاريخ الأفكار قد يرتبط بإجراء أبحاث غير تخصصية في مجالات تاريخ الفلسفة، وتاريخ العلوم، وتاريخ الأدب. الجدير بالذكر أن علم تاريخ الأفكار يعدّ من المواضيع العلمية القائمة بذاتها في السويد منذ ثلاثينيات القرن الماضي. كان ذلك عندما تم تعيين العلامة " جوهان نورد ستورم " أستاذا في هذا التخصص في جامعة أوبسالا. أما اليوم، فهناك الكثير من الجامعات التي توفر دورات وحصص تدريسية في مجال تاريخ الأفكار، وغالباً ما يكون ذلك ضمن برنامج تعليم عالي.

لقد قام المؤرخ آرثر لوفجوي (Arthur O. Lovejoy) بصك مصطلح "تاريخ الأفكار" ولقن طرق دراستها في العقود الأولى من القرن العشرين. عمل لوفجوي أستاذا للتاريخ في جامعة جون هوبكنز منذ ١٩١٠ وحتى ١٩٣٨، وهناك أشرف على اجتماعات (نادي تاريخ الأفكار) الذي قام بتأسيسه لعدة عقود.

وهناك مجموعة من الكتب التي عالجت موضوع تاريخ الأفكار منها الفكر الأوربي الحديث -علم تاريخ الأفكار – لمؤلفه فرانكلين باومر ، وهو من أهم الكتب الثقافية التي أثنى عليها النقاد .ويدور الكتاب حول علم تاريخ الأفكار وأشهر رواده إرنست كاسيرر ، وميشيل فوكو ، وإدوارد سعيد .

وهناك كتاب صغير بالعربية اسمه " علم تاريخ الأفكار " لمؤلفه عصام عبد الله ، ونشره مركز زايد للتنسيق والمتابعة بدولة الإمارات العربية المتحدة (٢٠٠٢م) .

وهناك كتاب آخر بعنوان علم التاريخ لعبد الرحمن الشيخ. يتضمن تناولا لموضوع تاريخ الأفكار .

وقد تطور ت فكرة تاريخ الأفكار لتشكل منهجا يعنى بالأفكار الكامنة في ضمائر الشعوب والجماعات ، فتكون باعثاً لها على الحركة واتخاذ المواقف . و يوظف الأعداء الأذكياء عادةً الأفكار الكامنة في توريط خصومهم في اتخاذ مواقف ليست في صالحهم (أي ليست في صالح هؤلاء الخصوم). وبذر الأفكار الكامنة التي نقصدها هنا ، لا يكون عن طريق الخطابة ،أو الإعلام المباشر ،وإنما يستغرق بثها عشرات السنين أو مئات السنين ، بل أحيانا تكون هذه الأفكار عبارة عن تراكمات تظل تتراكم طبقة فوق طبقة حتى تصل في ضمير الأمة إلى ما يشبه العقيدة بحيث لا

تخضع لمقاييس المنطق أو لا يقبل أحد أن يخضعها لذلك ، فهي تعني الأفكار أو الافتراضات السابقة التي يمتصها الناس امتصاصاً مشابها لامتصاص النبات ... ولقد وصف باحث مهتم بتاريخ الأفكار "الأفكــار المقصودة هنا" بأنها الفلسفة غير المدونة تلك الكامنة في عمق أعماق الجماعات التي لا تعد مجرد أفكار وإنما يؤمن بها الناس لأسباب غامضة أو بفعل البث المستمر سواءً أكان ذلك البث بوعي أم بدون وعي ...

لا أريد الاستطراد في تناول تاريخ الأفكار أكثر من ذلك ، ولكني أردت أن أشير إلى أن القضية التي نحن بصددها وهي تناول تحولات خالد محمد خالد ، لا علاقة لها بما يسمى تاريخ الأفكار ، لأنها ببساطة شديدة تتحرك في مسار الأفكار البشرية وتحولاتها وما يعتريها من قصور ونقصان ، أما ما نحن بصدده فهو عودة إلى الصواب في إطار آخر يتعلق بالوحي والعقيدة وارتباط الأمة بدينها وشريعتها ، ولذا كانت عودة خالد محمد خالد إلى الصواب شجاعة يثاب عليها ، وموقفا فكريا محترما يستحق الوقوف أمامه بالتقدير والتبجيل ، وليس مجرد حلقة في سياق تاريخ الأفكار تقتضيه طبيعة التطور والتغيير ..

وسوف نبين ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى ، مع مواقف أخرى تكشف عن شجاعة عالم الدين حين يتصدى لقوى سياسية واجتماعية قاهرة مسلحة بالجبروت والقوة الغشوم ، فيكون إرضاء الله – وليس الخضوع لتحولات التاريخ – هو الغاية الكبرى التي تحكم مواقفه وتحولاته ، وذلك بعد أن نطل إطلالة سريعة على ملامح بارزة في نشأته وعلمه وثقافته وعطائه ، وهو ما أهّله ليكون علما بارزا في سياق الشجاعة الفكرية والعلمية والعدول عن الخطأ ..

لقد كانت مواقف خالد محمد خالد ميدانا رحبا يجد فيه بعض الباحثين والكتاب نموذجا للكاتب أو الباحث الذي يستحق أن تتناوله أقلامهم بالكتابة والنقد والتقويم ، وهو ما يعني أن الرجل يملك شيئا ذا قيمة فكرية وعلمية في كل الأحوال ...

لقد كتب عنه من الإسلاميين الشيخ محمد الغزالي والعلامة محمد فريد وجدي والشيخ محمود شلتوت والأستاذ أحمد الشايب والشيخ الخراشي والشيخ صالح عشماوي ومحمود غزلان وأشرف عيد العنتبلي.. كما كتب عنه شاكر النابلسي ورجاء النقاش وآخرون من اليساريين والماركسيين والعلمانيين الذين هللوا لمواقفه الأولى وتجاهلوا مواقفه الجديدة .. وهو ما يشير إلى تأثير الرجل الواضح في حركة الفكر الإسلامي في العصر الحديث .

ـ ٢ ـ

في كتابه " قصتي مع الحياة " الذي نشر من قبل مسلسلا في جريدة " المسلمون " التي كانت تصدر في لندن ، وشكّل سيرته الذاتية ، تطرق خالد إلى كثير من جوانب حياته بدءا من الحديث عن أبنائه وأصدقائه وأسرته وتعليمه وعمله إلى مواقفه الفكرية والسياسية ، وتصوراته لحل مشكلات مصر ومعضلاتها الكبرى .

ولا أظن أن السياق هنا يسمح بتناول هذه التفاصيل وغيرها ، ولكن يكفي أن يلم القارئ من الأجيال الجديدة ببعض الملامح البارزة في حياة الرجل ليرى نمطا من الكتاب والمفكرين الذين جاهدوا لبناء الرؤية الإسلامية في العصر الحديث ؛ وسط

مناخ مضطرب ومتلاطم يصنعه الصراع بين ثقافة إسلامية مستضعفة تعبر عن هوية الأمة ، وثقافة أجنبية وافدة مسلحة بالقوة والمال والذكاء والغطرسة والدهاء .
***
ولد خالد محمد خالد يوم الثلاثاء ٢٧ من رمضان سنة ١٣٣٩هـ الموافق ١٥ من يونيو سنة ١٩٢٠م ميلادية، في قرية " العدوة " بمركز ههيا مديرية (محافظة) الشرقية بمصر، لأسرة ريفية متوسطة الحال تعمل بالزراعة ، كان والده متدينا ، فألحقه بكتاب القرية ، واستطاع الطفل أن يحفظ ربع القرآن، ويتعلم القراءة والكتابة في التاسعة من عمره ، وفي طفولته شهد مع والده المظاهرات التي جرت في الزقازيق ضد رئيس الوزراء ، وما تم فيها من تنكيل بالمتظاهرين ، وفي القاهرة حفظ القرآن الكريم برعاية شقيقه حسين الذي كان قاسيا في تعامله معه شديدا عليه ومع ذلك استطاع أن يحفظ القرآن كله في خمسة أشهر، ويجوّده وهو في سن العاشرة ، وكان الصبي خالد حين يقرأ القرآن يجذب إليه الأسماع بصوته الجميل العذب .
التحق خالد بالمعهد الابتدائي الأزهري بالزقازيق على مذهب الإمام الشافعي ، وقد واجهته صعوبة الدراسة في التعليم الابتدائي بسبب علوم اللغة والشريعة ، وبعد حصوله على الابتدائية (تعادل الإعدادية اليوم) ؛ التحق بالمعهد الثانوي وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وفى أثناء هذه المرحلة شارك في مظاهرات الأزهر المطالبة بعودة الشيخ المراغى إلى مشيخة الأزهر ، ورأى ما حدث لطلاب الأزهر من قمع واضطهاد ، وقد واجه صعوبة في دراسة مادة الحساب التي كانت مقررة في المرحلة الثانوية فرسب في الصف الأول بسببها ، وقد أدركته عناية الله حين أصدر الشيخ المراغى قرارا بإلغاء هذه المادة ، فاستطاع أن يحصل على الشهادة الثانوية ويواصل دراسته بالتعليم العالي ، وقد التحق بكلية الشريعة بالأزهر ، وهو في العشرين من عمره .
في أثناء دراسته تزوج ، وكان هذا أمرا مألوفا في ذلك الحين لبساطة الحياة ويسرها ، ولم يتخرج عام ١٩٤٧ م إلا وعنده طفلان ، مع شهادة تخصص التدريس .
وقد تسبب وباء الكوليرا الذي انتشر في مصر عند تخرجه في تأجيل تعيينه بالتدريس إلى سنة ١٩٤٨م وقد ظل مدرسا في التربية والتعليم حتى سنة ١٩٥٤م. ثم انتقل بأمر من جمال عبد الناصر حاكم مصر آنئذ ؛ ليعمل مستشارا بوزارة الثقافة في مشروع الألف كتاب الذي كان يهدف إلى ترجمة ألف كتاب أجنبي في معارف مختلفة إلى اللغة العربية ، وقد زامل عددا من الأدباء والمفكرين المشهورين وخاصة بعد تعيينه عضوا بالمجلس الأعلى للفنون في عام ١٩٥٨م ، ثم أشرف على لجنة تحقيق التراث في الوزارة .وظل في عمله حتى تفرغ للقراءة والتأليف سنة ١٩٧٦م .
إلى جانب ثقافته الأزهرية التي أكسبته وعيا عاليا بالإسلام واللغة العربية وآدابها ، انعكس على أسلوبه البياني الراقي ، فقد كان احتكاكه بالحركة السياسية عاملا مهما في تنمية قدراته البيانية من خلال الخطابة ، وقد تفوق في الإلقاء وهو في المرحلة الثانوية حين ألقى خطبَةً أمام النقراشي باشا ، وأتبع ذلك بالمشاركة في المناظرات الثقافية التي كانت مزدهرة في ذلك الحين لوجود جمعيات أدبية ونواد ثقافية عديدة ، نتيجة لاهتمام الأحزاب والقوى السياسية بالناحية الثقافية والقضايا الأدبية والفنية ،

فضلا عن مشاركته بالكتابة في الصحف السيارة التي كانت أيضا تهتم بالناحية الثقافية اهتماما ملحوظا في ذلك الحين ، وكان الشيخ خالد يشارك بالكتابة في بعض الصحف والمجلات الإسلامية ، وكان يكتب في مجلة الاعتصام – رد الله غربتها – وفقا لمبادئ الجمعية الشرعية ..

اطلع خالد على عيون الأدب الأجنبي ، فطالع (تاريخ الإنسانية) لويلز بأجزائه الثلاثة، وكتاب (حرية الفكر) لبيورى ، و(قصة الحضارة) كاملة لديورانت، وقرأ الروايات المشهورة ، مثل : البؤساء ، والأم ، والحرب والسلام ، والأخوة كرامازوف ، ومحتقرون ومهانون ، والمعطف . ومجموعة من قصص تشيكوف وقرأ (رأس المال) لماركس ترجمة راشد البراوى .

وفي أثناء دراسته بالقاهرة ، زار الجمعية الشرعية وأخذ عن شيخها محمود خطاب السبكي ؛ الذي وصفه بالعالم الرباني وإمام أهل السنة ومجدد رواق الإسلام ، وأنه أعجوبة من أعاجيب الزمان .

كما تعرف في أثناء دراسته الجامعية بالإخوان المسلمين ، وتردد على دارهم في ميدان العتبة الخضراء ثم الحلمية الجديدة واستمع إلى أحاديث الشيخ حسن البنا ، وكان يزورهم مع صديقه الشيخ سيد سابق . وهناك تعرف على الشيخ محمد الغزالي و الشيخ زكريا الزوكة والشيخ عبد المعز عبد الستار والأستاذ أحمد السكري والدكتور إبراهيم حسن والأستاذ توفيق أحمد والأستاذ صالح عشماوي والشيخ أحمد حسن الباقوري والشيخ محمد نايل .

وقد تنامي إعجابه بالأستاذ البنا دوما ، " فكل ما فيه يدعو للإعجاب به وبالمودة له : علمه ، وخلقه ، وسمته ، وزهده ، وتواضعه ، وتبتله وجهاده ومثابرته وتفانيه وسحر حديثه وشخصيته كلها الآسرة والمضيئة " .

وكانت علاقته بالإخوان مجرد زائر للدار ومستمع للأستاذ دون أن يرتبط معهم بعضوية أو أي التزام ... بينما أوغل الشيخ سيد سابق حتى أصبح معلما ومفتيا ، والشيخ محمد الغزالي عضوا بالهيئة التأسيسية وواحدا من قادة الإخوان وحملة الدعوة .

ثم حدثت بينه وبين الإخوان خصومة فكرية حول كتابه (من هنا نبدأ)، ووجه إليهم نقدا لاذعا في نظرتهم للمستقبل وإنشاء النظام الخاص بتكوينه السري .

ولكنه في العهد الناصري رفض المشاركة في التشهير بهم والحملة عليهم كما سبقت الإشارة ، وكما سنوضحه فيما بعد .

وبصفة عامة فقد كان خالد محمد خالد ممن يتميزون بالشهامة والمروءة ، حتى مع خصومه ، وكان محباً للخير، مسارعاً إليه، هذا الخير الذي وصفه في كتابه "لقاء مع الرسول - صلى الله عليه وسلم": " .. إنه الخير.. إنه ذلك الذي يجعل الإنسان إنساناً حي القلب، ريان الضمير.. وذلك الذي يجعل منك ملاذاً للآخرين، يأوون إليك كما يأوي المحرور إلى ظل شجرة، أو كما يأوي الظمآن إلي عين ثرة تفيض بالماء البارد النمير ".

لقد كان محبا لله ورسوله وزاهدا في الدنيا والمال والمناصب ومظاهر الجاه متأثرا بشيخه السبكي الذي كان معجبا به إعجابا كبيرا . ثم إنه كان متسامحا إلى حد كبير ،

فقد كان ينظر إلى الجانب الحسن في الشخص الذي أمامه مهما كانت جوانبه الأخرى سلبية ، ولذا كان لا يرفض إنسانا لأن فيه خطأ أو اثنين أو عشرة، فقد توجد فيه فضيلة واحدة تزن صلاح مائة عابد. وكان يحب الحياء لأنه من صفات المؤمنين ، ويكره النفاق لأنه صفة عديمي الحياء.

وفي قصته مع الحياة التي تضمنت مذكراته وعلاقاته مع الآخرين ، نجده تعامل مع شخصيات متنوعة الفكر والانتماء ، دون حساسية أو تحفظ ، فقد عرف أناسا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، واستطاع بخلقه الطيب ، وروحه المرحة أن يلقى قبولا عند جميع من عرفوه ، ولو اختلفوا معه في الرأي والتصور ، ولنا أن نتأمل مثلا علاقاته مع الجمعية الشرعية والإخوان المسلمين ومحمود النقراشي والمعارضة الوفدية والشيخ المراغي وعبد الله القصيمي ورجال الحقبة الناصرية ثم رجال الحقبة الساداتية ، فضلا عن رجال عصر مبارك ، وأعني برجال العصر مثقفيه وسياسييه ممن يتفق أو يختلف معهم ... لقد كانت هذه العلاقات تفاعلا إيجابيا يفرض تصور صاحبه ، ولا ينبطح أمام الآخرين ، ومن ناحية أخرى فإن اهتمامه بقضايا وطنه وأمته كان حاضرا في فكره وسلوكه ، وهو ما عبرت عنه مقالاته ومواقفه ، ثم كتبه التي تنوعت لتصب في دائرة الاهتمام بالمشروع الإسلامي الذي يعد أساس النهضة الوطنية والقومية والإسلامية .

وقد جاءت كتبه التي بلغت ستة وثلاثين كتابا ؛ على النحو التالي :

[من هنا نبدأ - مواطنون.. لا رعايا - الديمقراطية أبداً - الدين للشعب - هذا.. أو الطوفان - لكي لا تحرثوا في البحر - الله والحرية (ثلاثة أجزاء) - معاً على الطريق : محمد والمسيح - إنه الإنسان - أفكار في القمة - نحن البشر - إنسانيات محمد - الوصايا العشر - في البدء كان الكلمة - كما تحدث القرآن - . . وجاء أبو بكر - بين يدي عمر - وداعاً عثمان - في رحاب علي - معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز (وهذه الكتب الخمسة الأخيرة طبعت في مجلد واحد تحت عنوان : خلفاء الرسول) - مع الضمير الإنساني في مسيره ومصيره - كما تحدث الرسول - أزمة الحرية في عالمنا - رجال حول الرسول صلى الله عليه وسلم - أبناء الرسول في كربلاء - عشرة أيام في حياة الرسول - والموعد الله - خلفاء الرسول - الدولة في الإسلام - دفاع عن الديمقراطية - قصتي مع الحياة - لو شهدت حوارهم لقلت - الإسلام ينادي البشر (الجزء الأول: هذا الرسول) - إلى كلمة سواء - أحاديث قلم - لقاء مع الرسول صلى الله عليه وسلم].

- ٣ -

يمثل كتاب من هنا نبدأ لخالد محمد خالد نقطة فاصلة في تاريخ مؤلفه ، فقد أثار الدنيا في مصر والعالم العربي ، وجعل صاحبه في بؤرة الشهرة ، وذيوع الاسم ، وقد طبع في أول سنة صدر فيها (١٩٥٠ م) أربع مرات ، ثم طبع بعد ذلك في مصر بمعدل طبعة كل سنة حتى عام ١٩٦٠ تقريبا ، وبين يدي الآن الطبعة الثانية عشرة (دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م)، وفي هذه الطبعة يصدّر المؤلف الكتاب بالحكم القضائي الذي أصدرته المحكمة بالإفراج عنه والسماح بتداوله ، ثم يشيد المؤلف في مقدمته التي كتبها تالية للحكم المنشور بانتصار التقدمية الرشيدة

على الرجعية البغيضة ، ويذكر أن زئير العاصفة لا يزال يلغط ويدمدم .. ويضيف : ولكن لا بأس .. فهناك حكمة عذبة تقول : خل العاصفة تزأر ، فذلك أخلق أن يعجل بفنائها !
ويعالج المؤلف – كما يقول في المقدمة – التحول الاجتماعي ، ما هو ؟ وكيف يكون ؟ويستعين بمقولات لكتاب غربيين يدعم بها تصوراته ، مثلما يستشهد بمقولاتهم على امتداد الكتاب.. وهي مقولات لأفلاطون وفولتير وروسو وتين وج . بيوري وغيرهم .
أما ناشر الكتاب فيكتب على غلافه الأخير منتشيا بما سيحققه من مكاسب مادية هائلة :
"(الكتاب " القضية " . الكتاب الذي فجر أضخم قنبلة في معقل الجمود فكان فاتحة الانفتاح ، وكان مؤرخا لعصر الثورة ..) .
ويتضمن الكتاب أربعة فصول تعالج الواقع السياسي والاجتماعي من خلال رؤية مناقضة للإسلام ما زال يرددها الماركسيون والدنيويون من الكتّاب والمثقفين المعاصرين على النحو التالي :
الدين لا الكهانة ، الخبز هو السلام ، قومية الحكم ، الرئة المعطلة (يقصد المرأة المسلمة) .. ثم خاتمة تحت عنوان : " ..وبعد " .
وواضح أن الكتاب متأثر بالتصور الغربي للدين ، وبالماركسية في قضية العدل الاجتماعي ، وبصفة عامة فهو يفصل بين الدين والدولة ، ويرفض إسلامية الحكم ، ويستشهد بقول الرسول – صلى الله عليه وسلم عن رسالته بأنها نبوة لا ملك ، وانه رحمة مهداة ، ويرى أن العدل الاجتماعي لا يقوم على ما يسميه اشتراكية الصدقات ..!
وقد آثر الشيخ محمد الغزالي أن يناقش الكتاب جزئية جزئية ، ويقدم التصور الإسلامي مدعوما بالدليل والبرهان ، وينسف كل ما خالف التصور الإسلامي في كتاب خالد ، ولم يمنعه رفضه لما في كتاب " من هنا نبدأ " أن يشير إلى نقاط يتفق فيها معه ، ويؤيده .. وقد جاء كل ذلك من خلال حدة ملحوظة اشتكى منها خالد لأنه ما كان يتوقعها من صديقه الحميم محمد الغزالي .
في كتابه " من هنا نعلم" للشيخ الغزالي يرد على ما أثاره خالد في كتابه " من هنا نبدأ " ، حيث يتوغل في مناقشة قضايا المسلمين المعاصرين ومشكلات المجتمع المصري خاصة ، وينطلق من تناول مفهوم الحكم الإسلامي ، ويفرق بينه وبين الحكم القومي ، ويشير إلى الفساد المستكن في ثنايا المجتمع الإسلامي لأسباب عديدة خارجية وداخلية ، كما يشير إلى بقية الحروب الصليبية التي تحارب التصور الإسلامي ، ويتساءل هل هناك حكومات إسلامية الآن ؟
كما يتناول موضوع الحدود ، والإيمان الأعزل أمام الإلحاد المسلح ، وغرائز الحكومة الدينية ، وبدعة فصل الدين عن الدولة ، والسلطة الروحية والزمنية ، ويتحدث عما جري للمسلمين تحت حكم المستعمرين الغزاة ، والديمقراطية في دول الشرق والغرب ، وقضايا المجتمع الإسلامي ومشكلاته ؛ مع التركيز على موضوع

المرأة والنهضة النسائية بعيدا عن الدين والإسلام ، ويفرق بين الوحوش والحكام ، ويتحدث عن المشكلات الاقتصادية ...
وقد كان منهج الغزالي دافعا لأن يقول الشيخ " صالح عشماوي " في مقدمة كتاب " من هنا نعلم " :
(وهذا الكتاب ليس ردا لشبهات محدودة . إنه دفاع أولا عن تعاليم الإسلام ؛ وبيان جيد لما انطوت عليه من قيم ، ثم هي بعد كشف لخبايا الهاجمين على هذا الدين ، والجهات التي ينفسون عن حقدها ، ويحققون مآربها ..
وستظل الحاجة إلى هذا الكتاب ما بقي الغزو الثقافي ملحفا في النيل من مقدساتنا ، موغلا في افترائه على الإسلام ، وما بقي له أذناب يتحركون بحركته ، ويعملون تحت رايته .
وهكذا يأبى الله ألا تثار حول دينه شبهة إلا ويقيض لها من يهتك سترها ، ويريح سرها " ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا " (الفرقان : ٣٣) .
نسأل الله أن يجزيه عن الإسلام خير الجزاء وأن يوفقه للعلم النافع . (محمد الغزالي ، من هنا نعلم ، ط ٢ ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٧م ، ص ٥) .
وسأكتفي هنا بالإشارة السريعة إلى بعض القضايا التي ناقشها الشيخ الغزالي في كتاب صديقه الأستاذ خالد محمد خالد ، ليظهر من خلالها البعد الفكري الذي حكم تصورات كل منهما في تناول القضايا السياسية والاجتماعية .
حول قضية الفصل بين الدين والدولة أو بين الحكومة والإسلام يقول الشيخ الغزالي :
(.. ما يقوله الأستاذ خالد من أن الدين ليس إلا علامات تنصب أول الطريق لترشد المارة إلى اتجاهاته المختلفة ، وأنه لذلك لا علاقة له بالسلطات. هذا كلام خيالى يشبه الشعر الحالم ، فالطرق مليئة بالقطاع ، والدين إن لم يسر فيها قافلة منظمة مسلحة يوشك أن تتخطفه الشياطين من هنا ومن هناك.." (الغزالي ، من هنا نعلم ، ص٣١) .
ويضيف مستخدما التقريع والسخرية أحيانا : " على أن الأستاذ مضى فى طريقه يحارب فى غير عدو ، ويحصى عيوبا سبعة للحكومة ، هي حيثيات إقصاء الدين عن السياسة ، وطرده للأبد من الدواوين والمراسيم. فلما أعوزته الأمثلة التي تشهد لهذه النتيجة قال : " وفى الحكومات الدينية الإسلامية حدثت أهوال مروعة .. حتى إن حاكما دينيا واحدا وهو الحجاج أباد البقية الكريمة من صحابة رسول الله ". ولأول مرة يقرع سمعي أن الحجاج حاكم ديني !
وما أظن الحجاج نفسه طمح إلى هذا اللقب ، و ما أظن أحدا من المؤرخين أسبغ عليه هذا الوصف الغريب .
لكن الأستاذ خالدا فعلها ، وانتقل منها إلى أن دينا يحكم الحجاج باسمه لا يصح له أن يحكم...
" قال ابن أبى بردة بن أبى موسى الأشعري لسليمان بن عبد الملك يصف الحجاج :
" يا أمير المؤمنين. كان عدو الله يتزين تزين المومسة ، يصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عمل عمل الفرعنة. وأكذب فى حديثه من الدجال " .

وتاريخ الحجاج مثل صارخ لفسق الحكام عن أمر الله واستهتارهم الفظيع بالدماء والحرمات. ولو لقي جزاءه في الدنيا لكان الشنق أهون عقاب ينزل به. ومع ذلك فقد أصبحت تصرفاته فى نظر خالد تفسيرا للإسلام ، وتؤخذ حجة على كتاب الله وسنة رسوله!!.
ونستطيع أن نضم إلى هذا الدليل أن " نابليون بونابرت " - رضي الله عنه - اعتنق الإسلام ولبس عمامة التقى والصلاح على أيدى علماء الأزهر ، ثم ارتكب بعد ذلك من الجرائم السياسية ما نعلم... مما لا يصح معه قط أن يعتبر الإسلام دينا ودولة بعد تصرفات نابليون الشائنة ؛ فإن طبيعة الحكام الدينيين القاسية تجرى فى دمه وتنطق بخطورة تحكيم الدين فى الشئون العامة (من هنا نعلم ، ص ٣٣ -٣٤) .
وفيما يتعلق بدعوة خالد محمد خالد إلى ضرورة تحديد النسل بين المسلمين من خلال عمل حكومي منظم لتحقيق حياة أفضل ؛ يشير الغزالي إلى دور الغزاة الصليبيين في محاربة الإسلام لتنحيته عن حياة المسلمين بصفة عامة ، وإصرارهم على أن يحدد المسلمون نسلهم بصفة خاصة ؛ فيقول :
" ولذلك أوعزوا إلى كل وسائل الإعلام الخاضعة لهم أن تحارب هذه النزعة بين المسلمين وحدهم. ومن العجائب المضحكة أن الخواجة سلامة موسى ، كان جهير الدعوة إلى تقليل النسل لينخدع به المسلمون من قراء الصحف. ومات حضرته عن ثمانية أولاد!!
إن إحصاء السكان فى أنحاء العالم والمشرف عليه هو الاستعمار ، يتعمد تقليل عدد المسلمين فى أقطار أفريقيا وآسيا ، ويشيع أن عددهم نحو ثلاثمائة مليون. مع أن عدد المسلمين ستمائة مليون(كان ذلك في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين) .
والجهد الاستعماري الخبيث يتجه إلى جعل المسلمين قلة بالفعل عن طريق تحريضهم على تقليل النسل.. ومن هنا قلنا: إن تحديد النسل لآحاد الناس وفق ضرورات مشروعة لا حظر عليه. أما رسم سياسة لتقليل المسلمين ، فهو للأسف هدف صليبي لكسر شوكة الأمة ، وجعلها بالنسبة للشيوعيين والنصارى نزرا يسيرا يمكن الخلاص منه والتغلب عليه... والمحزن أن ذلك أصبح غاية مقررة لبعض الحكومات التي تقوم فى بلاد إسلامية " (من هنا نعلم ، ص ٢٩٥).
ويبدي الشيخ الغزالي تأييده لخالد في محاربة الفساد الاقتصادي ، وإقامة العدل الاجتماعي بالمفهوم الإسلامي وليس بالمفهوم الاشتراكي المجرد ، ويؤكد على رفض تحديد النسل طريقا للإصلاح الاقتصادي :
" إننا نؤيد الأستاذ خالدا فى حملاته العنيفة على الفساد الاقتصادي الذي خرب بلادنا وهدّ قوانا وأسقط اعتبارنا. ونؤيده فى أكثر المقترحات التي تقدم بها لتعمير ما خرب وتكريم من ذلوا. مع أن خالدا من دعاة الاشتراكية المجردة ونحن من دعا ة الاشتراكية الإسلامية ، إلا أن مسلكه فى نظرنا أشرف من بعض الرجال المحسوبين على الدين ، والذين لم نقرأ لهم أي كلمة يعطفون بها على بائس أو يحاربون بها صاحب عدوان. إلا أننا نرفض رفضا حاسما مقترحه العجيب فى تحديد النسل!! وربطه هذا المقترح بالإصلاح الاقتصادي ومعالم الاشتراكية. ولسنا نزعم أن تحديد النسل حرام. فقد كتب الإمام أبو حامد فى الإحياء وصدرت الفتوى من المسئولين

الرسميين عنها بإباحة التحديد إذا اقتضته ضرورات محترمة. وإنما الذي ننكره أن هناك ضرورات عامة تجعلنا ندعو الأمة إلى الاقتصاد فى الأولاد! فالحقيقة أن الفقر فى مصر مرده سوء توزيع الثروة وسوء استغلالها لا قلة الإنتاج ثم إن ما يمكن إنتاجه أضعاف ما نحصل عليه فعلا. ولو أن كل يد تستطيع العمل وجد لها المجال الذي تكدح فيه ، ولو أن الثروة الوطنية بعد ذلك وزعت على العاملين لا على القاعدين لما كان فى مصر بائس ولا محروم. إن مصر تتسع لأربعين مليونا (عدد سكان مصر المحتملين آنئذ) ، ولا يضج فرد فيه بشكوى لو أن الحكومات فى مصر فكرت فى استغلال الصحراء بالزراعة والتعدين ، وفكرت فى استغلال بحارها الواسعة ، وفكرت فى استغلال موقعها العالمي الفريد ، وفكرت فى استغلال نيلها الذي يفيض بالخير الدافق كل عام. (من هنا نعلم ، ص ١٩١) .

ـ ٤ ـ

في كتابيه " الدولة في الإسلام " ، و" قصتي مع الحياة " ، امتلك خالد محمد خالد الشجاعة الأدبية ليتراجع عن آرائه التي أعلنها في كتابه " من هنا نبدأ " ، ولم يجد حرجا أن يسرد قصة ترويجه للكتاب حين رآه راكدا لا يوزع لدي الناشر ، وهي قصة لا تقدح فيه أو في سلوكه ؛ لأنه وجد في نفسه الجرأة ليحكيها كأنه يعتذر عنها ، وهو ما لا يعتذر عنه بعض الشباب أو بعض المفلسين في زمننا حين يريدون الوصول إلى الشهرة بأسرع وسيلة ومن أقصر طريق ، ليوزعوا كتبهم الراكدة فور طبعها ؛ فيكتبون في أنفسهم بلاغات بأسماء مستعارة يرسلونها إلى الأزهر أو الرقابة أو الصحف ، ويقولون إن الكتاب الفلاني يتناول عناصر إباحية أو إلحادية أو يسبّ الحكومة أو مسئولا كبيرا ، فتهرع الجهة التي وصلها البلاغ إلى تناول الكتاب وتقديمه إلى جهات التحقيق ، ومن ثم تبدأ الأخبار تتلاحق عن الكتاب وصاحبه ، ومضمونه ، ويأخذ الناس في البحث عنه بعد حفظهم اسمه واسم كاتبه ، وسواء كان الكتاب كما وصفه صاحبه في البلاغ المقدم باسم مستعار أو لم يكن ، فإن المؤلف يجد لذة في الحديث عنه وتداول اسمه في الصحف ووسائل الإعلام المختلفة بالقدح والذم ، فضلا عن بيعه بكميات لم يكن يتوقعها .

ويحكى خالد محمد خالد قصة الكتاب منذ رفض الرقابة نشره ثم الظروف التي يسرت نشره ، فيشير إلى أنه بعد نشره لم يلفت انتباه القراء ، فالكاتب مغمور ولا يعرف القراء شيئا عنه ، ولابد من الدعاية في كبرى الصحف حتى يتعرف عليه القراء لكن ذهبت الإعلانات هباء ، ولم يتم تداوله ، فلجأ إلى حيلة اكتسبها من(برنارد شو) حيث كان في الموقف ذاته ولم يتم تداول كتابه ، فلجأ إلى مهاجمة كتابه تحت اسم مستعار حتى استطاع أن يجذب الأنظار إليه ، بالفعل سعى خالد محمد خالد إلى الفعل نفسه، فطلب من أحد أصدقائه أن يكتب مقالا يذم فيه الكتاب ويسند إليه أقبح الصفات ، وجلس كل منهما يفكر في عنوان مثير للكتاب ، واقترح خالد عنوان " كتاب أثيم .. وشيخ ضال " ودفعه صاحبه إلى الشاعر علي الغاياتي فأثنى على كاتب المقال خيرا وتعجب كيف صدر الكتاب ؟ ؟..وأين الأزهر... ؟ ونشر المقال بمكان بارز بجريدة (منبر الشرق)، فتوالت الكتابات بالرد عليه .

وأصدرت لجنة الفتوى بالأزهر توصية بمنع تداول الكتاب ، وتم تقديم بلاغ للنيابة ، تم التحقيق فيه وأصبحت قضية متداولة في المحاكم ، وانتهت بإصدار المحكمة حكما بالبراءة ، فتسابقت صحف المصري والأهرام وغيرهما إلى الحديث عن الكتاب ومؤلفه وأفسحوا له صفحات للكتابة مما أثار ردود فعل حادة ، وأخذ الكتاب طريقه للتداول بسرعة رهيبة ، ورد عليه الشيخ محمود شلتوت قبل أن يتولى مشيخة الأزهر والعلامة محمد فريد وجدي والأستاذ أحمد الشايب ، وغيرهم كثيرون .
هاجم الإخوان الكتاب وقاموا بالتصدي له في مقالات عديدة كتبها الشيخ صالح عشماوي ، كما قام الشيخ الغزالي في حدة ملحوظة بالرد عليه بكتابه " من هنا نعلم " ، الذي سبقت الإشارة إليه ، وهو ما دفع الأستاذ خالد إلى الهجوم على الإخوان ومرشدهم الأستاذ الهضيبي على صفحات الجرائد .
انتشر الكتاب بسرعة البرق بمختلف اللغات واهتمت به الصحف الأجنبية وكذلك الإذاعات الأجنبية الناطقة بالعربية ، وذاعت شهرته بدرجة كبيرة ، لدرجة أنه طبع مرات في فترة قصيرة كما سبقت الإشارة .
وعلى الناحية الأخرى لقي الكتاب حفاوة كبيرة وترويجا له من جانب الاتجاهات الرافضة للتصور الإسلامي من أمثال : سلامة موسى ومحمد خطاب ، وحفني محمود ، وكامل الشناوي الذي دعاه لمقابلته في جريدة الأهرام .
لاحظ الأستاذ خالد اهتمام الصحف الأجنبية والإذاعات الأجنبية الناطقة بالعربية اهتماما غير عادي بالكتاب ، فضلا عن ترجمته إلى أكثر من لغة وهو ما جعله يفكر في الأمر، فالغرب لا يهتم هذا الاهتمام حبا في المسلمين ونشرا للثقافة ، وما قامت هذا الردود الكثيرة على الكتاب من فراغ ، وظل يفكر لسنوات طويلة ، حتى هداه الله إلى الصواب ، فأدرك خطأه ، ووجد في نفسه الشجاعة ، وكتب كتابه : (الدولة في الإسلام) فند فيه ما ذكره حول فصل الدين عن الدولة الذي تحدث عنه في كتابه (من هنا.. نبدأ) ، وأعلن على الملأ رجوعه عن هذا الرأي، ولم يخجل – وهو الكاتب الكبير – أن يعلن أنه أخطأ... وراح يصحح ذلك الخطأ بكل قوته. فلم يترك وسيلة من وسائل إذاعة هذا التصحيح إلا أتاها ، من مقالات، أو تحقيقات صحفية أو إذاعية أو تلفزيونية... ، وراح يدلل على أن الإسلام دين ودولة، وجعل شعار الكتاب : "الإسلام دين ودولة.. حق وقوة.. ثقافة وحضارة.. عبادة وسياسة.."
يقول في كتابه : (الدولة في الإسلام) : " في عام ١٩٥٠ ظهر أول كتاب لي ، وكان عنوانه (من هنا ... نبدأ) وكان ينتظم أربعة فصول كان ثالثها بعنوان : (قومية الحكم)، وفى هذا الفصل ذهبت أقرر أن الإسلام دين لا دولة ، وأنه ليس في حاجة إلى أن يكون دولة ، ولأن الدين علامات تضيء لنا الطريق إلى الله ، وليس قوة سياسية تتحكم في الناس وتأخذهم بالقوة إلى سواء السبيل ، ما على الدين إلا البلاغ ، وليس من حقه أن يقود بالعصا من يريد لهم الهدى وحسن الثواب . ..
وقلت : إن الدين حين يتحول إلى حكومة ، فإن هذه الحكومة الدينية تتحول إلى عبء لا يطاق ، وذهبت أعدد يومئذ ما أسميته : (غرائز الحكومة الدينية)، وزعمت لنفسي القدرة على إقامة البراهين على أنها أعنى الحكومة الدينية في تسعة وتسعين في

المائة من حالاتها جحيم وفوضى ، وأنها إحدى المؤسسات التاريخية التي استنفدت أغراضها ، ولم يعد لها في التاريخ الحديث دور تؤديه . ..
وكان خطئي أنني عمَّمتُ الحديث حتى قلت : إن غرائز الحكومة الدينية تجعلها بعيدة من الدين كل البعد . ولخصت هذه الغرائز في الغموض المطلق ، إذ هي تعتمد في قيامها على سلطة غامضة لا يعرف مأتاها، ولا يدرك مداها ، وصِلة الناس بها يجب أن تقوم على الطاعة العمياء والتسليم الكلى والتفويض المطلق ."
ويفصل خالد بعدئذ كيف وصل إلى اقتناع جديد بأن الإسلام دين ودولة (الدولة في الإسلام ،ط ١ ، دار ثابت للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م ، ص ١٦ وما بعدها).
إنه يسهب في تفصيل طبيعة الدولة قبل الإسلام وبعده ، ويركز فيما بعد الإسلام على فكرة ضرورة تنصيب الإمام ، ويؤكد على أن " قيام دولة في أي أمة أمر بدهي تتطلبه طبائع الأشياء وتقتضيه سنن الاجتماع البشري " (السابق ، ص ٣٨) .
ولنا أن نتأمل تصدير خالد لكتابه الدولة في الإسلام بالآية الكريمة :
" وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك " (المائدة : ٤٩) .
ثم نتأمل ما قاله في ختام الكتاب:
" وعلينا أن نعمق إيماننا بأن الإسلام :
دين ودولة
حق وقوة
ثقافة وحضارة
عبادة وسياسة " (الدولة في الإسلام ، ص ١٠٤) .
ونضيف إلى ما سبق الملحق الذي ختم به كتابه ، حيث يقدم نموذجا لدولة العدل والحق التي أقامها عمر بن عبد العزيز بعد دولة الملك العضوض التي أقامها بنو أمية واستمرت ستين عاما ، إن دولة العدل والحق التي أقامها عمر بن عبد العزيز لم تستغرق إلا عامين وبضعة شهور وخمسة أيام ، فامتلأت بالأمن وفاضت بالخير ، وانكسر بطش الطغاة ، ولم يجدوا فيها فقيرا يستحق الزكاة !
لقد كان هذا الملحق المضاف إلى كتاب الدولة في الإسلام هو النواة الصلبة لكتابه الجميل عن عمر بن عبد العزيز ، وهو من أمتع الكتب التي قرأتها عن الخليفة الخامس بقلم خالد محمد خالد .

- ٥ -

ويلاحظ أن الشجاعة الأدبية التي حكمت موقف خالد من الاعتراف بأخطائه في كتابه " من هنا نبدأ " ، لم تمنعه من بيان السبب الذي دفعه إلى كتابة رأيه الذي أثار عليه الدنيا ، لكنه يؤكد قبل ذلك أنه لم يكن يومئذ يخدع نفسه ولا يزيف اقتناعه ، فليس ذلك والحمد لله من طبيعته .، ولكنه كان مقتنعا بما يكتب مؤمنا بصوابه في ذلك الحين (الدولة في الإسلام ، ص١١) .
أما ما دفعه إلى كتابة ما كتب في كتابه " من هنا نبدأ " فيرجع إلى سببين رئيسيين يتناولهما بتفصيل ، ونوجزهما فيما يلي .. الأول : التأثر بما قرأه عن الحكومة الدينية

المسيحية في أوربة في العصور الوسطى وما بعدها ، والآخر : التنظيم الخاص للإخوان المسلمين ، وما اتهم به من اغتيالات سياسية ، وممارسات لقيت استهجانا لديه ، فقال في نفسه : إذا كان هذا سلوك المتدينين قبل وصولهم إلى الحكم ، فكيف سيكون سلوكهم بعد أن يصلوا إليه ؟ (راجع السابق ، ص ١٢-١٥) .

ولم يكتف خالد محمد خالد بما قاله في كتاب " الدولة في الإسلام " ، فأكد ما ذهب إليه في كتابه " قصتي مع الحياة " ، وفصّل قصة الكتاب الأول " من هنا نبدأ " وقصة انتشاره وذيوعه على النحو الذي سبقت الإشارة إليه. وزاد على ذلك تفاصيل دقيقة سبقت أو رافقت أو تبعت صدور كتابه من هنا نبدأ ، وتضمنت ما فعلته الرقابة وحواره مع الشاعر الشيخ محمد الأسمر الذي أحيل إليه الكتاب لقراءته ، ومدير الرقابة " توفيق صليب " على عهد وزارة إبراهيم باشا عبد الهادي ، ومديرها " يحيى الخشاب " على عهد وزارة حسين سري باشا ، ومصادرة الكتاب ، وما جرى للمؤلف في النيابة والتحقيقات والمحكمة ، ثم استعرض ما كتب عن الكتاب ، وتوقف عند ما كتبه صديقه الحميم الشيخ محمد الغزالي ، فقد صنع الكتاب – على حد قوله – زحاما من المادحين والقادحين (قصتي مع الحياة ، ص ٣٤٩ – ٣٦٧) .

يشير خالد إلى مقدمات التراجع بالتفصيل ، فيبدو أنه تأثر إلى حد كبير بالمراجعات التي قوبل بها كتابه ، ولأنه باحث عن الحقيقة راح يتحرى ويتقصى حول موضوع الدين والدولة ، واهتدى إلى فكرة إصدار كتاب يجعل عنوانه " ما ذا أردت أن أقول ؟ " يخضع فيه ما قال للنقد الذاتي ، سواء ما تعلق بهذا الموضوع أو غيره ، ولكن لم يتحقق أمر الكتاب لا تأليفا ولا نشرا ، ولكنه تابع البحث والتحري عن الصواب أو مزيد من الصواب في الموضوع كما يقول ، واكتفي ببعض المقالات والحوارات الصحفية التي أجراها مع الراحل جابر رزق الصحفي بمجلة الدعوة – يرحمه الله – وفي هذه الحوارات وتلك المقالات أكد خالد أن الحقيقة التاريخية والموضوعية تهتف أن الإسلام لا يمكن إلا أن يكون دينا ودولة (راجع : قصتي مع الحياة ٣٧٠ – ٣٧١) .

ويبدو أن عبارة للرئيس السادات استثارت كوامن داخلية في نفس خالد محمد خالد ، فعجلت به نحو إعلان موقفه الجديد وتغيير آرائه ، والإقرار أن الإسلام دين ودولة ، ويروي بتفصيل قصة حوار جرى بين صحفي أجنبي وبين الرئيس السادات حول عبارته الشهيرة (لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة) التي يسخر منها خالد ويسميها أغنية السادات المفضلة .. فقد سأله الصحفي الخبيث كما يصفه خالد في إحدى المناسبات :

هل تعني بقولك لا سياسة في الدين ؛ كل الأديان بما فيها الإسلام ؟

فأجاب السادات : نعم . أعني كل الأديان .. كل الأديان !

وعاد الصحفي الماكر يسأله :

إذن لماذا استعنت بالدين – وأعني الإسلام بصفة خاصة ، واحتضنت الإخوان المسلمين في السنوات الأولى من رئاستك ؟

فأجاب – غفر الله له : هناك فرق بين الاستعانة بالدين وتحكيم الدين!!بين أن أقول للدين ساعدني .. وأن أقول للدين احكمني.. !! (السابق ، ص ٣٧١) .

وهنا يتساءل خالد بينه وبين نفسه : إذا كان يعني بالدين الإسلام – وهو قطعا يعنيه ، فمعنى ذلك أن المسلم محظور عليه أن يهتم بأمر الوطن والمواطنين ؛ لأن السياسة والاشتغال بها ضروريان لخدمة الوطن .. في خدمة قضاياه السياسية على الأقل !!
وبالتالي يحظر على الإسلام المشاركة في الاقتصاد والاجتماع والثقافة والتعليم .. ويرى خالد أن هذا لغو وبهتان .. ويجب أن يتقدم بكلمته الجديدة .. كلمته الثانية والأخيرة في هذا النزاع ..
ويقول خالد : "إن الإسلام كما فهمته تماما .. لا كما يفهمه المفلسون .. ولا كما يفهمه الغلاة المتطرفون .. ولا كما يفهمه المتاجرون .. هذا الإسلام الذكي ، السمح ، الفتيّ ، المضيء ، دين الإخاء القومي والوئام - العالمي – هو بيقين :
دين ودولة ..
عبادة وسياسة ..
ثقافة وحضارة ..
إخاء وتعارف ...
عندئذ عكفت على تأليف كتابي : " الدولة في الإسلام ".. (نفسه ، ص ٣٧٢) .
ثم ينقل بعض ما كتبه في كتابه هذا من ص ٥٤ إلى ص ٥٧ ، ويشير إلى الأخطاء التي تغشّت منهجه الذي عالج به قديما موضوع الحكومة الدينية .
ولا يكتفي بذلك بل يتوقف طويلا عند " العلمانية " التي يراها رد فعل لحكم الكنيسة في العصور الوسطى ، حيث تجرد ذلك الحكم من كل مَعْدَلَة ومرحمة وعقل وفضيلة ..! حتى كان هتاف بعض ثورات أوربة يقول :
" اشنقوا آخر إمبراطور بأمعاء آخر قسيس .. !! "(السابق ، ص ٣٧٦) .
- ٦ –
من مواقف الشجاعة الأدبية التي تحسب لخالد محمد خالد مواجهته مع جمال عبد الناصر في أوج قوته ، دون أن يتراجع عن موقفه الذي بدا نشازا في مؤتمر اللجنة التحضيرية الذي انعقد برئاسة أنور السادات عام ١٩٦١م.
ويشير خالد إلى ما قاله في كتابه " دفاع عن الديمقراطية " ، وما وصلت إليه الأحوال في مصر بعد انقلاب يوليو من ترويع وتطويع ، والأكاذيب التي سادت ، ووصلت إلى تجسس الأبناء على الآباء والأمهات والأقارب، وتردي الرأي ، وحلول الزيف مكان الصدق ، ومصادرة حق الشعب في الرفض والمعارضة وحرية الاختيار ، ويتخذ من المثل الشهير : " انج سعد فقد هلك سعيد " محورا لمعالجة الوضع الديكتاتوري السائد في مصر.
ويروي خالد قصة لقائه لأول مرة مع جمال عبد الناصر حيث دعاه صديقه الشيخ أحمد حسن الباقوري لمقابلته ، وقبل أن يسرد ما جرى في اللقاء يشير إلى جميل يحفظه له وطوقه به ، وهو حمايته منذ ظهر كتابه " الديمقراطية أبدا" في الشهور الأولى للثورة وحرصه على سلامه وسلامته ، ورفضه لمصادرة الكتاب ، عندما كان وزيرا للداخلية إعجابا بخالد وحبا لمقالاته وكتاباته .

ثم يسهب في تفصيل حواره الذي استمر مع عبد الناصر ساعتين ونصف الساعة حول الديمقراطية وأبعادها في مصر ، حيث أعرب خالد عن إصراره على الديمقراطية والمزيد منها منذ اليوم الأول للثورة .
في اللقاء لفت انتباه خالد مقولة لجمال عبد الناصر في خلال الحوار حول الديمقراطية : " إحنا مستعجلين على إيه ؟ إحنا قاعدين في الحكم عشرين سنة !" .
لقد أذهلته المقولة ، وجعلته حين عاد إلى بيته واستلقى على فراشه لا يغمض له جفن حتى سمع صوت أذان الفجر ينادي : الله أكبر .. الله أكبر ! ثم يتساءل خالد عما خسره عبد الناصر وخسرته مصر بسبب عدم تطبيق الديمقراطية ، وطغيان الديكتاتورية (قصتي مع الحياة ، ص٤١٢ – ٤١٨) .
في مؤتمر اللجنة التحضيرية عام ١٩٦١م ، كان صوت خالد محمد خالد نشازا ، فقد خرج على النص ، وقال كلاما مخالفا لما هو سائد في كلمات الذين سبقوه حيث دعا إلى استعادة الحرية والديمقراطية استعادة كاملة ، والآن وليس غدا ، متأسيا بنائب أميركي ذكر حكومته أنها تدخلت في حريات الشعب في أثناء الحرب العالمية من أجل الانتصار ، وبعد الحرب طالب برفع القيود فورا (الآن وليس غدا) ، كما رفض خالد فكرة العزل السياسي ، أو شنق السياسيين السابقين على الثورة كما نادى بعض المتحدثين قبله ، ويذكر أن أحدا من الأعضاء لم يصفق له مثلما كانوا يصفقون للآخرين ممن سبقوه بالحديث .
وقد تصدى بالرد عليه أول وزير للإرشاد في عهد الثورة واسمه محمد فؤاد جلال ، واتهمه بأنه يدافع عن العهد البائد ، وقد خرجت الصحف المصرية في اليوم التالي بعناوين كبيرة تقول : إن خالدا يدافع عن العهد البائد ، عدا جريدة " الجمهورية " التي نشرت كلامه كاملا ، ودفع رئيس تحريرها إبراهيم نوار – رحمه الله - ثمن ذلك !(السابق ؛ ص ٤٢٢ – ٤٢٤) .
وقد حاول النظام الناصري بعد ذلك أن يستميل خالدا إليه في حربه ضد الإخوان المسلمين بحكم ما كان بينه وبينهم من خصومة بسبب كتابه " من هنا نبدأ " ، فأرسلوا إليه من طرف صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة من يطلب منه تأليف كتاب ضد الأخوان ، وأنهم سيطبعون منه مئات الألوف من النسخ ويوزعونها على الشعب ، ولكن خالدا رفض . فعاد الرسول يطلب منه أن يسمح لهم بطبع فصل من كتابه هنا نبدأ بعنوان " قومية الحكم " الذي يهاجم فيه خالد التنظيم الخاص للإخوان ، ولكنه رفض أيضا ، انطلاقا من موقف الشهامة والمروءة بعدم الإجهاز على جريح ، فقد هاجمهم وهم أقوياء ، أما وقد فتك بهم النظام فلا تجوز مهاجمتهم قائلاً: "لقد ناقشت الإخوان ونقدت فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذيبهم !! ويوم كانوا من القوة بمكان... أما اليوم وهم في المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب، فقد أوصانا سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم "ألا نجهز علي جريح" . (نفسه ، ص ٤٢٨) .

– ٧ -

حتى اللحظات الأخيرة في حياته ، ظل خالد محمد خالد مهموما بقضايا الوطن والأمة ، وكانت تؤرقه قضية الحرية على المستويين العام والخاص ، وكانت مظاهر الفساد

والقمع والقهر والاستبداد تمثل له أهدافا مباشرة يصوب إليها سهامه في كل مناسبة ، في مقالاته وحواراته الصحفية وكتبه التي تصدر حاملة أفكاره ورؤاه .. وكان الوضع في مصر أوائل التسعينيات قد أخذ منعطفا خطيرا من حيث الفساد الذي بدأت روائحه تفوح في كل مكان والاستبداد الذي يحمي هذا الفساد ، والحريات التي يتم مصادرتها في كافة الاتجاهات ، وقد رأى أن يبرئ ذمته أمام الله والتاريخ ، فوضع صيغة حل يراه لمشكلات الوطن والأمة يتمثل في الديمقراطية التي يجب أن يتفق عليها الفرقاء السياسيون في الوطن وفي مقدمتهم الإسلاميون ، حيث فشلت كل الحلول التي تخلت عن الديمقراطية وأدخلت البلاد في متاهات لم تخرج منها حتى الآن ، ويدلل على ذلك بفشل اشتراكية عبد الناصر ، لأنه ضحى بالديمقراطية ، فتحولت اشتراكيته إلى مجرد " عَلَف " – حسب تعبيره .

إنه يرى الديمقراطية وعاء، وضياء ، ومناخا. وغيابها يجعل أي نظام سياسي جحيما على الشعب والحاكم جميعا ، ويؤكد مقولته بما حدث من مراكز القوى التي ملأت البلاد فسادا وبغيا ، ووضعت جمال عبد الناصر ذاته في أحد جيوبها. ويذكر ما تندر به صلا ح نصر ؛ رئيس المخابرات العامة حين قال : " الراجل فاكر نفسه زعيم ورئيس جمهورية .. مع إننا عاملينه " ديكور "!!

من أجل ذلك صاح جمال عبد الناصر غداة الهزيمة : " الحمد لله " انتهت دولة المخابرات ؟!

ويتناول خالد آثار الحكم الشمولي وتدميره للأمة وأبنائها على المستويين العام والخاص . ويضرب أمثلة عديدة على جرائم النظام الناصري الشمولي التي أصابت الشرفاء والوطن بطعنات نافذة وقاتلة ، وفي هذا السياق يجد في نفسه الشجاعة مرة أخرى ليعترف بخطئه حين خاطب ستالين أمين الحزب الشيوعي السوفياتي يوم موته قائلا في عنوان مقال له : " طبت حيا وميتا يا رفيق ! " ويسرد أسباب الخطأ إسلاميا وسياسيا وفكريا ، ويؤكد أنه ما كان له أن يخاطب ديكتاتورا بذلك أبدا ! (قصتي في الحياة ، ص ٤٨٤) .

يرى خالد أن الشورى في الإسلام لا تختلف قيد أنملة في جوهرها ووظيفتها وفي الغاية المتوخاة منها عن الديمقراطية بنظامها السائد في بلادها ، ويحدد عناصرها في :

١ – حق الشعب في اختيار الحاكم ورئيس الدولة بالانتخاب لا الاستفتاء .

٢ – اختيار الشعب نوابه وممثليه في برلمان رشيد يراقب الحكومة ويسحب الثقة عند اللزوم .

٣ – الأمة مصدر السلطات فيما لا يناهض نصا إسلاميا قطعي الدلالة .

٤ – أحزاب تقوم بالحكم والمعارضة .فالعدل لا يؤتمن عليه حزب واحد ، والأحزاب تشبه المذاهب الفقهية .

٥ – معارضة برلمانية دستورية لكشف عورات الحكم ن وتقويم الحكومة ، وفقا للمنهج الراشد :

إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني .

٦ – الفصل بين السلطات كي لا توضع في قبضة حاكم واحد أو حزب واحد . وحتى لا يتم تكريس الظلم والطغيان .
ويتساءل عقب عرض كل عنصر من العناصر السابقة وشرحه ، قائلا :
هل هذا يعارض الإسلام ؟
لقد كان خالد محمد خالد شجاعا حين عرض لطبيعة الديمقراطية أوالشورى وطالب مبارك بتطبيقها ، وطرح عشر نقاط ، تضمنت تخلي مبارك عن رئاسة الحزب الوطني وكل رئاسة حزبية وتشكيل حكومة ائتلافية ولجنة تمثل ألوان الطيف المصري لوضع دستور جديد يعتمد الديمقراطية والانتخاب ، ويعمل به فور إقراره والتصديق عليه ، مع حماية الدستور والحياة الدستورية بكل ما أوتينا من قوة والدعوة إلى ذلك في الإعلام والتعليم وأجهزة الدولة المختلفة (راجع : قصتي مع الحياة ، ص ٤٨٥ وما بعدها).
ما طالب به خالد محمد خالد كان أجمل ختام لحياته ، فقد طرح ما حققته يد الله بعد رحيله بخمسة عشر عاما ، حيث انتصر المصريون على الطغيان وانتخبوا نوابا لهم في انتخابات نزيهة بحق ، وبدءوا طريقهم إلى الشورى الحقيقية بعد أن سقط الخوف وزال القهر ، وانفتح الطريق بإذن الله أمام المستقبل .
***
لقد مرض خالد قبل رحيله مرضاً طويلاً، اشتد عليه في السنوات الأخيرة، ومع ذلك كان دائم القول: "لا راحة للمؤمن من دون لقاء الله " ، وتوفي بالمستشفى يوم الخميس، ليلة الجمعة ٩ من شوال سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٩ من فبراير سنة ١٩٩٦ م عن عمر يناهز السادسة والسبعين عاماً.
وتمت الصلاة عليه في الجامع الأزهر، معهده العلمي ومرتع صباه وشبابه، ودفن في قريته " العدوة " بمحافظة الشرقية مع أهله وأحبائه وأقاربه – رحمه الله وغفر لنا وله..

الشيخ القرضاوي ..
وفقه المعاصرة

- ١ -

في السبعينيات من القرن الماضي تعرفت على فكر الشيخ يوسف القرضاوي ، بداية من كتابه الحلال والحرام في الإسلام ، فقد كانت دار الاعتصام التي كنت أتعاون معها ، تسعى لطبع الكتاب مرة أخرى ، وكانت هناك بعض الأطروحات بخصوص الكتاب الذي أحدث صدى كبيرا لدى القراء في ذلك الحين . رحت أتتبع ما يكتبه القرضاوي في مجلات عربية ، منها مجلة الأمة ومجلة الدوحة القطريتين ، وكان لهما في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي شهرة كبيرة بين القراء ، وكان ما يكتبه القرضاوي يحظى باهتمام كبير ، وخاصة لدي شباب الصحوة الإسلامية ، الذين كانوا يتلقون كتاباته بوصفها توجيهات يجب تنفيذها أو مناقشتها لمعرفة ما ينبغي اتباعه أو تطويره ..

ولا ريب أن العقود الثلاثة الأخيرة شهدت ازدهار الشيخ القرضاوي في مجال الحركة الإسلامية ، بوصفه حجة في الفتوى ، وموجها للحركة الإسلامية ،وصاحب رأي فيما يجري من أحداث عامة تخص الإسلام والمسلمين ، وعزز ذلك عدم ارتباطه بنظام سياسي أو سلطة حكومية ، تتدخل عادة في الفتوى أو ترعى فريقا من علماء الدين ، الذين أطلق عليهم في مرحلة ما علماء السلطة وفقهاء الشرطة ..

أضف إلى ذلك أن الشيخ القرضاوي بما يملك من قدرة على التعبير ، ومخاطبة الجمهور بمستوياته المتعددة ، جعله يصبح المرجعية شبه الوحيدة ؛ خاصة بعد رحيل عدد من العلماء المرموقين أمثال الشيخ سيد سابق والشيخ الغزالي ، والشيخ الشعراوي والشيخ عطية صقر وأمثالهم ..

وقد عزز ذلك ظهوره في قناة الجزيرة التي ارتبط بها الجمهور العربي من المحيط إلى الخليج في العقد الأول من القرن الحالي ، لما تقدمه من مادة إخبارية مخدومة مهنيا بدرجة عالية من الاحتراف ، وفنية العرض .

-٢-

القرضاوي مدين لتكوينه الفكري والثقافي الذي مكنه من رؤية العالم الإسلامي بصورة مغايرة من خلال الفقه الذي تخصص فيه ، ليقوم بدوره في خدمة العصر ، أو ليقدم فقه المعاصرة ، دون أن يكتفي بالوقوف على تخوم استعادة ما وصل إليه من علماء السلف الصالح خاصا بزمانهم ومكانهم ، ويجتره في برودة لا تبالي بما يجري أو يحدث .

فالواقع العربي والإسلامي يمتلئ بكثير من القضايا والظواهر التي تحتاج إلى عقل جريء ، يناقش ويحلل ، ويفكر ويقدر ، ويقيس ويستنبط ، ويواجه ما يجري بروح الفقيه الأصولي الذي ينطلق من وعي عميق بعلم الأصول ، ومواضعات الواقع بما

فيه من تطورات وتغيرات تفرض أن تكون هناك إجابة واضحة تبين للناس كيف يتصرفون على ضوء عقيدتهم وإيمانهم .
لقد شهدت العقود الثلاثة الماضية كثيرا من الأحداث والظواهر والمواقف التي تفرض على المسلمين أن يلتمسوا الصواب في الفتاوى وآراء الفقهاء كي يتأكدوا أنهم يسيرون على طريق الصواب ، ويبتعدون عن الخطأ .
كانت هناك ثورة إيران الإسلامية ، والاحتلال السوفيتي لأفغانستان ، ومصرع الرئيس السادات ، واحتلال اليهود الغزاة للبنان الذي كانت تعصف به الصراعات الدموية قتالا بين الطوائف ، ومطاردة للمقاومة الفلسطينية ، والحرب العراقية الإيرانية ،واحتلال صدام للكويت وحرب القوات الأجنبية والعربية لتحريرها ، ثم انتشار العنف بين بعض الجماعات الإسلامية والسلطات وصلت إلى حد الحرب الأهلية الدامية كما جرى في الجزائر ، وتفجيرات نيويورك ، والحرب الأميركية على أفغانستان والعراق ، ثم ثورات الربيع العربي التي انطلقت مع نهايات العام ٢٠١٠م ، ومازالت تهدر حتى كتابة هذه السطور.
كانت هناك ظواهر أخرى عديدة اجتماعية واقتصادية ، طفت على سطح الحياة العامة مثل ما يسمى بالتطرف أو التشدد ، والزواج السري أو العرفي ، وما عرف بزواج المسيار ، وقضايا الحج الصعبة مثل رمي الجمار ، وذبح الأضاحي وتكدسها في المشاعر المقدسة وعدم الاستفادة منها جيدا ، وقضايا البنوك والفوائد والاستثمار ، وأوضاع المسلمين في الدول غير الإسلامية ، وكيفية التعرف على أمور دينهم ، والتوافق مع المجتمعات الأجنبية ، والظروف المختلفة في بعض بلدان العالم مثل طول النهار وقصر الليل ، وعلاقة ذلك بفريضة الصوم .. وغير ذلك من أمور نشأت نتيجة لاختلاف الزمان والمكان .
وكان القرضاوي في تلك المعمعة- إذا صح التعبير – فارسا لا يشق له غبار ، حيث تصدى للإجابة عن كثير من الأمور المتعلقة بهذه الأحداث والظواهر والأحوال منطلقا من وعيه بدور العالم الإسلامي في زمانه ، ومن خلال توظيفه لعلمه وثقافته ليدلي بدلوه في فقه المعاصرة قويا وراسخا ومقنعا .
ويلاحظ أنه في غياب الأزهر عن الساحة العامة ، وخضوع قياداته للسلطة المصرية البائدة، وتفريطها المعيب في حق الله وحقوق المسلمين ، بالانحياز للنظام المستبد ، وإصدار الفتاوى التي يطلبها ، وخاصة ما يتعلق بفلسطين والعدو النازي اليهودي ، والصمت على الجرائم النازية اليهودية ضد الشعب الفلسطيني الأسير ، واستقبال الحاخامات اليهود – رمز الغزو الصهيوني الإجرامي - في ساحة الأزهر ، ثم الموافقة على ما تفعله فرنسا ضد المسلمات هناك وتأييده نزع حجابهن ، وقبل ذلك الموافقة على فوائد البنوك الربوية ، فضلا عن قضايا أخرى ، جعل لفتاوى الشيخ القرضاوى ومواقفه حضورا قويا في وجدان الشعب المصري ، بل الشعوب العربية والإسلامية جميعا .
فقه المعاصرة الذي اتسم بالعلم العميق والشجاعة المسئولة ، وجد مساندة من العلماء الأصلاء الذي لم يخضعوا لسلطة مستبدة أو حكومة ظالمة أو دولة ذليلة تابعة للغرب الاستعماري وإرادته .

وهكذا يمكن القول إن القرضاوي سطع نجمه في الواقع العربي الإسلامي ، وتأهل ليكون قيادة فعالة في صناعة الربيع العربي الذي بدأ بثورة تونس ثم مصر ، وامتد إلى أقطار أخرى .
والسؤال الآن كيف صار القرضاوي عالما عاملا مؤثرا على هذا النحو ؟

-٣-

لقد تربى القرضاوي تربية ريفية تضع للدين مكانته العظمى في المجتمع ، وكان التعليم الأزهري غاية يسعي إليها الناس في زمانه بوصفه ميزة اجتماعية فضلا عن كونه انتماء دينيا تفاخر به الأسر والعائلات .. فمنذ ولد الشيخ الدكتور يوسف عبد الله القرضاوي في قرية صفط تراب بالمحلة الكبرى غربية يوم ١٩٢٦/٩/٩م ، ثم بدأ وعيه بالعالم من حوله ؛ فقد اتجه إلى محفظ القرآن الكريم حيث حفظه القرآن وجوّده وهو دون العاشرة، ثم أتم تعليمه في الأزهر الشريف. وحصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين عام ١٩٥٣م، وعلى إجازة التدريس عام ١٩٥٤م، وكان ترتيبه الأول في الشهادتين ،وفي عام ١٩٦٠م حصل على الدراسة التمهيدية العليا المعادلة للماجستير في شعبة علوم القرآن والسنة من كلية أصول الدين. ، ثم أحرز الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٣م .
وفي فترة التكوين تربى في مدرسة الإخوان المسلمين ، وتفتح أفقه الفكري والثقافي ، وسطعت مواهبه الأدبية في الخطابة والشعر والكتابة ، ثم اصطلى بنار الانتقام من النظام العسكري الفاشي الذي طغي في البلاد وأكثر فيها الفساد ، وكان نصيب القرضاوي أن يعتقل مع إخوانه أكثر من مرة ، ويعرف طريقه إلى معتقل الطور ، ثم يلاحق ويحاصر مثل بقية الإسلاميين .
لقد ترك عمله في مراقبة الشؤون الدينية بالأوقاف، وإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر، وذهب إلى قطر ليعمل مديراً لمعهدها الديني، فرئيساً مؤسساً لقسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية ، فعميداً مؤسساً لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ومديراً لمركز بحوث السنة والسيرة الذي كلف بتأسيسه ولازال يديره ، وكأن الله أراد له أن يجد مكانا أرحب ليمارس الدعوة على نطاق أوسع ، على نطاق العالم كله فقد شارك في المجامع الفقهية في مكة والأردن وأكسفورد وباكستان والخرطوم ، وشارك في ندوات عديدة على مستوى العالم ، وكان عضوا فاعلا في مجال المصارف الإسلامية ، وأخيرا صار رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين .
هذا النشاط المكثف للقرضاوي كان يصب في خدمة الإسلام والمسلمين في العصر الراهن على ضوء القضايا والأحداث المستجدة التي باتت تشغل الناس ، وتحتاج إلى فقه يعي ما تريده الأمة ، ويتطلب موقفا شرعيا تنطلق من خلاله إلى آفاق العمل والإنتاج والإبداع .
لقد استطاع القرضاوي أن يفيد من دراسته المتخصصة للفقه وأصوله ، في خدمة المسلمين من خلال ما أسميه فقه المعاصرة ، وهو فقه يتجاوز ما عرفه الفقهاء من السلف الصالح واقتصر على قضايا العبادات ، والمعاملات التي كانت ترتبط بالظروف المغايرة لزماننا ؛إلى القضايا المعاصرة بما فيها من مواقف وظروف مختلفة تماما عن المواقف والظروف التي عرفها القدماء ، ولذا كان جل مؤلفاته

وكتاباته وخطبه ومحاضراته وأحاديثه التلفزيونية وغيرها ، تصب في الأفق المعاصر بكل أطيافه المتباينة ، ليؤصل الرؤية الإسلامية الدقيقة في التعامل معها والحكم عليها..

إن نظرة عابرة إلى مؤلفات القرضاوي التي بلغت الثمانين أو تجاوزتها تشير إلى مدى اهتمامه وتركيزه على هموم المسلم المعاصر ، ومشكلاته ، والبحث عن حلول لها ، وتيسير العبادات والمعاملات على المسلمين وفقا لوعي عميق بمقاصد الشريعة وأصول الفقه .

من أهم كتبه التي تناولت الحركة اليومية للمسلم في تعاملاته وسلوكياته وعباداته : الحلال والحرام في الإسلام ، ومعها كتبه في الإجابة عن أسئلة المسلمين حول الحج والعمرة والأضحية وتيسير الفقه للمسلم المعاصر وفقه الغناء والموسيقى وفقه اللهو والترويح وعوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد ، والاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط ...

ومن كتبه التي عالجت قضايا المال والفقر والاقتصاد بصفة عامة : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام وبيع المرابحة للآمر بالشراء وفوائد البنوك هي الربا الحرام ودور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ودور الزكاة في علاج المشكلات الاقتصادية.

وقد اهتم اهتماما عظيما بحركة الصحوة الإسلامية وترشيدها خوفا عليها من يد البطش المتربص ، فكتب :

الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ، وأين الخلل؟ ، وأوليات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة ، وفي فقه الأوليات – دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة ، الإسلام والعلمانية وجها لوجه، الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ، ملامح المجتمع المسلم الذي ننشد.غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان ، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ، الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ، التطرف العلماني في مواجهة الإسلام، من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا ، أمتنا بين قرنين ، ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق ، تاريخنا المفترى عليه ، الإسلام والعنف، نحن والغرب : أسئلة شائكة وأجوبة حاسمة، الدين والسياسة ، الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم ، درس النكبة الثانية ، لقاءات ومحاورات حول قضايا (الإسلام والعصر (جزءان ، قضايا معاصرة على بساط البحث ، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا ، الحل الإسلامي فريضة وضرورة ، أعداء الحل الإسلامي.

ومع اهتمام القرضاوي بالقضايا المعاصرة ، ومعالجتها في أكثر من جانب ، فإنه لم ينس أن يتناول العديد من القضايا الأخرى ، فكتب في الرقائق والتفسير ، والمنتخبات من الكتب القديمة ، والسنة النبوية الشريفة والتربية والعقيدة والسلوك والتراجم وغيرها ، بالإضافة إلى جمع خطبة الكثيرة ، ومعظمها ألقاه في مسجده الذي يصلي فيه الجمعة بمدينة الدوحة بقطر .

ثم إن الرجل شاعر وأديب له أكثر من ديوان شعر يعبر من خلال شعره عن عواطفه ومشاعره تجاه الواقع والكون والأحداث والناس ، كما خطا خطوة مقدمة حين صاغ بشعره المسرحية الشعرية ،ثم خطا خطوة أخرى حين كتب السيرة الذاتية ، وسجل فيها صفحات من حياته وتاريخ مصر ، وجماعة الإخوان المسلمين التي انضم إليها في شبابه ..

وكل كتاباته وخطبه وأشعاره ومحاضراته تشعرك أن الرجل تفرغ للعلم والمعرفة والتعليم والكتابة ، وكأنه لا يتحرك خارج غرفة مكتبه ، وهذا من فضل الله عليه وعلى الناس ، أن بارك له في وقته ليستثمره هذا الاستثمار المفيد ، وبهذه الطريقة التي لا يقدر عليها إلا بعض المؤسسات الكبيرة .

ـ ٤ ـ

وقد جاءت ملاحظات باحث جاد تتبع إنتاج القرضاوي الفقهي والفكري ، لتؤكد رؤيته لفقه المعاصرة من خلال التصور الإسلامي ، ولتصب في خدمة المسلمين المعاصرين . لقد ألف وصفي عاشور أبو زيد كتابين ، يتناول فيهما كتابات القرضاوي واجتهاداته الأول : رعاية المقاصد في منهج القرضاوي.. رؤية استقرائية تحليلية تطبيقية، القاهرة، دار البصائر، ٢٠١١، ط ١.، و "القرضاوي الإمام الثائر.. دراسة تحليلية أصولية في معالم اجتهاده للثورة المصرية": وصدر عن دار سلطان للنشر بالولايات المتحدة ، ٢٠١١م .

في الكتاب الأول ؛ رعاية المقاصد في منهج القرضاوي: رؤية استقرائية تحليلية تطبيقية ، ويمهد المؤلف لموضوعه بالحديث حول فكرة التعليل عند القرضاوي ثم يخصص الفصل الأول لتوضيح ماهية المقاصد عند القرضاوي: معناها، طرق الكشف عنها، ترتيبها، وأولوياتها مع التركيز على ترتيب المقاصد وأولوياتها ، ويتناول في الفصل الثاني ملامح التجديد المقاصدي عند القرضاوي، ويتضمن مراجعات في الكليات و مراجعات في المقاصد عامة ، وفي الفصل الثالث ، يتحدث عن مجالات التجديد وتفعيل المقاصد عند القرضاوي، مثل : المقاصد والقرآن الكريم والمقاصد والسنة النبوية والمقاصد ودارسو الشريعة ، والمقاصد والاجتهاد ، المقاصد والفقه ، المقاصد والفتوى .....

ويقرر المؤلف: أن تعليل الأحكام هو الأساس الذي تنبني عليه المقاصد الشرعية، يتأسس على إثباتها إثبات القول بالمقاصد الشرعية. والتعليل المصاحب للأحكام هو المدخل المفتوح لقراءة وعى الشيخ بالمقاصد الشرعية ، وهو الأمر الذي يستفيض استفاضة ظاهرة في كتابات القرضاوي، وهى كتابات تعكس وعيه بتراث الأمة في خدمة المقاصد، ويتمثل في اقتباسات القرضاوي من مؤلفات الغزالي والشاطبي وابن القيم وغيرهم .

ويضاف إلى ذلك معايشة العلماء المعاصرين الذين اهتموا بفكرة المقاصد اهتماما واضحا من خلال معايشهم قضايا الأمة المعاصرة وهمومها ، ومنهم : محمد الغزالي، ومحمود شلتوت، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد يوسف موسى، ومحمد المدني، ومحمد أبو زهرة، وعلى الخفيف، ومحمد مصطفى شلبي، وعبد الوهاب

خلاف، وعلى حسب الله، ومصطفى الزرقا، ومصطفى السباعي، والبهي الخولي، والسيد سابق ..!
وتتشعب مباحث الكتاب ، ولكن المؤلف يهتم بتقسيمات القرضاوي للمقاصد الشرعية وتوزيعها على: الضروريات، والحاجيات، والتحسينات، وهو التقسيم الذي أظهره الغزالي ؛ويتحول عند القرضاوي إلى ما يسمى " السلم المقاصدي " بحيث يكون أمر الضروريات متعلقا بما يرد من أحكام مشددة، وعقوبات مغلظة، ثم تنزل الحاجيات لتستوعب أحكام الوجوب والتحريم غير المغلظة، ثم تتراجع التحسينات لتتعلق بأحكام الندب والكراهة.
والكتاب حافل بالقضايا التي تشغل الفقيه المعاصر ، ويظهر من خلالها جهده الفقهي والفكري ، لخدمة الأمة والمجتمعات الإسلامية .
أما الكتاب الثاني " القرضاوي الإمام الثائر.. دراسة تحليلية أصولية فى معالم اجتهاده للثورة المصرية" ، فهو يعالج دور القرضاوي وإسهاماته في إنجاح الثورة المصرية التي اشتعل في يناير ٢٠١١، والكتاب يضم أربعة فصول، تناول الأول منها "المنطلقات الشرعية لخطاب القرضاوى فى الثورة"، ويتضمن الفصل الثاني "القواعد الشرعية الحاكمة لخطاب القرضاوى فى الثورة"، متحدثا عن عشر قواعد: حق الأمة مقدم على حق الفرد. لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة. ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.المشقة تجلب التيسير.الأمور بمقاصدها. حقوق الله مبنية على المسامحة والمساهلة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة والمضايقة. للوسائل أحكام المقاصد. تصرف الحاكم على الرعية منوط بالمصلحة. كل ما خالف أصلا قطعيًّا مردود . درء أعظم المفاسد بارتكاب أخفها، وجلب أعظم المصالح بتفويت أدناها.
ويتضمن الفصل الثالث الخصائص العامة لخطاب القرضاوى فى الثورة، وهي ست خصائص: الربانية، الوسطية، المواكبة، الشمولية، الاستيعاب، البيان.
ويقدم الفصل الرابع الآثار الداخلية والخارجية لخطاب القرضاوى فى الثورة، من خلال المشهد وما قيل فى الصحف المحلية والعالمية، وجاء فى قسمين، الأول: التأثير الداخلي، الذي سلط الضوء على نواحٍ خمسة؛ شملت: الثوار، والعلماء والدعاة، والجيش والمجلس الأعلى للقوات المسلحة، وناحية الإعلام والصحافة المصريَّيْن، والشعب المصري كافة. بينما تناول القسم الثاني التأثير الخارجي، وجاء عرضه من خلال الإعلام المسموع والمقروء.
وقد تضمنت ملاحق الكتاب ، بيانات القرضاوى، وتصريحاته للفضائيات، وخطبه بعد أن تم تفريغها وتحريرها، وتخريج آياتها وأحاديثها، والتعليق عليها.
ومن العناوين التي تناولت الثورة والقرضاوي : ثورة أذهلت العالم، ثورة ربانية، ثورة قدوة ومعلِّمة ، ثورة أخلاقية سلوكية حضارية، ثورة وطنية شعبية حقيقية، ثورة من أجل المقاصد الإنسانية، ثورة أظهرت القدرة على التجديد والإبداع، ثورة حصاد عقود وإن أطلق شرارتها الشباب، ثورة ميزت مواقف الحكومات والعلماء ...
والكتابان اللذان ألفهما وصفي أبو زيد يشيران بصورة قاطعة إلى الدور الجليل الذي يقوم به الشيخ القرضاوي في خدمة الإسلام والأمة ومصر خاصة من خلال مفهومه

الأصولي المتقدم للإسلام وغاياته ، مما جعله يسبق غيره من العلماء الذين وقفوا عند حدود التاريخ ، ولم يتجاوزوه إلى الواقع المعاصر ، فضلا عن كونه قد كشف علماء السلاطين ، الذين خذلوا الأمة في وقت الحاجة ، بل كانوا عونا للمستبدين والطغاة ، بما قدموا من فتاوى غبية ، أو فتاوى حرام !

-٥-

ويمكن الآن أن نتعرف على بعض النماذج التي قدمها القرضاوي من أفكار تتسق مع فقه المعاصرة من خلال بعض كتبه ، التي عالجت قضايا الأمة الحيوية برؤية ناضجة ، وتصور متكامل..

نبدأ بموضوع العلاقة الملتبسة التي يتحدث عنها بعض الناس ، وتثير غبارا حول الدين والسياسة ،فيطرحون قضية العلمانية بوصفها تفصل بين الإسلام وممارسات السياسة على أرض الواقع ، ولكن الشيخ القرضاوي يطرح المسألة طرحا علميا ، مستمدا من أصول التشريع الإسلامي ، موثقا ما يقول توثيقا دقيقا ، لإقناع من لديه ولو ذرة من شك ، حول ارتباط الدين بالسياسة ، وغير السياسة في شئون الحياة والمجتمع ، ولذا فقد ألف كتابه " الدِّين والسياسة (تأصيل ورد شبهات) " ..

والكتاب في الأصل كان بحثا كتبه المؤلف للمشاركة في ندوة للمجلس الأوربي للإفتاء والبحوث، ليفتتح به الندوة التي عقدها المجلس في دورته السادسة عشرة في أوائل يوليو ٢٠٠٦م حول (الفقه السياسي للأقليات المسلمة في أوربا).

وقد طال البحث حتى وصل إلى صورته التي يضمها الكتاب ، ويعالج فصله الأخير موضوعا مستجدا معاصرا ، وهو الفقه السياسي للأقليات في المجتمع الأوربي .

ولكن الكتاب في عمومه يعالج موضوعا قائما في العالم العربي والإسلامي طوال القرن العشرين ، واشتد الإلحاح عليه في العقود الأخيرة حتى اليوم ، ولذا فإن القرضاوي عالج في الباب الأول ما يتعلق بتحديد المفاهيم، عن الدين والسياسة لغة واصطلاحا، ومفهوم السياسة عند الفقهاء على اختلاف مذاهبهم، وعند المتكلمين والفلاسفة، ثم عند الغربيين.

وتناول في الباب الثاني: العلاقة بين الدين والسياسة بين الإسلاميين والعلمانيين، فالإسلاميون يرون ضرورة الارتباط بين الدين والسياسة، لأدلة شرعية وتاريخية لديهم، منها فكرة شمول الإسلام. والعلمانيون يرون ضرورة الفصل بينهما، ويرتبون على ذلك نتائج وآثارا مهمة، تضر في نظرهم بالمجتمع والأمة، وفي هذا الباب أصل القرضاوي للأحكام والمبادئ الشرعية، ورد على الشبهات التي يثيرها العلمانيون.

أما الباب الثالث فخصصه للحديث عن العلاقة بين الدين والدولة، عند الإسلاميين والعلمانيين، وجعل الباب الرابع لتناول العلمانية: أهي الحلُّ أم المشكلة؟ وناقش دعوى العلمانية الإسلامية المزعومة ، وكان الباب الخامس قاصرا على تناول الأقليات الإسلامية والسياسة، كما سبقت الإشارة .

وكان القرضاوي في تناوله لقضية السياسة والدين داخل العالمين العربي والإسلامي أو أوربة واضح المنهج لكل قرائه، فلا يلقي القول على عواهنه، ولا يقلِّد أحدا فيما يرى من رأي، لا من الأئمة الأقدمين، ولا ممَّن اتخذهم الناس أئمة في عصرنا من الغربيين الذين غزت حضارتهم العالم، ومنه عالمنا الإسلامي.

إنه منهج الاعتماد على النص الصحيح في ثبوته الصريح في دلالته، وربطه بالواقع المعيش- الواقع الحقيقي لا المتوهم - دون افتعال أو اعتساف، معتمدا أسلوب الموازنة والترجيح بالأدلة، رابطا النصوص الجزئية بالمقاصد الكلية للإسلام وشريعته.

ثم إنه - كما يقول - لم يعتمد فيما كتب إلا على آية محكمة، أو حديث صحيح، أو دليل شرعي معتبر، أو منطق عقلي سليم، مسترشدًا بأقوال من يُعْتَد بهم من العلماء، ليشدوا أزره، حتى لا يقف وحده ، لا على أن أقوالهم في ذاتها حجة، فلا حجة في قول البشر إلا قول محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله رحمة، ومنحه العصمة، وهدى به الأمة.

وهو في كل الأحوال ؛ كان يرنو إلى ما تطلبه الأمة من رأي في موضوع معاصر مهم ، يكثر فيه التلاعب بالمصطلحات والمسميات بغرض التدليس على الناس ، والتمويه لإخفاء أغراض معادية للإسلام ، أو ساعية لإقصائه ومنعه من الحضور الفاعل في حركة المجتمعات والأمة الإسلامية .

***

إذا انتقلنا إلى مثال آخر ، فإننا نوقف عند موضوع الإسلام والفن ، حيث يتم توجيه السهام إلى الإسلام والمسلمين ، بأنهم ضد الفن والجمال والترويح ، وضد البهجة والفرح والمتعة .

ويقدم القرضاوي لموضوعه بالإشارة إلى ما سبق أن أورده في كتابه « بيّنات الحل الإسلامي »، حيث قال :

" لعل« الفن » هو أكثر ما يشغب به على دعاة « الحل الإسلامي » فهم يقولون: إنكم تدعون إلى حياة تحرم فيها البسمة على كل فم ، والبهجة على أي قلب ، و الزينة في أي موقع ، والإحساس بالجمال في أي صورة .

وأحب أن أقول : إن هذا الكلام لا أساس له من دين الله . وإذا كان روح الفن هو شعور بالجمال ، والتعبير عنه ، فالإسلام أعظم دين – أو مذهب – غرس حب الجمال والشعور به في أعماق كل مسلم " .

ويستطرد قائلا : "قارئ القرآن يلمس هذه الحقيقة بوضوح وجلاء وتوكيد ، فهو يريد من المؤمنين أن ينظروا إلى الجمال مبثوثاً في الكون كله، في لوحات ربانية رائعة الحسن ، أبدعتها يد الخالق المصور ، الذي أحسن خلق كل شيء ، وأتقن تصوير كل شيء : (الَذِي أَحسَنَ كلَ شَيءٍ خَلَقَه(السجدة(٧) ، (مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الْرَحْمَن مِن تَفَاوتُ) الملك(٣) ، (صنُع اللَّهِ الَذِي أَتقَنَ كُلَ شَيُ ء) النمل(٣٣) .

ثم نري القرآن الكريم يلفت الأنظار ، وينبه العقول والقلوب ، إلي الجمال الخاص لأجزاء الكون ومفرداته . .

إن القرآن بهذا كله ، وبغيره ، يريد أن يوقظ الحس الإنساني ، حتى يشعر بالجمال الذي أودعه الله فينا وفي الطبيعة من فوقنا ، ومن تحتنا ، ومن حولنا . و أن نملأ عيوننا وقلوبنا من هذه البهجة ، وهذا الحُسن المبثوث في الكون كله " .

وينبه القرضاوي إلى نقطة مهمة للغاية ، وهي الفارق بين الإسلام الذي يوقظ الحس الإنساني بالجمال ، والحضارات الأخرى التي تهتم بالشكل الخارجي المقلد فتنقل جمال الطبيعة على الحجر أو الورق ، ولا تلتفت إلى سر الجمال الإلهي ، ويتساءل :
أيهما أهم وأقوي تأثيراً في النفس البشرية : الأصل الطبيعي أم الصورة المقلدة ؟
ثم يعود ليؤكد على أن الإسلام يحيي الشعور بالجمال ، ويؤيد الفن الجميل ، ولكن بشروط معينة ، بحيث يصلح ولا يفسد ، ويبني ولا يهدم وقد أحيا الإسلام ألواناً من الفنون ، ازدهرت في حضارته وتميزت بها عن الحضارات الأخرى مثل فن الخط والزخرفة والنقوش : في المساجد ، والمنازل ، والسيوف ، والأواني النحاسية والخشبية والخزفية وغيرها .
كما اهتم بالفنون الأدبية التي نبغ فيها العرب من قديم ، وأضافوا إليها ما تعلموه من الأمم الأخرى ، وجاء القرآن يمثل قمة الفن الأدبي ، وقراءة القرآن وسماعه عند من عقل وتأمل ؛ إنما هما غذاء للوجدان والروح لا يعدله ولا يدانيه غذاء ، وليس هذا لمضمونه ومحتواه فقط ، بل لطريقة أدائه أيضاً ، وما يصحبها من ترتيل وتجويد وتحبير تستمتع به الآذان ، وتطرب له القلوب ، وخصوصاً إذا تلاه قارئ حسن الصوت ، ولهذا قال النبي (صلي الله عليه وسلم) لأبي موسى : «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود » رواه البخاري والترمذي.
ويدرك القرضاوي قيمة الفن في عصرنا ، بل في كل العصور ، ويؤكد على أنه موضوع في غاية الخطر والأهمية ، لأنه يتصل بوجدان الشعوب و مشاعرها ، و يعمل على تكوين ميولها و أذواقها ، واتجاهاتها النفسية ، بأدواته المتنوعة والمؤثرة ، مما يسمع أو يقرأ ، أو يرى أو يحس أو يتأمل .
ويرى أن الفن كالعلم ، يمكن أن يستخدم في الخير والبناء ، أو في الشر والهدم ، و هنا خطورة تأثيره .
ولأن الفن وسيلة إلى مقصد ، فحكمه حكم مقصده ، فإن استخدم في حلال فهو حلال ، و إن استخدم في حرام فهو حرام .
لقد سبق للشيخ أن عرض لموضوع « الفن » وموقف الإسلام منه ، في أكثر من كتاب له ، منها « الحلال والحرام في الإسلام » في فصل « اللهو والترفيه في حياة المسلم » ، وفي الحديث عن الصور والتصوير ، وفي مواضع أخرى .وكتاب « فتاوى معاصرة » في جزئه الأول ، وجزئه الثاني ، في فتاوى متعددة حول التصوير والغناء ، بآلة وبغير آلة ، و الدين و الضحك ، و اللعب و الشطرنج ، و غيرها .
وقد توسع في تناول الفنون المختلفة في هذا الكتاب ، المسموع منها والمشاهد ، وألوان اللهو واللعب ؛ ما يضحك وما يبكي ، وذلك بوصفها ملمحاً بارزاً من « ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده » .
ولا ريب أن شجاعة القرضاوي في تناول موضوع الفن ، تحسب له ، حيث تمثل الفنون المختلفة وسيلة فعالة في التعبير عن الأفكار والتصورات في عصرنا ؛ بصورة أقوى وأشد تأثيرا من الكلام الوعظي المباشر الخالي من روح الإقناع والتوجيه ، فضلا عن كون الفنون المختلفة يمكن أن تسهم إسهاما كبيرا في خدمة الدعوة الإسلامية ، والتعبير عن الحضارة الإسلامية العظيمة التي صنعها المسلمون

، ومدى ما يمكن أن يقدمه المسلمون في المستقبل إلى العالم والإنسانية من قيم ومثل عليا ، وإمكانات وتوجهات تفيد العالم بأسره .
***
وفي النموذج الثالث والأخير الذي نقدمه في هذا السياق تعبيرا عن فقه المعاصرة ،نتناول ما كتبه الشيخ القرضاوي ردا على بابا الفاتيكان " بندكيت السادس " الذي هاجم الإسلام دون مسوغ ، ودون أن يستفزه أحد ليشن هذا الهجوم الغريب .
في كتابه " البابا والإسلام " يفند الشيخ مزاعم البابا ، بل مفترياته التي رأى فيها المسلمون أنها لم تكن مبررة ، ولم يكن هناك ما يقتضيها إطلاقا ، إذ لم يصدُر من المسلمين شيء يُوجب توجيه هذه الهجمة إلى الإسلام.
بل إن الواقع يؤكد أن المسلمين في كل مكان، جاملوا البابا منذ تنصيبه على كرسي البابوية، وكان الشيخ القرضاوي نفسه ممَّن هنَّأ البابا على منصبه، وتلقى بسبب ذلك نقدا شديدا، بل هجوما صارخا من بعض المسلمين.
وقد جاءت كلمات الهجوم البابوية في محاضرة علمية ألقاها في جامعة غوتسبيرغ في جنوب ألمانيا، وهي الجامعة التي كان يُدرِّس فيها علم الأديان) من قبل - ووصل فيها إلى درجة الأستاذية ، منذ سنة ١٩٦٩م إلى سنة ١٩٧٧م).
ويوضح الشيخ أن هذا الهجوم لم يكن حديثا إلى الجمهور، ولا حديثا ورَّطه فيه صحفي مُشاغب، ولا حديثا عابرًا مع زوَّار له، بل كان محاضرة مُعدَّة مدروسة، تُلقى على أكاديميين مُعتبرين، في جامعة مُحترمة، من أستاذ (بروفيسور) مُتخصص في مادته، مُمارس لها سنين عدَّة، فهو يعي ما يقول، ويعني ما يقول.
وهو بوصفه(بابا)، تُدقَّق كلماته، وتُراجع فكرتها ومضامينها وأُسلوبها، من قبل الأُطر والأجهزة العلمية والفنية من حوله، حتى لا يكون فيها ما يقتضي الاعتذار، أو التراجع منه ، وهو ما لا يليق بالبابا الذي يُفترض فيه (العصمة) في زعمهم.
ومع هذا كلِّه وقع البابا في ما وقع فيه، من أخطاء وتجاوزات، لا يُعفيه من تبعتها وتحمُّل مسؤوليتها قوله: إن المسلمين لم يفهموا كلامه ! أو إنه لم يقصد بها الإساءة إلى المسلمين. إذ الكلام الصريح لا يُبحث فيه عن النية والقصد، فالنية والقصد ترجع إلى صاحبها، وهل يأثم عند الله أو لا؟ ولكن المُؤاخذة تكون على مضمون الكلام، وما يتضمَّنه من صواب أو غلط، من قصد أو شطط.
ويشير الشيخ إلى أن كل الذين سمعوا كلام البابا من المسلمين أو من غير المسلمين: استنكروه واستشنعوه، لما فيه من تهجُّم مقبوح على الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام.
وليس معقولا أن كلَّ هؤلاء من أهل الشرق وأهل الغرب، ومن المسلمين وغير المسلمين، لم يُحسنوا فهم ما عناه البابا بكلامه. فالأصل في الكلام أنه يقال ليُفهم مضمونه، ويؤثِّر في سامعه، وقد يتطلَّب منه عملا يقوم به، إيجابا أو سلبا. ولا سيما كلام رجل كالبابا له منزلته الدينية والعالمية، وخصوصا بين أتباعه من الكاثوليك، الذين يُضفُون عليه القداسة!
ويكشف السر في اندفاعة البابا الغريبة للهجوم على الإسلام ، وهو احتمال تأييده للرئيس بوش في محاربة الإسلام والمسلمين ، فيقول :

" أجل، لم يكن هناك أي توتُّر بين البابا وأي فئة من المسلمين، ولا وُجِد باعث ظاهر يدعو إلى رمي هذه القذائف، إلا أن يكون البابا قد أراد أن يُهدي إلى الرئيس الأمريكي بوش - ومعه اليمين المسيحي المُتصهين - هدية تشدُّ أزره في مُحاربة الإسلام تحت عنوان (مُحاربة الإرهاب) فأراد البابا أن يمنحه غطاء دينيا - وإن كان كاثوليكيا - يسنده ويُبرِّر تصرفاته في العراق وغيرها ، ما دام يُحارب الإسلام الذي يحمل بذور العنف في تعاليمه، والذي لم يجئ نبيه إلا بالأشياء الشريرة، واللاإنسانية، ومنها نشر دينه بالسيف.

لقد اتَّهم البابا الإسلام بأنه بفرضه الجهاد - أو الحرب المقدسة كما سمَّاها - يُنافي العقل، كما يُنافي الطبيعة الإلهية.

وزعم البابا فيما نقله نقل المقرِّ له: أن المشيئة الإلهية عند المسلمين لا يحدُّها شيء، ولا يقيِّدها شيء، ولا بأيِّ نوع من المعقولية.

واتَّكأ البابا على فِقرة نقلها من كتاب للإمبراطور البيزنطي (الأرثوذوكسي) مانويل الثاني الذي نشره رجل الدين الألماني اللبناني الأصل ثيودور خوري: (حوارات مع مسلم، (المحاورة السابعة) وهي فِقرة مُسفَّة غاية الإسفاف، تتَّسم بالجهل الفاضح، والتحامل الواضح على الإسلام).

وحين أظهر العالم الإسلامي غضبه على هذه الكلمات المُسيئة، ومنها: ما أصدره الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين من بيانات ، زعم البابا أنه ناقل، وكما يقول علماؤنا: ناقل الكفر ليس بكافر. ولكنه نقل هذا الكلام مُستشهدا به، ولهذا لم يردَّ عليه.

من هنا كان علينا نحن- يقول القرضاوي - أن نردَّ على الكلمات المثيرة التي أساءت إلى عقيدة الإسلام، وإلى شريعة الإسلام، وإلى نبي الإسلام، وإلى كتاب الإسلام، وإلى حضارة الإسلام، وإلى أمة الإسلام ".

ولم يمنع انتقاد القرضاوي الحاد لبابا الفاتيكان بالمنطق والحجة والدليل والبرهان أن يشير إلى بعض مواقف البابا الإيجابية ، وذلك انطلاقا من منهج الإسلام الذي يفرض الإنصاف وقول الحق ، ولو كان لصالح العدو ومن هذا المنطلق أشار القرضاوي إلى بعض الجوانب الإيجابية في خطاب البابا الذي هاجم فيه الإسلام والمسلمين مثل تأكيده على ضرورة تعميق أُطر الحوار بين العالمين المسيحي والإسلامي، معتبرا أن العالم الغربي، قد فقد الاعتقاد بالله في خضم النفعية العملية، ودعوته الرئيس الألماني (هورسف كولر) إلى ضرورة أن تعمل الدولة الألمانية على تحقيق اندماج أفضل للمسلمين المقيمين داخلها، محذِّرا من الإفراط في التعقيدات تجاه أبناء الأقلية المسلمة .

كما أشاد القرضاوي بموقف الباب المحافظ من التيارات الإباحية المنتشرة في الغرب اليوم، والتي باركتها - للأسف - بعض الكنائس، مثل: الزواج المثلي، وإباحة الإجهاض بإطلاق، ونزع أيدي الوالدين من تربية أولادهما. وهو ما وقف فيه الأزهر والجهات الإسلامية المختلفة مع الفاتيكان في موقف واحد، ضد هذه الاتجاهات المنحرفة، وذلك في مؤتمر السكان في القاهرة ١٩٩٤م. ومؤتمر المرأة في بكين ١٩٩٥م، وغيرها.

***

وسوف نلاحظ أن القرضاوي في فقه المعاصرة كان متواضعا تواضع العلماء الثقات ، فقد كان يعرض اجتهاداته وآراءه على زملائه وأصدقائه من العلماء الموثوقين ،وكان يقبل بملاحظاتهم المقنعة ، ويعدل ويصحح ما ذهبوا إليه ، ولا يستنكف أن يشير إلى ذلك في مقدمات كتبه التي يطالعها الناس . لقد عافاه الله من مرض الكبر وتورم الذات الذي يصيب بعض الأشخاص الذين يعملون في حقل الدعوة وغيره ، فتظهر نرجسيتهم صارخة ، وذاتهم متضخمة ، وما بالك برجل يوقع كتبه بالفقير إلى عفو ربه ، دون أن يذكر لقبا أو درجة علمية أو وظيفة إدارية أو دعوية ؟
إنها أخلاق العلماء من أبناء الدين الحنيف !

-٦-

إن موقف القرضاوي من قضايا العصر ، وتأصيلها وفقا للثوابت ومنهج الاجتهاد الأصولي العلمي ، وشجاعته في مواجهة القوى الجائرة الظالمة أو الموالية لغير الإسلام قد عرضه لكثير من الغضب والحملات التشهيرية الرخيصة ، وحرمانه أحيانا من دخول بعض العواصم العربية والغربية ، ولكن ذلك لم يفت في عضده ، ولم يمنعه من الجهر بقول الحق ، ومواجهة من يخشاهم الناس ، فالرجل – ولا نزكيه على الله – لا يخشى إلا الله ، وهو ما جعل قلوب الملايين من المسلمين ، ومن المنصفين من غير المسلمين أن يلتفوا حوله ، ويطوقوه بالمودة والحب ، ويكفي ذلك الحب الغامر الذي لقيه الرجل في جمعة الانتصار بميدان التحرير في القاهرة عقب سقوط النظام الظالم في مصر . لقد صلى الجمعة ، بعد أن خطب خطبتها التي سمعتها الملايين في أرجاء الأرض ، والتفت الجماهير حوله حبا وعرفانا ،وتقديرا لدوره الثوري الداعم للشعب المصري في مواجهة الطغاة القتلة !
ثم إن الرجل حظي بتقدير العديد من الجهات العلمية والمؤسسات الدعوية والخدمية ، في العالم العربي وخارجه ؛ فقد شارك في كثير من المنظمات الإسلامية والمؤسسات التي تخدم المجتمعات العربية والإسلامية ، وحاضر في العديد من الجامعات والمنتديات الثقافية ؛ العربية والإسلامية والأجنبية ، وقد منحته جهات عديدة جوائزها وشهاداتها التقديرية اعترافا بدوره وفضله في خدمة الإسلام والدعوة الإسلامية . ومنها جائزة البنك الإسلامي للتنمية في الاقتصاد الإسلامي لعام ١٤١١هـ. وجائزة الملك فيصل العالمية بالاشتراك في الدراسات الإسلامية لعام ١٤١٣هـ. وجائزة العطاء العلمي المتميز من رئيس الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا لعام ١٩٩٦م. وجائزة السلطان حسن البلقية (سلطان بروناي) في الفقه الإسلامي لعام ١٩٩٧م.
لقد كان القرضاوي في حياته العامة والعلمية منحازا إلى ربه ودينه وأمته .

الطاهر مكي :
الوجه الآخر !

- ١ -

لا أذكر في أية سنة من الستينيات في القرن الماضي عرفت أستاذي الدكتور الطاهر أحمد مكي (١٩٢٤ - ..) . ولكنني رأيته لأول مرة بعيدا عن المحاضرات ومدرجات الدراسة في حديقة دار العلوم بالمنيرة (المبتديان) ، وحوله مجموعة من الطلاب والطالبات ، وكان يتكلم في الشأن العام بجرأة غير معهودة في عصر كان شعاره " الحيطة لها ودان !" . كان يتكلم عن الحرية وحق المواطن في التعبير عن رأيه وأشياء أخرى تصب في هذا السياق لا أذكر عباراتها بدقة . كنت في ذلك الحين أكتب بعض المقالات والموضوعات وأنشرها في بيروت ، وأحاول بطريقة ما أن أعبر عن أشواق الإنسان المصري الذي سحقته الثورة " المباركة " ، وأذلته أمام العدو النازي اليهودي في فلسطين ، وجاء لقاء الطاهر مكي في حديقة دار العلوم ليعطيني مددا غير مسبوق في الجرأة عند الحديث عن قضايا الأمة المكلومة .
لم يكن الرجل مثل الآخرين الذين ينكفئون على موادهم وكتبهم العلمية لا يخرجون عنها ولو بكلمة ، ويحترسون في كل لفظ يفوهون به ، أو يضعون بينهم وبين طلابهم متاريس من الفوقية والجهامة كي لا يقترب منهم أحد ، وربما عوّضوا ذلك باستعراض مفتعل في مناقشات الماجستير والدكتوراه يقهر الطالب ويؤذيه . كان الرجل قريبا من كل طلابه ، بسيطا في ملبسه وكلامه الذي مازالت تسيطر عليه آثار من اللهجة الصعيدية المحبّبة ، ويجيب على كل سؤال يوجه إليه من أي سائل ، ويبدو في كل الأحوال ابن الناس الذي يمشي على الأرض دون مرح أو خيلاء .
اقتربت منه كثيرا في المناقشات العلمية والسفر الطويل إلي بعضها في أسيوط والمنيا ، وتداولت معه كثيرا من القضايا والحكايا والأسرار ،واستمتعت بروحه الإنسانية البسيطة ،وتشربت منه حب المعرفة والرحلة ، ولا أظنني مللت سماعه ، ولا سئمت

لقاءه ، ولولا ظروفي الصحية التي أقعدتني عن الحركة إلآ لضرورة ملحّة ما انقطعت عن التواصل معه والنهل من معينه العذب .
وحين طلب مني الكتابة عنه لتكريمة كانت سعادتي كبيرة لأقدم إليه بعض السطور عرفانا بفضله ، وحبا لشخصه ، واعتذارا عن تقصير السلطة في تقديره ، مع أنها تقدر من أهم أقل منه قامة وقيمة وما أكثرهم ، فنحن طلابه وتلاميذه نعرف قيمته الحقيقية ونقدره حق قدره أفضل من أية سلطة لا تلتفت إلا إلى نوعية معينة وفصائل خاصة .
أقدم الوجه الآخر لأستاذ الجامعة الذي لا يكتفي بأضابيره وبحوثه ، أو الأستاذ الذي يقود أمته للنجاة من قيود الرق، وسطوة الطغاة ، والمثقفين الذين يخدمونهم ويضللون الشعوب ويدلسون عليها .
يمكن لغيري أن يقدم جهد الرجل في المجال العلمي باستفاضة باحثا في الأندلسيات أو محققا لكتب التراث أو مترجما لبعض الأعمال الأجنبية المهمة ، أو استاذا في مجال التخصص مع طلابه في مرحلة الليسانس أو الدراسات العليا وهو مجال تفوق فيه وأثبت أستاذية يدين بالفضل من خلالها عدد كبير من ألوف الطلاب والباحثين في مشارق الوطن العربي ومغاربه ، فضلا عن بلاد إسلامية عديدة .
يمكن القول إن الوجه الآخر للطاهر مكي في هذا المجال هو التضحية بتكوين أسرة لينجب أبناء أعزاء يعرفهم العالم العربي والإسلامي . وهو مواجهة الأوضاع الفاسدة في التعليم والثقافة والسياسة والمجتمع . وهو التنبيه إلى الأخطار التي تحدق بالأمة والوطن والناس .
في مجال البحث هناك أبناؤه :
امرؤ القيس: حياته وشعره (١٩٦٨).
دراسة في مصادر الأدب (١٩٦٨).
بابلو نيرودا شاعر الحب والنضال (١٩٧٤).
دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة (١٩٧٦) .
القصة القصيرة: دراسة ومختارات (١٩٧٧).
مع شعراء الأندلس والمتنبي (١٩٧٨).
الشعر العربي المعاصر: روائعه ومدخل لقراءته (١٩٨٠).
دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة (١٩٨٠).
الفن العربي في إسبانيا وصقلية (١٩٨٠) .
الشعر الأندلسي في مصر(١٩٩٠) .
الأدب الأندلسي من منظور إسباني (١٩٩١).
الشعر العربي في إسبانيا وصقلية (١٩٩١) .
مناهج النقد الأدبي (١٩٩١) .
الشعر العربي المعاصر: روائعه ومدخل لقراءته (١٩٩٦).
في الأدب المقارن : دراسات نظرية وتطبيقية (١٩٨٨) .
الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه (١٩٨٩).
مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن (٢٠٠٢).

أصداء عربية وإسلامية في الفكر الأوروبي الوسيط (٢٠٠٥) .
وفي مجال التحقيق هناك ابناه بالتبني :
طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي (١٩٧٧).
"الأخلاق والسير في مداواة النفوس" لابن حزم الأندلسي (١٩٨٥).
وفي ميدان الترجمة هناك أبناء روحيون :
ملحمة السّيد (١٩٧٠)
الحضارة العربية في إسبانيا ـ ليفي بروفنسال ـ عن الفرنسية (١٩٨٠) .
الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ـ عن الفرنسية(١٩٩٠) .
التربية الإسلامية في الأندلس: أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية ـ خوليان ريبيرا (١٩٨٠) .
الوجه الآخر للطاهر مكي هو دوره العملي في الدفاع عن الحرية والكرامة الإنسانية وحق الوطن في الاستقلال والانضمام إلى قافلة بناة الحضارة والمنتجين للثقافة الأصيلة .

ـ ٢ ـ

ما أردت أن أشير إليه هنا هو دوره الثقافي في توجيه النخبة إلى مواجهة الواقع المتردي للأمة العربية ، ومقاومة عوامل التحلل والاندثار والفساد ، وخاصة الفساد السياسي والثقافي الذي تسرب في خلايا الأمة بتقديم الفكر الزائف والأدب الرخيص والفن الهابط .
لقد بدأ دوره في الشأن العام مذ كان طالبا صغيرا في ربعه الريفي بكيمان المطاعنة التي كانت تابعة يومئذ لمديرية قنا ، وصارت الآن تابعة لمحافظة الأقصر ، بقراءة الصحف اليومية لأهل قريته وإن لم يفهم معظم ما يقرأ ، ولكنه يؤدي دورا مهما يعني الناس ويشغلهم ، ويسعون إلى فهم أبعاده ، ثم مشاركته وهو طالب في المعهد الدينى بقنا في النشاط المعادي لدولة الاحتلال الانجليزي بالخروج في المظاهرات والهتاف ضد المحتل المتوحش ، وتتاح له الفرصة في قريته ليقابل شخصية من أهم شخصيات زمانه وهو الإمام الشهيد - بإذن الله - حسن البنا فيصاحبه ويتعرف عليه وهو في مقتبل حياته ، ويعجب بمنهجه وسلوكه ودقته ونظامه ، وحين ينتقل إلى القاهرة للدراسة في المعهد الديني الثانوي يزداد معرفة به ، وهو ما أهله ليكتب عنه أجمل مقال يترجم له في مجلة " الدوحة " القطرية ، وسنعرض له بعد قليل إن شاء الله ، ثم يتابع نشاطه في الانخراط ضمن المظاهرات الرافضة للاحتلال والاستبداد ، وتشغله الدراسة والتخرج في دار العلوم والانبعاث إلى الخارج (إسبانيا خاصة) ويعود ليؤدي دوره معلما في الجامعة، ولكنه ليس أي معلم ، إنه رائد في توجيه الشباب نحو المعاني الكبيرة والمثل العليا وبناء الأوطان على أسس الحرية والديمقراطية والعدل .
كانت مشاركاته في الحياة العامة خارج أسوار الجامعة سعيا لتحقيق هذه المثل وتلك المعاني لدرجة أنه انضم لحزب التجمع الذي يضم خليطا من اليسار واليمين والقوميين ، ولكنه غادره قبل أن تصل به الحال (أي الحزب) إلى تحكم القيادة الشيوعية فيه وهروب آلاف المنتسبين إليه حين اكتشفوا ولاءه الحميم للنظام المستبد

الفاشي نظير مكاسب تافهة مثل تعيين بعض قياداته في مجلس الشورى أو مجلس الشعب .
كانت رغبة أستاذي الطاهر مكي في الإصلاح والتغيير وبناء نظام ديمقراطي حقيقي من وراء هذه التجربة الحزبية التي لم تستمر ، فقد جرّب أن يترشح لمجلس الشعب ، ولكنه اكتشف طبيعة النظام الذي لم يكن مخلصا في حديثه عن الديمقراطية ، وكان محترفا في تزوير الانتخابات وتمرير من يريدهم من النواب المصفقين والهتيفة حتى لو لم يحصلوا إلا على أصواتهم وأصوات المحيطين بهم دون أن يحصلوا على الأغلبية .
شارك الدكتور الطاهر في نشاط الحزب الثقافي وكانت هذه نقطة إيجابية إلى حد ما ، وتولى تأسيس مجلة الحزب الأدبية واسمها " أدب ونقد "، وأخذت المجلة تمضي قدما في ظل تسامحه ورحابة صدره ، وإيمانه بتعدد الآراء والاتجاهات ، ولكن القوم - وكانوا يتولون إدارة التحرير والتنفيذ - غلب عليهم طبعهم الإقصائي ، فحوّلوها إلى مجلة ذات اتجاه واحد ، وانغلقت على دائرة معينة ، وما كان من الرجل إلا أن ترك الجمل بما حمل ، وأعتقد أن هذا كان آخر عهده بحزب التجمع الذي انهار بعدئذ انهيارا غير مسبوق !
واكتفى الرجل بعدئذ بكتاباته في بعض المجلات والصحف ، يعبر عن أرائه في الشأن العام والشأن الثقافي ، ويطرح أمنياته لتحسين الأوضاع هنا وهناك ، وكانت السن المتقدمة تفرض نوعا من تقليل النشاط خارج الجامعة ليتركز حول التدريس ومناقشة بحوث الماجستير والدكتوراه والمشاركة في بعض اللجان الثقافية النوعية ، فضلا عن المشاركة – بحكم العضوية - في نشاط المجمع اللغوي بالقاهرة .
ولا حظت أن آراءه التي تظهر في أحاديثه الصحفية ومقالاته التي ينشرها في العقدين الأخيرين تواجه ما يجري في الحقل الثقافي بوضوح قاطع ، مما ترك أثرا أو رد فعل تمثل في تجاهله وعدم مشاركته في الأنشطة الثقافية الرسمية ، وعدم منحه الجائزة الكبرى التي كانت تسمى جائزة مبارك وصارت تسمى جائزة النيل بينما حصل عليها من أهم أقل منه قامة وقيمة ، صحيح أنه نال جائزة الدولة التقديرية ، ولكن حين ينال الجائزة من هم أقل منه بكثير ؛ فمعنى ذلك أن الأمور مقلوبة ، وليست سوية على صراط مستقيم . الرجل في كل الأحوال لا يعبأ بمثل هذه الأمور ، فقد نذر نفسه للعلم ، ويرى فيه لذة لا تعادلها لذة أخرى .

ولعله من منطلق إيمانه بالحرية ، ولأنه لا ينتظر جزاء ولا شكورا ، ولا يرهب عقابا أو تهديدا كتب عن سيد قطب وحسن البنا .
جريدة اليوم السابع يوم الأربعاء ١٤ أبريل ٢٠١٠ أبرزت عناوين مقاله عن سيد قطب ، على النحو التالي :
- د. الطاهر مكى يكتب عن سيد قطب : لم يكن متطرفاً ولا رجعياً ولا متخلفاً ولا جامداً وكان صادقاً مع نفسه ومع ما يؤمن به .
- تمنيت أن أكون تلميذه وحينما طلبت مقابلته قال: هذا ليس فى صالحك.. وافترقنا على أمل لقاء لم تأت به الأيام.

- كان الوحيد الذى تجرأ على نقد كتاب طه حسين «مستقبل الثقافة» وأثبتت الأيام صدق آرائه.. وحينما احتفل المجلس الأعلى للثقافة والجامعة الأمريكية بحسين تجاهلا دراسته!
وأكتفي باستعراض دراسته عن حسن البنا - رحمه الله ، وهي كما أشرت - أجمل ترجمة وأكثرها موضوعية وصدقا عن حياة الرجل . إن من يكتب عن حسن البنا أو الإخوان المسلمين يتعرض في هذا الوطن إلى متاعب عديدة ، بحكم أن النظام العسكري الحاكم منذ انقلاب ١٩٥٢م ، يخوض صراعا وحشيا غير متكافئ أو من جانب واحد مع الجماعة ورموزها ، وكم نكل بأعضائها تنكيلا وصل إلى حد إعدام بعضهم وتعذيب آخرين وتغييبهم وراء القضبان سنوات طويلة ، فضلا عن حرمانهم وذويهم من دخول الكليات العسكرية والشرطية ، وعدم تعيينهم بالوظائف التي تسمى سياديّة أو حسّاسة ، فلا يعملون في القضاء أو النيابة أو الخارجية أو الجامعة أو التعليم أو الثقافة . ثم محاربتهم عند الترشح للمجالس النيابية أو المحلية أو النقابية مما يعرفه من يتابعون الشأن العام .
ومع أنه قدم صورة نبيلة لرجل نبيل هو حسن البنا فلم يمنعه ذلك من انتقاد بعض أتباعه ، ويبين الأسباب التي دعته إلى ذلك وهي أسباب موضوعية كما نرى في مكان لاحق من هذه الفقرة .
كان عنوان مقاله عن البنا لافتا : (صورة إنسانية بعيدة عن السياسة - حسن البنا كما عرفته) وكأنه أراد أن يتخلص من أية مماحكات يفتعلها خصوم البنا السياسيون ، ويرسم هذه الصورة الإنسانية يوم رآه للمرة الأولى مذ كان صبيا فى قرية نائية من قرى مركز إسنا، في الصعيد الأعلى ، تسكنها قبائل عرب المطاعنة التى ينتمى إليها حتى رحيل حسن البنا بالاغتيال عام١٩٤٩ودفنه في حراسة الشرطة دون مشيعين !
كان مكي عند معرفته البنا لا يعرف شيئًا مهمًّا عن السياسة والكفاح ومساوئ الاحتلال الإنجليزى وجبروته، والهجمة الشرسة على الإسلام دينًا، فى القاهرة والمدن الكبرى، وحبائل جمعيات التبشير، وأجهزة الإعلام الأجنبية، وفيض الكتب والنشرات التى توزعها مؤسسات تتخفى وراء العلاج والتعليم، وتوزع مع العلم والصحة الإلحاد والزيغ، وفتنة المسلمين عن دينهم.
فى تلك الأيام التي كان يذهب فيها إلى الكتّاب سمع أن حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين حلّ ضيفًا على ديوان عائلته فى كيمان المطاعنة، على بعد كيلو مترات من محل إقامته، فشدّ الرحال إليها، مأخوذًا برؤية شخصية قادمة من القاهرة، يظهر اسمها فى الصحف بين حين وآخر، ويكتب المقال الافتتاحى فى مجلة "النذير"، وكان ذلك فى أواخر شهر أغسطس من عام ١٩٣٨م.
ويصف هذا الضيف الوافد فيقول : يرتدى ملابس بيضاء فضفاضة، بسيطة ونظيفة، ويلف فوق طربوشه شاشًا، معتدل القامة والبنية، أبيض مشربًا بحمرة، مرسل اللحية، نافذ البصر والبصيرة، يتحرك وسط جموع الريفيين البسطاء كأنه هالة من نور، وهم حوله فرحون به، يعرف كيف يملك قلوب المئات الذين توافدوا من النجوع التى حول القرية، بعضهم طلاب فى الأزهر، والغالبية فلاحون، جاءوا مدعوّين، أو ليسلموا عليه، أو مستطلعين.

ويتوقف عند زيارة البنا وكيف أمضاها وجمع الناس على كلمة خير ، وفي الوقت ذاته كان يرافقه فى هذه الرحلة "أ.ح" وكان يومها شابًا فارعًا، فى مقتبل العمر، موفور الجسد، قوى البنيان، تخرج فى الأزهر حديثًا، يرتدى الزى الأزهرى كاملا : عمامة وقفطانًا وكاكولة، ويذكر واعيًا أن الناس لم يرتاحوا إليه، رأوا فى حركاته تصنعًا وافتعالا، وفى حديثه عجبًا وخيلاء، وكلها فيمن يرون أشياء لا تليق بالعلماء، ولا تعكس ملامح وجهه شيئًا من نور الصالحين وتقاهم، وبدا لهم كأنه يطل عليهم من علٍ، فتركوه فردًا ضائعًا فى ضجيج المتزاحمين حول البنا، وإن أعطوه حق الضيافة كاملا.

ويرصد انتقال البنا من كيمان المطاعنة إلى أصفون المطاعنة، ونشاطه هناك ولقاءاته مع أهلها ، ويتناول رحلته في العام التالي إلى الصعيد كله فى شهر سبتمبر ١٩٣٩م، ليؤكد صلته بالناس، ويدعم شُعَب الإخوان التى أقيمت، ويحاول أن يحلّ مشكلات أهل المطاعنة الاقتصادية والعائلية، وأن يوجههم نحو الخير، وأن يصرفهم عن بعض ما يقومون به من عادات، يسمع بها ولم يرها، كالثأر والتشاحن والعصبية القبلية، وكان احتفاء الناس به كبيرًا فى هذه المرة وقوبل بإطلاق البنادق فى الهواء زيادة فى التكريم.

فى هذه المرة رآه الطاهر عن قرب أكثر، فقد كبر عامًا، وازداد اهتمامه بمعرفته، ولم يغير هو شيئًا فى برنامجه، أو عبادته، أو ملابسه، غير أنه صحب شابًا أزهريًّا آخر، ولا زال يذكر اسمه، مع أنه لم يره بعد هذه المرة أبدًا، هو الشيخ عبد المعز عبد الستار، وكان طالبًا فى كلية أصول الدين يومها فيما يقال، وقد أحبّه الناس بقريب مما أحبوا البنا، فقد كان متواضعًا وقورًا، يشيع الصلاح من وجهه، "يغضى حياء، ويغضى من مهابته "، وواصلا رحلتهما فى بقية مدن أعلى الصعيد.

فى العام التالى انتقل الطاهر إلى قنا عاصمة المديرية، تلميذًا فى معهدها الابتدائى، وكانت مدينة منطفئة، يصعب فيها الحصول على صحيفة أو كتاب، فتردّد على جمعية الشبان المسلمين ليحضر بعض المهرجانات الدينية، فى المواسم المعتادة، مثل رأس السنة الهجرية، والمولد النبوى، وغزوة بدر، وشىء من النشاط الرياضى، وفى تلك الأيام كان الناس يتخذون من المناسبات الدينية وسيلة لتغذية الشعور العام، وإيقاظ روح الوطنية والنضال، ضد المحتل ، دون أن يستطيع منعهم أو التصدى لهم.

فى تلك الأيام أحس، وهو على أبواب الشباب أن جمعية الشبان المسلمين مكان طيب لقضاء الوقت، والتدرب على الخطابة، ولكنها بلا غايات سياسية واضحة وصريحة، وأن تحرير الوطن لن يجىء عن طريقها، وكان منظر الجنود الأعاجم من كل الجنسيات والألوان سكارى فى آخر الليل يثيرالناس، ويلهب فى أعماقهم الحماسة والتمرد، ويدفعهم إلى الاصطدام بهم دفعًا.

وساقته قدماه صدفة إلى شعبة الإخوان المسلمين، وانضم إليها فى الحال وفى ذاكرته صورة هذا الرجل العبقرى الذى رآه فى ديوان قبيلته منذ عامين.

كان نشاط الإخوان المسلمين متنوعًا، يشمل المحاضرات والدروس، والتدريب على الخطابة، والرحلات، وكل ضروب التعاون على الخير، وفى ٢٠ مايو ١٩٤١م

أصدر حسين سرى رئيس الوزراء قرارًا بنقل حسن البنا من مدرسة عباس الأول الابتدائية بالقاهرة إلى مدرسة قنا الابتدائية، وكان ذلك مع نهاية العام الدراسى، ولعله جاء ليتسلم العمل فقط، ثم سافر ثانية، وجاء مع بدئه، فكان إلى جوار البنا جل وقته.
كان البنا نموذجًا فى دقته، موظفًا على ذكاء شديد، وقدرة فائقة فى تحويل المواقف لصالحه، وحين جاءت الأوامر السرية لناظر المدرسة بأن يرهقه بالعمل، فيوكل إليه أقصى قدر من الساعات، والمدارس يومها تجرى على نظام اليوم الكامل، من السابعة والنصف صباحًا حتى الرابعة بعد الظهر، لم يتململ البنا من هذا، وكل ما هنالك أنه رغب فى أن يقوم بتدريس الخط العربى، وسعدت المدرسة برغبته، وسعد بها زملاؤه، فقد كان المدرسون يهربون من هذه المادة؛ لأنهم يرونها أدنى من غيرها، ولعزوف الطلاب عنها، واعتمادها على الموهبة وحدها، وعدم اعتناء المفتشين بها، فأعطوها له شاكرين!.
أما البنا نفسه فكان يهدف من وراء هذه الرغبة إلى غايتين، أولاهما: أن الساعات المقررة للخط أسبوعيًا ساعتان، ومعنى هذا أنه سوف يدرس لكل تلاميذ المدرسة البالغ عددها ١٥ فصلا، سوف يلتقى بكل هؤلاء الصغار، وهم على أبواب الشباب، فيصنع منهم الرجل الذى يريده لبلاده، وهو ما حدث فعلا، فهذا المدرس البشوش، المبتسم دائمًا، العطوف فى هدوء، والحنون فى وقار، جعل من حصة الخط شيئًا جميلا، يقبل عليها الصغار فرحين، فهو يتباسط معهم فى القول، ويحدثهم عن كثير من شئونهم، ولا يبعد بهم عن عالمهم، ويسألهم فى غير إحراج أو تأنيب: من الذى صلى منهم الصبح فيكافئه ويطريه، ومن الذى يحفظ شيئًا من القرآن فيسمعه منه ويصحح له، فإذا جاءت فسحة وسط النهار تواعد معهم على اللقاء فى مصلى المدرسة.
وبعد شهر واحد كان أحب الأساتذة إلى كل تلاميذ المدرسة بلا استثناء!.
أما الغاية الثانية: فهى أن حصة الخط تنتهى بانقضاء وقتها، فلا تصحيح بعدها، ولا تحضير لها، فيفيد بالقليل الذى تبقى له من اليوم وبقية الليل فى الدعوة ونشرها، واكتساب أنصار لها، وفى القراءة والعبادة.
أما ليلة الجمعة، فكان يعقب صلاة العشاء محاضرة عامة، يأتيها الجمهور من كل أنحاء المدينة، من المنتسبين إلى الإخوان وغيرهم، وتدور حول قضايا الساعة التى تهم الجماهير، ولكنها تتخذ من الدين منطلقًا.
أتاح قرب الطاهرمن البنا على امتداد تلك الشهور القليلة أن يتبين فيه أشياء كثيرة: الذاكرة القوية، ، وقدرته الفائقة على أن يتكلم العربية الصحيحة والبسيطة والواضحة دوامًا، وعفة لسانه، وينقد ما يراه من زيف وباطل، أو خروج على قواعد الدين، نقدًا موضوعيًّا، يشخص الداء، ويصف العلاج، ويأخذ بالأساليب أو يدعو إليها، ويعلو على تناول الأشخاص، ويعمل على أن يجمع ويوحد ويؤلف، ويردد باستمرار: "نعمل سويًّا فيما اتفقنا عليه، ويرحم بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه".
كان البنا يسع بقلبه الناس جميعًا، من يكبرونه سنًّا، ومن يفوقونه فى الوظائف درجات، فضلاً عمن دونه عمرًا ومقامًا، يهتم بأمره، ويعينهم على تجاوز ما يعترضهم من صعاب، وفيما بعد سوف يضم المركز العام للإخوان المسلمين فى

القاهرة إدارة للعلاقات العامة مهمتُها معاونة الإخوان على مستوى القطر المصرى أولا، ثم العالم الإسلامى فيما بعد، على حل مشكلاتهم اليومية والحياتية، ويحرص على أن يجمع الإخوان فى أى مكان على الحب والود والتعاون .
وكان يَشُدُّه جمال الطبيعة، ومنظر النيل، وغروب الشمس، ومهابة الجبال، ويرى فيها بديع صنع الله.
ولم تمض غير شهور قليلة حتى أحست إنجلترا دولة الاحتلال أن حسن البنا فى الصعيد أخطر منه فى القاهرة، فهو يتحرك فى مجال بكر مفتوح ، فردته إلى القاهرة من جديد.
ولم يكد البنا يصل القاهرة ويستقر فيها حتى كشفت وزارة حسين سرى باشا عن نواياها، فأغلقت مطبوعات الإخوان وصحفهم ، وتمالك الإخوان أعصابهم دون أن يداخلهم خوف أو رعب وفى تلك الأيام .
قررالطاهر أن يرحل إلى القاهرة، وأن يقضى مرحلة التعليم الثانوى فيها بعد أن حثه الشيخ كامل عجلان على ترك الجو الخانق في قنا.
فى ٩ أكتوبر ١٩٤٤م وصل القاهرة، وهى تموج بالمظاهرات من كل شكل ولون، فقد أقيلت وزارة الوفد بعد صراع مرير مع القصر الملكى، وجاء فاروق بأحمد ماهر باشا رئيسًا للوزراء، فحل البرلمان، وبدأ يختط سياسة يمثل رأى فاروق مركز الثقل فيها.
ابتلعت القاهرة الطاهر بصخبها، ومظاهراتها الطلابية التى لم تكن تتوقف، وندواتها الثقافية العديدة، فى الجمعيات، والنقابات، والجامعات، وبعضها كان حضوره مقابل ثمن يعدل ثمن تذكرة السينما، وهكذا احتاج لبعض الوقت لكى تعرف قدمه طريقها إلى المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين، وكان يقع فى أهم ميدان من الحلمية الجديدة، وتجىء فى وسط القاهرة تمامًا، وكانت فى مطلع هذا القرن مسكن علية القوم.
ويتحدث عن مقرات الإخوان في القاهرة ، ودورهم في نصرة فلسطين وعن لقائه بالمرشد لقب الأستاذ البنا ، وسؤاله عن أفراد أسرته فردا فردا وعن أحواله وسكنه ورغبته في رؤيته من حين إلى آخر . ويشير إلى ثقافة البنا الجامعة التي تتجاوز الثقافة الإسلامية إلى معرفة العالم وصراعاته ومذاهبه والمنجزات الاجتماعية على امتداد المعمورة . كما يتكلم عن انسجام الفكر والموقف لدى البنا ، واستقالته من التدريس ليعطي اهتمامه كله للدعوة وصحافتها ، ويشيد ببعض معاوني البنا ، وينتقد بعضهم نقدا موضوعيا ، وتحت عنوان " اثنان نفر منهما قلبى " أولهما أحمد السكرى وكيل الإخوان، ورئيس تحرير الجريدة اليومية الذي لم ترتح له نفسه دون تعامل معه، وقد كتب فى صدر الصحيفة أنه استقال من وظيفته ليتفرغ لشئون الدعوة، ويعطيها والصحيفة كل وقته، وكان ذلك صحيحًا فى جانب منه، أما الجانب الآخر فهو أنه ترك وظيفة فى الدرجة السابعة، ومرتبها يومئذ لا يعدو عشرة جنيهات، وأخذ راتبًا فى صحيفة الإخوان يبلغ مائة وخمسين جنيهًا، وهو الراتب الذى كانت تدفعه كبريات الصحف يومها لرؤساء تحريرها، وهم موظفون مهنيون، لا يزعمون أنهم أصحاب دعوة ولا متفرغون لها، وساعتها أحس أن فى الأمر خداعًا

لآلاف البسطاء من الإخوان الذين أسهموا فى جريدة مبدأ ، ليس غايتها الربح، وتمني لو اكتفى بما يعينه على مواجهة مطالب العيش، خصوصًا وأن الحياة كانت سهلة ميسرة، وأن راتب الوظيفة التى تركها كان بسيطًا ومحدودًا.
كذلك نفر قلبه من "أ.ح" بعد لقائين؛ إذ رأى فيه عجبًا وتصنعًا لا يتفقان مع خلق المؤمن القوى، ثم خبره مدرسًا فى معهد القاهرة لا يلتزم بوقت الدرس، وإذا التزم به لا يقوم بمهمته مدرسًا، وإنما يتحدث عن أمجاده، فى قيادة المظاهرات الأزهرية لإسقاط الشيخ الظواهرى، والمناداة بالإمام المراغى شيخًا للأزهر، وأشياء أخرى من لغو الحياة وباطلها، وأسف أن يكون مثله عضوًا بارزًا فى جماعة الإخوان المسلمين.
ينتقل الطاهر إلى الحديث عن التدخل البريطانى السافر لحل جمعية الإخوان المسلمين بعد أن أضحى الإخوان يمثلون قوة رهيبة وثقلا سياسيًا ملحوظًا فى الشارع المصرى، ويدفعون الجماهير ويقودونها، للمطالبة بإجلاء الإنجليز، بعد أن لعبوا دورًا قتاليًّا بارزًا، وبالغ الأهمية، فى حرب فلسطين الأولى، قبل أن تدخلها الجيوش النظامية فى ١٥مايو عام ١٩٤٨م، وفى ٨ ديسمبر ١٩٤٨م أصدر النقراشى باشا - بوصفه حاكمًا عسكريًا عامًّا - أمرًا بحل الجماعة ، ومصادرة شُعبها وممتلكاتها، وكل مؤسساتها وأموالها، وتعطيل صحفها، واعتقال الألوف من أعضائها.
وفى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨م، أى بعد عشرين يومًا من قرار الحل، أطلق طالب فى كلية الطب البيطرى الرصاص على النقراشي فأرداه قتيلاً.
وجاءت حكومة إبراهيم عبد الهادى لتنفذ رغبة الملك والإنجليز والصهاينة في اغتيال حسن البنا فى يوم ١٢فبراير من عام ١٩٤٩م، فى الساعة الثامنة مساء، ومع أن البنا تمالك نفسه، ونزل من سيارة الأجرة التى كان يستقلها، واتجه إلى هاتف جمعية الشبان المسلمين حيث كان هناك، وأدار رقمين من مكالمة حاول أن يطلبها قبل أن يغمى عليه، إلا إنه نقل إلى مبنى الإسعاف على بُعد دقائق، ثم إلى قصر العينى، وهناك أجهزوا عليه تمامًا. رحمه الله.
يقول مكي :" فى صبيحة اليوم التالى كنت أقف فى نافذة البيت الذى أسكنه فى ميدان السيدة عائشة، وبه يمر الطريق إلى مقابر الإمام الشافعى، فرأيت سيارة الموتى، تطوقها قوات ضخمة من الشرطة مدججة بالسلاح، وتتبعها عربات مصفحة تنطلق بسرعة، لا أحد أمامها غير العسكريين، ولا معها ولا وراءها، ولم يخالجنى أدنى شك فى أنها تحمل جثمان الشهيد.
ولم أبك، فقد جف الدمع فى عينى، وتوزعتنى هموم غامرة، عما سوف ينتهى إليه وطنى فى مستقبله القريب والبعيد، ثم قرأت على روحه الفاتحة!.
(أنظر نص المقال الطويل كاملا في : مجلة الدوحة ، عدد ١١٥، شوال ١٤٠٥هـ = يوليو ١٩٨٥م).

- ٤ -

لا تتناقض مواقفه في القضايا العامة والثقافية مع سلوكه العام، ولا يبتعد عما يمليه الضمير الحي الذي يعرف مصالح وطنه وقومه ، ويفقه طبيعة الفطرة والإنسانية في الصورة النقية ، ويرفض الفساد والظلم والقهر ، ويقف إلى جانب الطهارة والعدل

والكرامة . وفي الوقت نفسه يتابع ما يجري على الساحتين المحلية والعالمية متابعة دقيقة ، ليعرف أبعاد ما يحدث ونتائجه ، ولذا تأتي آراؤه واقعية واضحة .
في العام الماضي صدر قانون يتيح لليهود العودة إلى إسبانيا بعد قرون من طردهم منها ولا يتيح للعرب والمسلمين الفرصة نفسها . وبحكم أنه عاش في إسبانيا فترة طويلة في شبابه ، وتابع تطورات الحياة فيها بعدئذ وعلاقته المستمرة عن طريق السفر لحضور المؤتمرات أو المناسبات ، والاطلاع المستمر على أحداثها وأمورها كان جوابه العميق التالي مع بعض الإيجاز . يقول :
" من معجزات فرانكو أنه كان يرى أن سوءات العالم ثلاث: الصهيونية، والشيوعية، والماسونية. وكان يعتقد أن الصهيونية هي التي صنعت الشيوعية وصنعت الماسونية، لتصل إلى أهدافها، وتحقق مرادها. وبرغم كل الهجوم الأوروبي عليه، ورغم حملات حصاره، فإنه لم يسمح لهذه المؤسسات الثلاث أن يكون لها نفوذ في إسبانيا. لأنه كان يرى أن الصهيونية دعوة مخربة، وهي التي غذّت العالم بكل الأفكار التخريبية.
وقال د. مكي : إن اليهود لهم طريقتهم في التسرب إلى الشعوب، وعندما علموا أن الإسبان يهتمون بثقافتهم، ويعتزون بها إلى أقصى مدى، أرادوا أن يتقربوا من الإسبان، فعيّنوا سفيرهم في البرتغال المشهود له بالثقافة سفيرا لهم في إسبانيا، ودخل قلوب الإسبان ليس بوصفه سفيرا، ولكن بوصفه مثقفا، فاستطاع أن يجمع الإسبان حوله.
وتابع: استطاع السفير الاسرائيلي أن يحصل على موافقة رئيس الأكاديمية الإسبانية بزيارة الأسر اليهودية في إسرائيل التي كانت تتكلم الإسبانية القديمة وطردت.
بعد أن عاد رئيس الأكاديمية الإسبانية إلى وطنه إسبانيا كانت أول كلمة يقولها ‘‘إن من الغباء ألاّ تعترف إسبانيا بإسرائيل وهي مركز من مراكز نشر الثقافة الإسبانية في الشرق الأوسط’’. وأردف أن من الأسباب التي أثارت حفيظة اليهود ظهور حركة في إسبانيا تدعو للاهتمام بالتراث الإسلامي، بدأت في أوائل القرن الماضي، وبدأت بشكل سهل، واستطاعت الحركة أن تنصف قليلا الحضارة العربية. وعلى إثرها صار الإسبان يدرسون الفترة العربية على أنها ليست استعمارا، و بدأوا يدرسون " الحكم الثاني " رجلا عظيما، و"عبد الرحمن الناصر" أعظم خليفة، و" مسجد قرطبة " أعظم مساجد العالم.
كل هذا أزعج اليهود وهم لا ينتظرون حتى تفاجئهم الأحداث، فبدأوا من خلال الكنيسة لتحقيق ما يريدون، مستغلين أن إسبانيا توجد بها حرية للدخول والخروج في ظل القانون الإسباني. وانتقد الدكتور مكي ركون العرب وكسلهم تجاه ما يحاك ضدهم من اليهود الذي لا يكادون يهمدون في سبيل توطيد مصالحهم ونفوذهم في العالم كله، برغم أن النصارى في إسبانيا يكرهون اليهود أكثر مما يكرهون المسلمين.
في ذلك الوقت كان لمصر معهد تنفق عليه ، كان يرأسه رجل لا يؤمن إلاّ بنفسه، حتى إن إسبانيا شكت من أنه جمّد العلاقات الثقافية بين مصر وإسبانيا، وحال بين التواصل الثقافي بين إسبانيا ومصر .(رأي اليوم ٢٠١٤/٣/٤) .

وفي حواره السابق يشخص أزمة الثقافة في مصر، بأزمة مثقفيها الذين جاء ثلاثة أرباعهم من القري حفاة، وبعد أن فتح الله عليهم وذاقوا طعم الترف ، نسوا كل المبادئ التي كانوا يؤمنون بها، ويدعون إليها. وضرب مثلا على هؤلاء المثقفين برفعت السعيد، مشيرا إلى أن يوسف والي وزير الزراعة الأشهر أعطى للسعيد " اليساري " ٢٠ فدانا وزرعها له بالفاكهة، ثم بعد ذلك باعها بنصف مليون جنيه.
ويضيف: ما زلت مؤمنا أن من يتولون مسئولية الثقافة هم كارثة هذا الوطن، مشيرا إلى أن ظاهرة "عبده مشتاق" انتشرت انتشارا كبيرا في أوساط المثقفين، لذلك فهو يحس بشيء من الأمل عندما أقرأ أن فلانا اعتذر عن عدم قبول أحد المناصب.
وانتقد الدكتور مكي غالبية المثقفين الذين هم جاهزون ومستعدون في سبيل الوصول لغايتهم أن يرضوا بكل شيء، ويوافقواعلى كل شيء، ويدوسوا على كل شيء.
ويضرب مثلا على تراجع حركة النشر الثقافي بمؤسسة دار المعارف التي تركها سيد أبو النجا رئيس مجلس الإدارة في السنة التي أنشئت فيها مجلة أكتوبر ، وكان بها من الرصيد نحو سبعة ملايين جنيه استرليني . وجاءوا بأنيس منصور الذي عيّنه السادات رئيسا لتحرير " أكتوبر "، فتراجعت دار المعارف وانهارت، وتوقفت كل السلاسل الناجحة مثل : تراث الاسلام، ذخائر العرب، المكتبة الأدبية وغيرها.
أما مؤسسات النشر التابعة لوزارة الثقافة فهي لا تنشر إلا للصحافيين رهبة منهم، وسعيا لكسب رضاهم . وكانت النتيجة أن انهارت الهيئات الثقافية الحكومية، وبدا أنها غير جادة في نشر الثقافة. وأصبحت تطبع الأعمال الكاملة لمؤلفين لا تقرأ كتبهم.
وقال بأسى : توجد عندي وثائق بين مقاطعة كاتالونيا الإسبانية والدول العربية والإسلامية في القرن الرابع عشر، ولا أجد من ينشرها.
وردا على سؤال: كيف ترى تعثر ثورات الربيع العربي؟ أجاب د. الطاهر:
برغم أن خصوم الثورات العربية كثر وأقوياء، وعندهم خبرة في إفساد الثورات الطيبة، وبرغم كل المتاعب والبلاء، فإنني متفائل، ولكن الثمن قد يكون غاليا.
وفي حديث إلى صحيفة الجريدة الكويتية ٨/٥/ ٢٠١٣ ،حدد الثقافة بأنها موقف ومن لا موقف له فهو ليس مثقفاً بل تاجر كلام. اليوم لم تعد ثمة مبادئ أو غايات محددة، وإنما ثمة من يبيع ويشتري ويستفيد، وتجده يرقص على كل الأنغام ويأكل على كل الموائد. إجمالا اختفى المثقف الحقيقي في مصر منذ عهد الرئيس المخلوع حسني مبارك، والذين بقوا في الساحة إما اعتزلوا إذا كانوا من القدامى أو رحلوا، فيما تنقص الشباب خبرة وتجربة وقدوة.
وأجاب عن رأيه في قصيدة النثر بأنها مصطلح ينقض بعضه بعضاً، فالقصيدة لا تنسجم، قطعاً، مع النثر.
ويدلي برايه في أحوال الترجمة في الوقت الراهن فيرى أنها توقفت مع الجيل الماضي ، مع محمد عبد الهادي أبو ريدة والدكتور محمد عوض وهما مترجمان عظيمان. ويشير إلى إحدى المؤسسات التي يفترض أنها أنشئت للترجمة خصيصاً حيث العجب العجاب، كأن يُنشر كتاب نشر في مكتبة الأسرة أو آخر مترجم منذ

عشر سنوات أعاد مترجم آخر ترجمته، وأحياناً نجد المراجع يتقاضى أضعاف ما يتقاضاه المترجم.
ويجيب على سؤال لمجلة (الوعي الإسلامي ، العدد ٥٧٠ – ديسمبر / يناير ٢٠١٣) عن واقع الأدب العربي في الوقت الحالي بأننا نعيش على أدب أزمان خلت، حين كان العرب عربًا، أمَّا ما يملأ الساحة الآن فضجيج فارغ، وطبل أجوف، وسراب يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.. وعلى المستوى النقدي فطغيان الهزيل على الإبداع الجيد لا يفرز إلاَّ نقدًا مشوهًا.
ويرى ألا أحد هناك يحترم وقته وجهده يريد أن يهدر قواه فيما لا يفيد، أما السطحيون والتافهون فيكوّنون عصبة بالغة الخطر عظيمة الشر، وعلى من يتصدى لهم أن يعاني وأن يمضي وقته يدفع عداوتهم، هذا إلى جانب عدم وجود مجلة أدبية متخصصة ومحايدة وموضوعية تنشر لك ما تريده، حتى وإنْ أنفقت عليها الحكومة، ثم هي على أية حال محدودة التوزيع.. فما أهمية أن نكتب في مجلة يقتصر توزيعها على كتابها ومن يتوقعون أن ينشروا فيها مقالتهم؟!

- ٥ -

كنت أود الاستطراد لبيان كثير من مواقف الرجل في القضايا العامة والثقافية ، ولكن استعجال المطبعة لأنتهي من الموضوع يجعلني أكتفي بهذا القدر ، وهو عظيم بالنسبة لرجل عظيم في زمن عز فيه المثقف العضوي الذي تحدث عنه الشيوعي الإيطالي جرامشي ، أو المثقف الملتزم الذي صوره ونادي به الوجودي الفرنسي سارتر ، أو المثقف المسلم ذو الضمير الحي كما دعا إليه القرآن الكريم .
لقد انتمى الرجل العظيم إلى دينه وقومه ووطنه ، وكان مثلا في الشجاعة الأدبية ومواجهة الحقيقة المرة في بلاده بالتعبير الصريح عنها غير هيّاب ولا وجل .
لقد تحدث في مؤتمر للتواصل الثقافي مع إسبانيا ودول أمريكا اللاتينية، انعقد باتحاد كُتاب مصر منذ فترة عن ثمن الحرية للمثقفين والأدباء فأشار إلى ماجرى في أميركا اللاتيبنية وقال :
" إن ما حدث في الدول اللاتينية من أعمال قتل ونهب، هو أرخص ثمن للحرية الأدبية، وإن وضع أمريكا اللاتينية كان أسوأ من وضعنا الحالي بكثير، كانتشار الفساد المالي والإداري وجرائم القتل والنهب والسلب.
إن أمريكا اللاتينية من أكثر البلاد ديمقراطية الآن ، ويؤمنون بالحرية الفرنسية، ويقدسونها، ما أدى إلى وجود عدد كبير من الشعراء والأدباء، وذلك لعدم وجود قيود عليهم، فكل منهم يستطيع أن يقول ما يؤمن به.
والدول اللاتينية تحترم الثقافة كثيرًا، فمعظم السفراء من المثقفين والأدباء، والثقافة عندهم أهم من الثروة، فدولة البرازيل التي كانت تقتل الأطفال الفقراء لتنظيف المدينة، هي الآن بلد ديمقراطي من الدرجة الأولى ".
لقد ظل عدة سنوات أستاذًا زائرًا بجامعة بوجوتا الكولومبية، وعايش آداب أميركا اللاتينية ، وتعرف إلى الأدب المكتوب بالإسبانية في دولها ، ورأى كيف دافع أدباء ومثقفو " جمهوريات الموز " كما كان تسمى هذه الدول احتقارا لحكامها الطغاة ، عن الحرية والكرامة وحقوق الإنسان ، ودفعوا من أجل ذلك ثمنا باهظا حتى غدت

معظم بلادهم اليوم في مصاف الدول الديمقراطية الحرة ، وبعضها حقق تقدما اقتصاديا ملموسا .
هذا الوعي بقيمة الحرية آمن به الدكتور مكي إيمانا كاملا في الوقت الذي تحول فيه كثير من المثقفين المصريين والعرب إلى مجرد بهلوانات وأراجوزات وصبيان عوالم يمسحون أحذية الديكتاتوريات والاستبداد ، بل تحول بعضهم إلى مستوى لا يليق بشخص يحمل أمانة القلم لدرجة أن أعلن وزير أسبق بفخر مخادع أنه أدخل معظم المثقفين الحظيرة !
أما الدكتور مكي فقد ظل وفيا للعلم والمعرفة ثابتا على رأيه لا يرهب ولا يرغب ، وكان في تواضعه ومروءته وشهامته مثالا للعالم الجليل والمثقف العظيم ، الذي يحبه المنصفون ، ويحسده الظالمون ، ويجمع على قيمته أهل العلم والفضل ، وهو ما جعله يستحق عن جدارة جائزة التميز من جامعة القاهرة (٢٠٠٩) .
بارك الله في عمره وعلمه ، مثالا للمعلم العالم العامل .
٢٠١٥/٤/١٢م .

.

كتب للمؤلف
الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود

أولا : كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض

١- النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته ، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م .
٢- تيسير علم المعاني ، ١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦ م .
٣- الأدب الإسلامي : الفكرة والتطبيق ، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م .
٤- محمد- صلى الله عليه وسلم –في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة) ،١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٩م..الطبعة الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة (مصر) ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م .
٥- المدخل إلى البلاغة القرآنية ، ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧ م .
٦- القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة)،١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩ م .
٧ - تطور النثر العربي في العصر الحديث ، ١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨م .
٨- مدرسة البيان في النثر الحديث ، الطبعة الأولى ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٦ م.
٩- تطور الشعر العربي في العصر الحديث ، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م .
١٠ – المدخل إلى البلاغة النبوية، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م .
١١- الأدب المقارن : المفهوم والتطبيق ، ١٤٣٦ هـ = ٢٠١٥م .

ثانيا : كتب صادرة عن دار العلم والإيمان (دسوق – كفر الشيخ) :

١- الإخوان والنظام : برنامج الحزب المستحيل ،٢٠٠٩م .
٢ - وجوه عربية وإسلامية ،٢٠٠٨م .
٣ - الورد والهالوك : شعراء السبعينيات في مصر (طبعة ثالثة) ، ٢٠٠٩م .الطبعة الأولى ، دار الأرقم ، الزقازيق (مصر) ، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣ م .
٤ - الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة) ، ٢٠٠٨م .الطبعة الأولى ، دار البشير ، عمّان (الأردن) ، ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦م .
٥ - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة ثالثة) ، ٢٠١٠م . الطبعة الأولى ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .
٦ - الرواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية)، ٢٠٠٩م ، الطبعة الأولى ، نادي جازان الأدبي (السعودية) ، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨م .
٧ – روائع القصص النبوي : في رياض النبوة (٤ أجزاء) . الطبعة الثانية ، دار الصحابة ، طنطا (مصر) ، ٢٠١٢م .
٨ - شعراء وقضايا : قراءة في الشعر العربي الحديث ، ٢٠٠٨م .

ثالثا : كتب صادرة عن مكتبة جزيرة الورد – القاهرة :

١- التمرد الطائفي في مصر : أبعاده وتجلياته ، ٢٠١١م .
٢ – العمامة والثقافة : دفاع الإسلام وهجوم العلمانية ، ٢٠١١م .

٣ – عباد الرحمن وعباد السلطان ،٢٠١١م .
٤– الأقلية السعيدة : يوميات التمرد والتسامح ، ٢٠١١م .
٥- ثورة الورد والياسمين : من سيدي بوزيد إلى ضفاف النيل ، ٢٠١١م .
٦ - اخلع إسلامك .. تعش آمنا ؟! ، ٢٠١١م .
٧ – تدبير المنزل – ما بعد الثورة ،٢٠١١م .
٨ – الضيافة والشهادة ، ٢٠١١م
٩ – عواصف الربيع العربي ، القاهرة ، ٢٠١١م .

رابعا : إسلاميات :

١ - مسلمون لا نخجل (٤ طبعات)، الطبعة الأولى ، دار الاعتصام ، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م .
٢ - حراس العقيدة (٣ طبعات).الطبعة الأولى ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .
٣ - الحرب الصليبية العاشرة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .
٤ - العودة إلى الينابيع : فصول عن الفكرة والحركة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د. ت .
٥ - الصلح الأسود .. والطريق إلى القدس ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .
٦ - ثورة المساجد .. حجارة من سجيل ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .
٧ - هتلر الشرق .... ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .
٨ - جاهلية صدام وزلزال الخليج ، دار المعراج الدولية للنشر ، الرياض ، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م .
٧ - أهل الفن وتجارة الغرائز (طبعتان) . طبعة السعودية ، مؤسسة آسام للنشر ، الرياض ، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م .
٨ - النظام العسكري في الجزائر ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣م .
٩ - حفنة سطور .. شهادة إسلامية على قضايا الأمة ، دار المعراج الدولية للنشر ، الرياض ، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م .
١٠ - الأقصى في مواجهة أفيال أبرهة ، مركز الإعلام العربي ، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م .
١١ - الإسلام في مواجهة الاستئصال ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م .
١٢ - تحرير الإسلام ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م .
١٣ - دفاعا عن الإسلام والحرية ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .
١٤ - التنوير .. رؤية إسلامية ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م .
١٥ - معركة الحجاب والصراع الحضاري ، مركز الإعلام العربي ، القاهرة ، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م .
١٦ - العصا الغليظة ، كتاب المختار ، القاهرة ، د . ت .

١٧ - واسلمي يا مصر، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية ، طنطا (مصر) ، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م .
١٨ - ثقافة التبعية : المنهج . الخصائص . التطبيقات ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧ م .
١٩- انتصار الدم على السيف ، مركز الإعلام العربي ، القاهرة ، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م .
٢٠ - المدافعة والمداولة – قراءة في السنن والتحولات ، مكتبة سلمى الثقافية ، تطوان (المغرب) ، ٢٠١٢م .
٢١- أهل الفن وتجارة الغرائز ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت .

خامسا : كتب أدبية ونقدية :

١- الغروب المستحيل (سيرة كاتب) ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ، د . ت .
٢- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان) ، عدد خاص من مجلة الثقافة الأسبوعية ،الفاهرة ، ١٩٧٤م .
٣- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان) ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٦م
٤- موسم البحث عن هوية : دراسات في الرواية والقصة) ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة،١٩٨٧م .
٥- حوار مع الرواية في مصر وسورية ، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٩م ..
٦- الوعي والغيبوبة : دراسات في الرواية المعاصرة .، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤٢٧هـ =٢٠٠٧م .
٧- إنسانية الأدب الإسلامي ،مكتبة بستان المعرفة ، كفر الدوار (مصر) ، ٢٠٠٨م .
٨- حصيرة الريف الواسعة ، مكتبة بستان المعرفة ، كفر الدوار (مصر) ، ٢٠٠٨م .
١٠- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة ، وزارة الأواف والشئون الإسلامية ، سلسلة روافد ، الكويت ، ١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩ م .
١١– الحكاية كلها معاصرة(دراسات في الرواية) ، دار حضر موت ، المكلا (اليمن) ، ٢٠١١ م .
١٢- الحداثة العربية : المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م .
١٣ – بالاشتراك مع آخرين ، نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل ، تحرير وإشراف أسامة الألفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٢ م .
١٤ – بالاشتراك مع آخرين ، أمل دنقل عابرا للأجيال ، تحرير وإشراف : أسامة الألفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٣ م .

١٥ – مطولة على أحمد با كثير ،مطبوعات نادي جازان الأدبي (السعودية) ، د. ت .
١٦ – الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان) ، دار الهلال ، ١٩٧٦م .
١٧ – لويس عوض : الأسطورة والحقيقة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤م
١٨ – نحو رواية إسلامية ، ملحق المجلة العربية (٢٩) ، الرياض ، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م .
١٩ – زمن البراءة : النيل بطعم الجوافة (الجزء الأول من السيرة الذاتية) ، الوادي للثقافة والإعلام ، القاهرة ، ١٤٣٦ هـ =٢٠١٥ م .
٢٠ – زمن الهزيمة : النيل لم يعد يجري (الجزء الثاني من السيرة الذاتية) ، الوادي للثقافة والإعلام ، القاهرة ، ١٤٣٦ هـ = ٢٠١٥ م .

سادسا : إعلام :

١- الصحافة المهاجرة : رؤية إسلامية ، ط٢ ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤٢٣ هـ = ١٩٩٢م.

سابعاً: كتب للأطفال :

١- واحد من سبعة ،هيئة قصور الثقافة ، سلسلة كتاب قطر الندى – العدد ١٦٤، القاهرة ، د . ت .

ثامنا : كتب محققة :

١- فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ٢٠١٠م.
٢- طائفة من المؤلفين ، أحسن ما كتبت ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ٢٠١٠م.
٣ – المتنبي ، عبد الوهاب عزام (تحت الطبع) دار الفضيلة ، القاهرة .
٤ – تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، أحمد مصطفى المراغي (تحت الطبع) ، دار الفضيلة ، القاهرة .

تاسعا – كتب معدة للنشر:

- الإبادة والمقاومة : الشعب الفلسطيني لا يموت .
– خبز السلطة .. خبز الحرية (الحقل الثقافي في مصر المعاصرة) .
- الحلم والدهشة (قراءة أدبية) .
– اللحم الإسلامي المستباح .
- حضرت التبعية .. وغابت الهوية .
- صالون الشعر والأدب (أعلام وقضايا) .
- نداء الفطرة .
- ثقافة تزغيط البط !
- محرقة غزة .. الشعب الفلسطيني يقاوم !
- القيم الإسلامية في رسائل النور
- كهنة آمون !

- الصرب في مصر .
- الوطن على كتفي !
- القبضة الفولاذية .
- على باب الحرية .

الفهرس